العقل العربى

ومنهج التفكير الإسلامى



أحمد موسى سالم



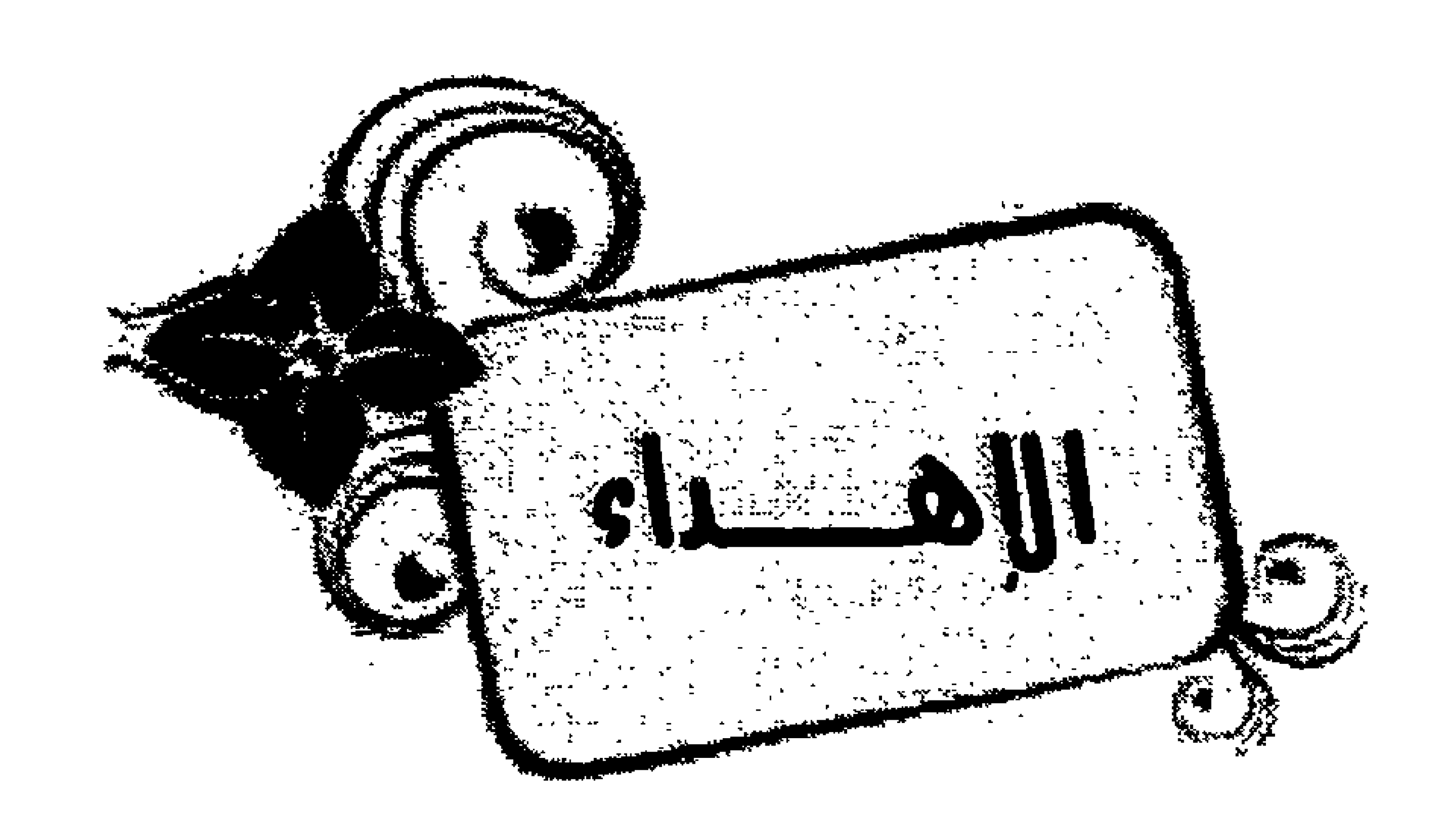
العقـــل العربـــي
ومنهج التفكير الإسلامي

أحمد موسى سالم

الطبعة الأولى
2014

النـاشـر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : 5404480 - الإسكندرية


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾
﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾
﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ
وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾
قرآن كريم



إلى الأشقاء العرب والإخوة المسلمين في قلب هذا العالم بعد أن دهمتهم الأخطار ... وأثقلتهم الأوزار ... وضاق عليهم الحصار

أهدي هذا الكتاب

آملاً إن شاء الله في أن يعودوا بالدين الحق .. والعلم الحق إلى الله الحق

مسترجعين بالإيمان فصحي التعبير

وسلامة منهج التفكير

ورؤية العقل المنير

المؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

صدمات كثيرة في هذا العصر كان من نعمة الله على شعوب الأمة العربية وفي طليعتها مصر، أن تواجهها، لتخرج من كهف تخلفها الطويل عن الحياة والحركة، وتصحو من غاشية رقادها الذاهل عن الزمان والمكان، وتسأل أول ما تسأل من أجل أن يجمع الله شتاتها، ويزيل أسباب فرقتها: من نحن في قلب هذا العالم؟ .. وماذا نريد؟ .. وكيف نحقق بحرية الإرادة، ووعي الذات، ووضوح الهدف.. ما نريد؟

صدمات كثيرة متلاحقة، ولا تزال تتلاحق في هذا العصر، تفرض على جميع الشعوب العربية الإسلامية هذا الخيار المحلق فوق رؤوسها: بين أن تستسلم لأسباب الفرقة والتنازع وتتلاشى، أو أن تستهدي إلى ما تملكه من أسباب الألفة والوحدة والقوة، لتكافح بها.. وتحيا.. وتنتصر في حياتها..

والظواهر الكثيرة والمتنامية تشهد بأن هذه الشعوب العربية الإسلامية قد اختارت جميعها طريق الكفاح عن صحوة ذاتها، وتأكيد عقيدتها، وإحياء سماتها، وتحقيق وحدتها، وهي تستعيد بأبحاث علمائها ومفكريها حقيقة مقوماتها.. أي حقيقة هذه المقومات التي تبني في «الإنسان العربي» في كل شعوبه هذه "الذات العربية" في تاريخها الصحيح، ولغتها الفصحى، وعقيدتها السليمة، وخصائصها الحضارية والإنسانية، التي لا تتناقض بإيمانها مع العلم، ولا تنكص عن سباقها مع العصر..

من أجل ذلك.. من أجل تحقيق هذه «الذات العربية» بكل مقوماتها. ومن أجل استعادة الصحيح من معالمها، وسماتها، وخصائصها، بدأت أصوات عدد من قادة الفكر، وعلماء الدين، ترتفع بالتحذير من مرور الوقت الطويل على فرقة الشعوب العربية أمام مشكلات وحدتها. وفي وجه الإرادات والقوى المعادية لها، في حين أنها تملك بكل ما منحها الله من نعمة الماضي والحاضر، في مصادر الدين، ومنابع اللغة، وموارد الأرض،

وموقعها من قلب العالم – أن تخرج من ظلمة هذا المحاق العارض بالفرقة والتخلف، لترى في أنوار «ذاتها» ومعالم «حقيقتها» هذا الطريق الرحب الذي تتجمع بصحوتها عليه، وتدرج بإرادتها ونحو أهدافها من فوقه..

لقد ارتفعت أصوات هؤلاء العلماء والمفكرين من كل اتجاه، لتعبر عن تصوراتهم من زوايا الرؤية المختلفة للخروج من هذه «الأزمة» التي تراكمت بها عصور البيات العربي الحضاري الطويلة. وتجمعت فيها مؤثرات ومخططات الغزو المذهبي الخارجي غير المنقطعة.. أزمة فقدان الذاكرة القومية. بدلالة ظاهرة واحدة شديدة الوضوح، هي هذا «التدهور» المتسارع في نطق واستعمال اللغة العربية.. هذا التدهور الذي استحالت به لغة المثقفين إلى لهجات غريبة، مريضة المعاني، وإلى أصوات متآكلة، فاقدة الدلالة، وإلى كلمات وتراكيب مهجنة بلغات وعتامات فكر الغرب، لتكون هي اللغة المثخنة بجراحها، والناعية بآلامها ومهاناتها عقوق أبنائها لها، واندفاعهم وراء أوربا تحت شعارات التطور، والتحديث، والعالمية، والأممية، «ولا رجعة إلى الدين بعد اليوم» لتنشيط خطط العدوان عليها، في حين هي تقف على رأس الطريق الرحب والمضيء إلى الإفاقة والصحوة، تنادي أبناءها إليها، حتى لا تنقسم هذه الأمة العربية الواحدة على جراح لغتها، وهجنتها، وعبوديتها بأصواتها ومعانيها لأعدائها، فتصبح بتعدد هذه اللهجات المتآكلة والمهجنة "شعوبًا خرساء" غير قابلة للتآلف، وطوائف وفئات ينعزل بعضها عن البعض الآخر، ولا يملك بعضها وسيلة التعبير الحية، والجذابة، لكي يقترب ويفهم ويتحد مع البعض الآخر..

لقد أدرك عدد من العلماء والمفكرين مدى الأخطار المحدقة بوحدة وقوة العرب، في قلب هذا العالم، مع استفحال أزمة «اللغة العربية» التي ترتبط بسلامتها في النطق والتعبير سلامة «العقل العربي» في منهجه للتفكير، هذه السلامة العقلية والمنهجية التي تعود بها الأضواء من منارات اللغة الفصحى مرة أخرى إلى ساحات الدين الحق، والعلم النافع، وأدب

الأخلاق، وهذه الثقافة المرشدة والهادية بحقائقها التعبيرية عن الطريق المفتوح دائمًا، وفي هذا العصر، أمام الأمة العربية لتأتلف، وتتوحد، على خصائصها وقدراتها، ونحو آمالها وأهدافها، بغير وهن أو حرج أو غموض..

ولكن عددًا آخر من المفكرين، الذين احتوتهم المؤثرات المذهبية الأوربية – شرقًا أو غربًا – رفعوا – ولا يزالون يرفعون – أصواتًا نابية، يسندون بها تخلف الأمة العربية في هذا العصر، وبقياس منهجهم الأوروبي والفلسفي في التفكير، إلى أن «العقل العربي يتدهور».. وإلى أن تدهور هذا العقل راجع إلى أنه لا يزال يستمسك بالماضي.. الذي هبطت حقائقه إليه «من السماء».. في حين علاجه – في رأي هذه العقول المستهواة لباطلها – هو أن «يتفلسف».. أي أن «يتفلسف» العرب.. بأي من هذه المذاهب التي تخرج إليهم «من الأرض».. من أرض الغرب.. حيث يستقبلون بوجوههم، وآمالهم، هذه الشمس الحضارية الغربية الغاربة.. التي «تشرق من الغرب».. كما يقول لهم أحد أعلام هؤلاء الفلاسفة: الدكتور زكي نجيب محمود..!

في مواجهة مثل هذا التمويه الفكري، والوضعي، والفلسفي، باسم التحديث، والعلمانية، والتطور، والعصر، ووراء العديد من الأقنعة الوهمية، وتحت البالي من الفلسفات الأوربية المنهارة، يصدر بمشيئة الله هذا الكتاب، بيانًا شافيًا بتوفيق الله عما فات مثل هؤلاء الفلاسفة «المغتربين عن ذاتهم» من حقائق وملكات وغايات هذا «العقل العربي» الذي ارتبط في كل صحواته وإشراقاته بمنهجه الإسلامي في التفكير، وبلسانه العربي المبين في التعبير..

نعم.. في هذا الكتاب الأول من نوعه بين الكتب التي تصدت للتساؤل عن العقل العربي، أو تعرضت لواجب النهوض باللغة العربية المعاصرة، وإحيائها وتقويمها على البيان القرآني – أرجو وأنا أدعو الله – أن أوفق في أن أزيد من مساحة الضوء البيانية، والعقلية، حول هذا «العقل العربي» الذي يرتبط ببزوغه على مقوماته الصحيحة قيام وحدة هذه الأمة العربية حول حقيقة ذاتها التاريخية، ولغتها المبينة، ومنهجها السليم في

التفكير، في حين هي تجاهد مستبشرة بهذه المقومات لتحقيق رسالة بقائها، ورخائها، وتقدمها، ووحدتها.. إن شاء الله.

في هذا الكتاب سيتبين القارئ الجاد أن «العقل العربي» الذي يكاد أن يستشهد بين أيدي المتجنين عليه، أو الجاهلين به، أو الناكصين عن استخلاصه من أغلال أزمته. لا يمكن تصوره منفصلًا في حياة الإنسان العربي المؤمن عن اللسان العربي المبين. فالبيان العربي هو الدلالة الصوتية واللغوية على صحوة هذا الإنسان بصحوة فطرته السليمة، التي تعقل بتفكر الحواس في السموات والأرض برهان الإيمان على الله الواحد الحق، ولهذا فقد كان من حكمة الله أن ينزل هذا القرآن عربيًا، وبلسان عربي مبين، بعد أن تم خلال مراحل طويلة، وحركة دائبة بين آفاق السموات والأرض، حول منارة الدين الحق عند بيت الله – كمال هذا اللسان العربي الذي نزل به القرآن الكريم مبينًا، ومحفوظًا، ومنيرًا، فوق كل العوائق، وعبر كل العصور، وبغير أفول.. وفي مثل هذا المعنى يقول الله تعالى وهو يجمع بين عربية البيان القرآني، وقدرة العقل العربي بهذا البيان على وعي كتاب الله، وتدبره، وتعقله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:2]

هذه اللغة العربية المبينة التي ارتبط بها شروق هذا العقل العربي بإيمانه وفطرته. لم تنشأ إلا في خضم ومعترك حياة هذا الإنسان العربي، الحر الإرادة، والدائب الحركة، عبر تلك الآفاق والفيافي، وهو يرعى قطعانه، أو يحمل تجارته، في حين هو يتفكر في آيات الله بالسموات والأرض، كما تفكر أبوه إبراهيم، مدركًا بصحة حواسه وفطرة عقله، ومن خلال حركته داخل الواقع المتحرك، هذا الاتساق في الخلق، بغير تفاوت أو اختلال أو فتور، ملء هذا البداء المضيء الذي عاش يتحرك داخل حركته، وينطق باتساقه، ويرى بلغته وعقله هذا البرهان الحي، والمتجدد، على الله الخالق المبدع، الذي تمضي كل الأشياء في سننه، ومعها

الإنسان، إلى ما شاءه الله لها من حكمته في هذه الحياة، وما بعد هذه الحياة..

نعم.. في هذا البداء المضيء، وفي خضم الحركة الدائبة، ومع صحوة العقل والحواس في فطرة هذا الإنسان العربي الأول، نشأت بعقلها وبرهانها وغاياتها هذه اللغة العربية المبينة، التامة الحروف، والصحيحة المخارج، والتي يتحد في أصواتها كل من المرئي والمسموع، مضيئًا بهذه الدلالة العقلية، والفطرية، في معانيها وفي تراكيبها، وفي إشاراتها الحية الدائمة إلى خالق الأشياء، ومبدع الأرض والسماء..

وهكذا من بداية الطريق تتجاب كل السحب، وتتبدد كل التلبيسات، عن حقيقة هذا «العقل العربي» ليظهر بكل مقوماته، وسلامة منهجه، وقوة حجته، ووضوح طريقه، كما هو في صورة هذه "النعمة الكبرى" التي أنعم الله بها على الإنسان، ليهتدي به سويًا إلى الدين والحق، والإيمان والعلم، بعيدًا عن الزيغ والضلال..

إننا بهذا العقل العربي، وبقدر ما نستحيي من خصائصه، وما نقاوم من عوامل الطمس لملكاته، نرقى إلى حالة الكمال لصحة الإدراك الفطري، حين «نعقل» أنفسنا عن كل ما تضل به، وحين «نعقل» لأنفسنا كل ما نهتدي إليه، ومثل هذه القوة العاقلة في «العقل العربي» لا تنفصل بخصائصها عن هذا البرهان على الله، في الحركة والسير، وفي التفكر والتدبر، كما لا تنفصل عن خصائص هذه اللغة العربية الحية المبينة، التي هي أداة هذا العقل الفطري ليحدد بها، بالصوت، والإيقاع، والفكر، حدود هذه المدركات اليقينية، غير الظنية ولا الفلسفية.. المدركات والحقائق التي لا تتناقض أبدًا مع العلم، ولا مع الإيمان، ولا مع العدل، وبهذا التحديد المبين لسانًا، والمنير عقلًا، يتحرك الإنسان العربي كشأنه في صحوات عقله وإيمانه، وفطرته وبيانه، في مجالين متحدين ومتكاملين في حياته العلمية والعملية هما:

الأول – مجال حركته للبحث الدائم عن سنن الله وحكمته في الخلق، في ضوء المنهج اليقيني في التفكير، واللسان المبين في التعبير..

والآخر – مجال حركته بالعمل الصالح، والمتواصل، من أجل تسخير ما سخره الله له من حكمته وسننه في الخلق، في بناء هذا "المجتمع المؤمن" الذي يتحقق به في عمرانه، وتنميته، وتقويمه، والجهاد عنه، أمر الله بهذا الابتلاء للإنسان في حياته الدنيا، ليعبر منتصرًا على مواردها، وشهواتها، وزينتها، بعمله الصالح، إلى حيث المآب والحساب في الآخرة، وإلى حيث جنة الله التي يخلد بها الصالحون، آمنين من غير خوف، وإخوانًا من غير صراع، ومقربين إلى ما هو خير.. إلى رضوان الله الأكبر.

البداية إذن إلى صحوة ونماء هذا العقل العربي، الفطري، وإلى سلامة منهجه في التفكير، صحبت منذ فجر التاريخ الديني نشأة ونماء هذه اللغة العربية الفصحى، التي تجدد إشراقها وارتقاؤها منذ أقام إبراهيم وإسماعيل قواعد بيت الله في مكة، وحيث مضت في رعاية الله تتخلق وتتجدد وترتقي، بكل ذخائرها الحية، وعلى أصول كلمتها الطيبة، وفطرتها المضيئة، ما بين آفاق هذا البداء المشرق، والملكوت المنير، الذي عاش العرب من حول البيت يتحركون بينهما ليلًا ونهارًا، ويتعلمون ويتكلمون متسقين باللغة معهما إقامة وظعنًا، في حين ينتهون بحصاد حركتهم، وعلومهم، وكلامهم، كل عام إلى بيت الله، يحجون إليه بأفضل ما جمعوا وما علموا، آمنين متطهرين، ومهتدين متساوين، مؤتلفين على منافع نمائهم وارتقائهم في طاعة الله، ومتحدين على حقائق إيمانهم حول قبلته، وهم ينتظرون الكتاب والرسول، وتمام الدين والإسلام.

ثم نزل الكتاب المبين، ليحفظ الله به جميع هذه المشاهد والآيات السماوية والأرضية، التي اهتدى بها العرب إلى برهانهم ولسانهم.. مثل هذه اللغة المحفوظة بالقرآن الكريم هي القادرة اليوم – بمشيئة الله – على أن تعيدهم بصحوتهم القومية والحضارية والإنسانية، إلى عقلهم الفطري

المؤمن، وإلى أصالتهم الحية المتجددة، لكي يواجهوا وهم يستبقون الأحداث، مؤمنين متيقنين، غير متفلسفين ولا منقسمين – هذه التحديات والصراعات المحدقة بهم، والمتألبة عليهم، وبذلك يتاح لهم – صعودًا من التردي، وائتلافًا بعد التمزق، واستبانة بعد الاستعجام، وسلامًا بعد الخصام – أن يجعلوا من حقائق الماضي العربي الإسلامي، ومن أصالته وعلميته، ومن شرائعه وأخلاقه، في ضوء هذا العصر الصاخب بعلومه ومخاطره وآماله، واقعًا حيًا لمستقبلهم المجيد، وسلامهم المنشود.. واقعًا مشرقًا، هادفًا، ينصرهم الله به، وهم يأتلفون بمقوماته على الدين الحق، والعلم الحق، في رجوعهم وإنابتهم إلى الله الحق..

إنه هو هذا النصر الموعود، الذي يزداد تطلعهم إليه، وسعيهم من أجله – عربًا ومسلمين – بعد هذه الأخطار التي تضاعف تهديدها منذ اغتيال السوفييت السافر لحرية شعب أفغانستان المسلم، وبعد انهيار هذا الوفاق الوهمي بين الشرق الشيوعي الإلحادي والغرب العلماني الاحتوائي، ثم مع بداية التصعيد للصراع بينهما على مصادر الحياة والبقاء والرخاء للشعوب العربية والإسلامية، وعلى مقومات استقلالهم ووحدتهم وتضامنهم..

وأخيرًا أقول: لعلي بهذا البحث حول حقيقة وهوية «العقل العربي» في ضوء ما يرتبط به منهج التفكر الإسلامي، بخصائص هذا العقل من المنهج العلمي، والفكر اليقيني – أن أكون قد فتحت الطريق بتوفيق الله إلى بدايات هذا العلم الصحيح.. في هذا العصر – بمقومات الذات العربية وهويتها، منذ إشراقها على أفقها الديني والحضاري والتاريخي، أي منذ فجر التاريخ حتى اليوم، تعزيزًا لقوة هذه المواجهة الحتمية بين الشعوب العربية والإسلامية والأخطار التي أحدقت بها، والتي توشك أن توقف مسيرتها، وأن تبدد صحوتها..

وإذا كنت في هذا الكتاب قد قدمت في ضوء القرآن الكريم هذه الأدلة العلمية، والمقارنات اللغوية، واللمحات التاريخية، على أن «العقل

العربي» علمي في برهانه، وكوني في رؤيته، وفطري في بصيرته، ويقيني في دعوته، واجتماعي في حكمته، وسلمي في غاياته، فإنما لأؤكد وأجزم وأقطع بما أردت تأكيده من الجانب الآخر المقابل، وهو أن "العقل العربي" المؤمن لا يقبل مهما ألمت به الغفلات، ومهما ألحت عليه الضلالات والمغررات – أن «يتفلسف» بأي وجه من وجوه الفلسفة القديمة أو الحديثة، سواء أكانت هندية شخوصية عدمية حلولية، أم كانت أوربية ظنية طبقية عدوانية، وأن نسبة الفلسفة إلى الإسلام في أي عصر من عصور تخلف المسلمين – في غيبة التدبر لكتاب الله، وتدهور النطق باللسان الذي نزل به كلام الله – ليست في كل المذاهب التي تفلسف دعاتها، وفشا ابتداعها، مثل المعتزلة والباطنية، والإسماعيلية والبابكية، والبهائية والقاديانية، إلا افتراء على الله، وتناقضًا مع الإسلام، وفتنة لا تزال عللها ناشبة في جسد وجوارح المسلمين..

وإني لأحمد الله أن الإمام محمد بن إدريس الشافعي – رضي الله عنه وأرضاه، والذي كان يفقه في فقهه لسان العربية المبين، كما كان يحسن أن يفهم ويقرأ لغة اليونان الأولين، قد سبق في إحدى صحوات الأمة العربية، وعلى رأس حلقته التعليمية الجامعة في جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، فأجمل ببصيرته المؤمنة، ومنهجه السليم، ولغته الفصحى – ما أوضحته في هذا الكتاب لأهل هذا العصر بأدلته وأهدافه، وذلك حيث قرر هذه القاعدة السليمة التي تقول باختلاف مناهج وغايات التفكير عند اختلاف خصائص اللغات والتعبير..

بذلك يمكن أن نسمع ونبصر عبر التاريخ العربي الديني، هذه الأصوات والصحوات التي ترتفع وتعمل للحفاظ على سلامة البيان العربي في اللسان العربي، من أجل الحفاظ على خصائص وغايات «العقل العربي»، وهي التي تتجدد اليوم في هذه الأصوات الأهدى، والأنقى، والأقوى، من أصوات دعاة الغرب والتفلسف، ظاهرة في جهود هؤلاء المؤمنين من علماء اللغة وعلماء الدين، الذين يعيدون تصورهم لأطواق

النجاة لهذه الأمة العربية بكل شعوبها، وهي تستمسك بدينها، ولسانها، ومنهج تفكيرها العلمي لتحقيق تقدمها، وذلك في أمرين:

الأول – تطبيق الشريعة الإسلامية بحيث تعود الوحدة القانونية حول الدين ولسانه، وأخلاقه وأهدافه، فتجمع بين أفراد المجتمع، وتؤلف بين قلوبهم..

والآخر – إحياء اللغة العربية الفصحى بالطريق الوحيد لاستعادتها وإحيائها، وهو العودة إلى تحفيظ القرآن الكريم من أول تباشير الوعي والنطق عند الأطفال، وحتى آخر مراحل التعليم في الجامعات والأزهر..

بذلك تتحصن هذه الصحوة المعاصرة في حياة الشعوب العربية من هذه المخاطر المحدقة بها لإخمادها، وتنكيس وجهاتها، وأخطر هذه المخاطر يتمثل في إضاعة الوقت بديلًا من هذا السير الحثيث، والمخطط، والإجماعي، باتجاه تحقيق وتأكيد الذات العربية المؤمنة، واستعادة مقوماتها، وتجديد حركتها النشطة نحو أهدافها. ذلك أن إضاعة هذا الوقت الثمين هي التي تزيد من اتساع هذه الثقوب التي تتصاعد منها أدخنة دعاة التفلسف مع أوربا، والسجود لشمسها التي "تشرق" علينا هذه المرة من «الغرب».. حتى وإن كانت هذه الشمس الآفلة منذ وجودها الأول قد تساقطت تمامًا، وأصبحت عتامًا وظلمة، ونذيرًا بحطام وفاجعة..

إن تسارع الانهيار إلى الصرح الواهي للحضارة الأوربية المعاصرة لا يحتاج إلى دليل، حتى وإن صفق لانهيارها طربًا دعاة العرب إلى الانهيار معها، والتفلسف القاتل بمذاهبها، وتحت أنقاضها، جهلًا أو سفهًا، ونكاية بالعرب أو حمقًا..

إن انهيار المجتمع الإلحادي الشيوعي لا يحتاج إلى استقصاء، وفرار المواطنين من روسيا السوفييتية عبر القنوات الضيقة، أو موتهم كمدًا هو قصة كل يوم، ذلك لأن توفير الحرية لمن حرمتهم الشيوعية منها أهم كثيرًا من توفير لقمة الخبز، وقطعة الكساء، كما يمتن الشيوعيون على مواطنيهم..

كذلك فإن انهيار المجتمع العلماني الغربي ظاهر لكل من ينظر ويتأمل، ذلك لأن الغرب الذي كفل جميع الحريات لم يبال أن يكفل حرية الموت جوعًا لبعض المسحوقين الملونين، وحرية الموت ترفًا وعهرًا لبعض الأغنياء الممسوسين، في مثل «مستعمرات العراة» التي أعادوا بها بعد الحرب العالمية الثانية مشاعية الجنس كما سجلها أفلاطون في «جمهوريته» الفلسفية الخرافية.. وكذلك حرية التجارة في النساء.. وحرية قوافل الهاربين «الهيبيز» من الحياة.. وحرية التجارة بإدعاء تحضير الأرواح.. وحرية التجارة بإدعاء «تعليم العقل»، وتوفير الحظ، وضمان المستقبل.. ثم حرية نشأة المذاهب الدينية المتطرفة، وتأليف أناجيل جديدة، وتناول عقارات الهلوسة... وقبول نصائح مريحة جدًا، ومشجعة، للتخلص من الحياة.. أي من هذه الحياة الغربية.. بالانتحار...

في جريدة أخبار اليوم، وتحت أنظار دعاة العرب إلى التفلسف مع أوربا، حتى في لحظات انهيارها وانتحارها، مقال في عدد 9 فبراير سنة 1980 بعنوان «المدنية الغربية إلى أين»؟ وفيه في مقدمته ما يأتي:

«في عالم اختلت فيه توازنات النفس البشرية.. وأصبحت الدنيا تعاني من أزمة إيمان.. تكون الفرصة سانحة أمام الجمعيات الغريبة.. أحدث هذه الجمعيات هي جمعية «تخلص من حياتك بإرادتك وبطريقة سهلة» والغريب أن هذه الجمعية تلقى رواجًا ضخمًا في بريطانيا..»!!

معنى هذا بإيجاز أنه إذا كان المواطنون الروس يفرون من انهيار مجتمعهم بغير حرية، وبغير إيمان، فإن المواطنين في المجتمعات الغربية أصبحوا في مجتمعهم الحر بغير عدل، وبغير إيمان أيضًا، يقبلون على هذا الفرار نفسه، ولكن بطريقة أسرع، وأشقى.. هي الانتحار!!

أليست دعوة هؤلاء الفلاسفة من تلامذة العرب إلى الغرب ليتفلسفوا، هي إذن أقرب إلى دعوتهم لمثل هذا الانتحار، سواء بالإقبال على ما ينتحر بسببه الأوربيون، من خلل مذاهبهم، وانهيار حضارتهم، أو بأن يهجر العرب ما فيه إلى اليوم حياتهم، بالدين والإيمان، وبالعلم والبيان..؟!

ثم إذا كان هؤلاء الفلاسفة أو المتفلسفون من تلامذة أوربا شرقًا وغربًا لا يزالون على اغترارهم بأحلام يقظتهم، وأوهام ثقافاتهم، يكتبون ولا يقرءون، وينظرون ولا يبصرون، ويسمعون ولا يفهمون، ويخطئون ولا يتوبون، فهل يطول بنا الوقت فوق أرجاء هذا الوطن العربي الفسيح، الذي طالما أشرقت شمسه من الشرق، ومن أفق العلم والحق، وعلى هذا العالم باتساع مكانه، وامتداد زمانه – لكي نرجع بالدين الحق، والعلم الحق، إلى الله الحق، ثم قد تكون هذه الإنابة في سنن الله، ودورات التاريخ، هي أمل النجاة الباقي لهؤلاء الذين أهلكتهم الفلسفة، وأنهكتهم المظالم، وأعماهم الإلحاد، على أرض أوربا المنهارة، في الشرق والغرب..؟!

نعم.. وبمشيئة الله.. سينيب العرب في صحوتهم هذه إلى الله، وقد خلت من قبلهم، وبرزت من حولهم، كل النذر، وظهرت على طريقهم وبين أيديهم كل البشائر..

نعم.. وكما اجتهدت أن أوضح الطريق إلى هذا الرجاء في هذا الكتاب.. فإن هذه الأمة العربية بكل شعوبها ستنيب في صحوتها وفي إيمانها إلى الله الحق، مستعيدة إليه حقيقة ذاتها، ومعالم هويتها، وهي توقظ بصدق جهادها، ووحدة طريقها، من قدرات عقلها العربي، ومن ملكات لسانها المبين، مصدرًا لمنهجها من التفكير السليم، كما يهدي إليه الدين الحق والقرآن الكريم.

نعم.. وبمشيئة الله.. هذا هو الطريق ولا طريق سواه.. نسير فيه على بركة الله.. غير يائسين من رحمته، ولا ناكصين عن سبيله، ولا داعين لغيره.. مستقبلين وجهه ونوره في كتابه المنير.. الناطق بيننا بالشرع المتبع.. والحق المسموع.. غير الصامت بمحكماته على منابرنا.. ولا المهجور بآياته البينات في حياتنا..

وعلى الله وحده قصد السبيل.. وسبحان الله وتعالى عما يشركون..

والحمد لله رب العالمين؟ أحمد موسى سالم

القاهرة في : 9من ربيع الآخر عام 1400 25 من فبراير عام 1980

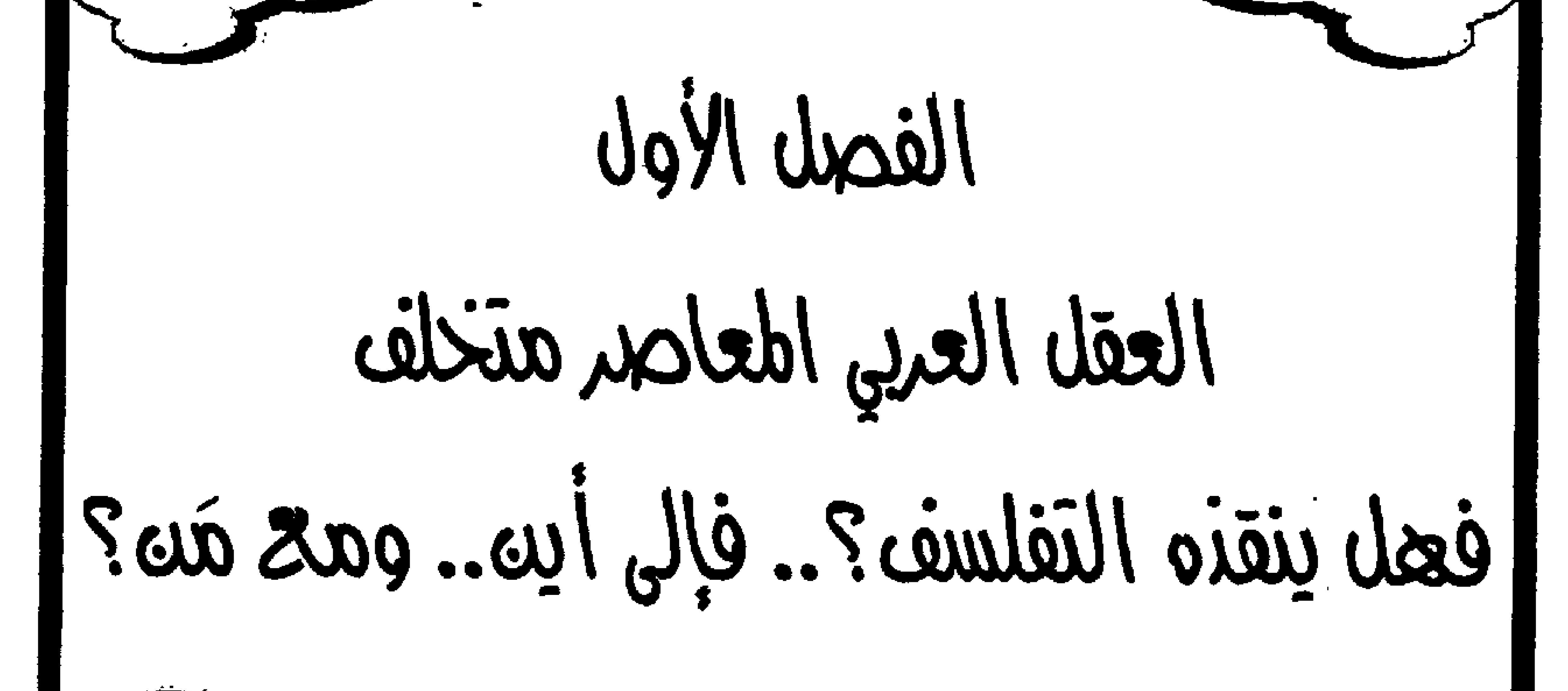




القسم الأول

أين الحقيقة...

في الحملة على العقل العربي



الفصل الأول

العقل العربي المعاصر متخلف

فهل ينقذه التفلسف؟.. فإلى أين.. ومع مَن؟

العقل العربي المعاصر متخلف

فهل ينقذه التفلسف؟.. فإلى أين.. ومع مَن؟

كان طبيعيًا أن ترتفع الأصوات عالية – في السنوات الأخيرة – بين الدعاة المذهبيين من المثقفين، من كل اتجاه، ومن حصاد بلبلة عصر الاستعمار، في محاولة محمومة لتغليب منهج من مناهج التفكير الفلسفي الأوربي المذهبي، المتصارعة من حولنا، والنشطة بغزواتها الفكرية فيما بيننا، وذلك – بزعمهم – طلبًا لوحدة الرأي، ووحدة النظرية الفكرية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، التي تتحقق بها وحدة شعوب الأمة العربية في العالم المعاصر، وبخاصة بعد أن ظهرت وطأة التحديات العلمية، والحضارية، والعسكرية، بين القوى العالمية المتنازعة على السيطرة بمذاهبها وأهدافها على مصير ومستقبل العرب، الذين لا يزالون في متاهة التخلف والاغتراب، وبرغم استقلال شعوبهم، متفرقين.. ومتنازعين.

وهكذا أصبح «العقل العربي» الذي هو الأمل المدخر، والجهاز الفعال للخروج بالعرب سالمين ومتحدين من هذه البلبلة الفكرية، إلى طريق محدد، ومنهج واضح – هدفًا عامًا لكل هذه الاتهامات التي انصبت عليه بأوصاف «التدهور» و«الشلل» و«السلبية» من أعلى هؤلاء الفلاسفة المذهبيين صوتًا، والذين اتفقوا برغم تضارب وتناقض فلسفاتهم على أن يحاولوا زحزحة «العقل العربي» باسم المعاصرة – عن ماضيه، وعن تاريخه، وعن منهج أصالته، فيما لا يزال يستمسك به من الدين، وإن تفرق عبر شتاته الطويل حول تدبر الدين الحق، في مصادره الصحيحة الباقية في حوزته إلى اليوم، بقاء الشمس والهواء والحياة، لكي يصحح ويجدد

التزاماته به، وبمبادئه الحية، القابلة للتجدد على أصولها، وهي تسابق العصر، نحو آمال العصر، وفوق تحدياته..

إنه في هذه الغمرة من تخلف العرب، ومن غياب وحدة المؤمنين بمقومات «العقل العربي» الذي أضاء سماء العالم بعد الإسلام قرونًا طويلة، والذي كشف البرهان العلمي والحسي على الله الحق قبل الإسلام وبعده، والذي عقل وتدبر بيان القرآن الكريم وآمن بمحكماته وشرائعه، ونقل بحضارته العربية الإسلامية منهج القرآن العلمي، ودعوته للسلام والصفح، وحضارته العمرانية الإنسانية، إلى أقصى الأرض شرقًا وغربًا.. إنه في غياب وحدة هؤلاء المؤمنين، وفي غمرة تخلفهم وتفرقهم وضعف أصواتهم — كانت حملة هؤلاء المتفلسفين على «العقل العربي» ضارية، ليس من أجل التذكير باسترجاع ذاته وأصالته، واستعادة منهجه ونشاطه، بل من أجل استحثاثه ليتنكر لطبيعته، وليتناقض مع حقيقته، مستسلمًا لمن يريدون بمحض السخرية منه أن يضعوا اسمه على عقل أوربي يناقضه، وأن يروجوا لأفكارهم المعادية له على لسانه..!

وربما كان أكثر هؤلاء الفلاسفة مثابرة على هذا الاتجاه هو الدكتور زكي نجيب محمود، المتعاطف مع الفلسفة الوضعية التي ظهرت بها جماعة فيينا في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، والمتعاطف أيضًا مع جماعة «إخوان الصفا» التي حمل فلاسفتها في مرحلة من مراحل الصراع الفارسي ضد الحكم العربي نفس شعار الزراية بالعقل العربي، وساروا طويلًا في مجال البلبلة يحملون دعوتهم السرية والعلنية، التي يرون بها أن إضعاف العرب لصالح الشعوب الأخرى يقتضي العمل على «مزج الشريعة الإسلامية بالفلسفة اليونانية» من طريق فلسفات مختلطة غامضة

نحو هذا الاتجاه كالتي ظهرت في كتب الفارابي وابن سينا من دعامات هذه الجماعة.

بمثل هذه التأثرات الفلسفية قام الدكتور زكي نجيب محمود بتفجير واحدة من قنابله الدخانية في وجه «العقل العربي» بمفهومه التاريخي العام، وذلك في مقال مثير نشرته مجلة روز اليوسف القاهرية بتاريخ 11 إبريل سنة 1977 تحت عنوان «العقل العربي يتدهور»!!

المنهج العلمي:

كان هذا المقال الحانق الثائر مقدمة لواحدة من حملات الدكتور زكي نجيب محمود على «الأصالة» وعلى «أفكار السلف» في مجالات صحفية أخرى، وذلك بهدف خلق الظروف المناسبة لزرع واستنبات أفكاره ذات الجذور والخصائص الفلسفية الأوربية في التربة التي لا تتقبل الاستجابة لها، وهي الأفكار التي يقدمها لغير من يحتاجون إليها بمبررات رجراجية، وصورية، لا تصمد للنقاش العلمي، ولا تملك من دوافع حملته الضارية على مقومات الشعب الذي ينتمي إليه إلا هذا الدافع المخجل وهو عجزه – عقليًا – عن استيعاب وتقبل وفهم هذه المقومات الأصيلة!

تحت عنوان كبير بهذا المقال الحانق الساخر يمارس الدكتور الفيلسوف الوضعي الصوري اتهامه للعرب المعاصرين بالرجعية السلفية التي تصرفهم عما حولهم من حركة التقدم العلمي الصناعي، فهو يقول بلسانهم: «إننا نطالب بالعودة إلى السلف في الراديو الذي لم يصنعه السلف»!.. ومعنى هذا أنه في سخريته التي يفقد فيها صوابه يعلن عن تعجبه من تطاول هؤلاء العرب السلفيين الذين يقفون وراء المذياع – وهو اختراع أوربي – لكي يطالبوا بالعودة إلى شرائع المؤمنين من السلف، وإلى منهج

حياتهم، في حين كان الأجدر بهم أن يتخلوا عن هذا «الطيش» ويبادروا إلى إلقاء كل مقاليدهم لهذه الدول الأوربية المتقدمة التي اخترعت الراديو، وما هو أعجب منه، من أدوات العلم الحديثة، وبذلك يمكن أن يتطوروا في الاتجاه الصحيح وفق ظروفهم الخاصة..!!

وبهذا المثال من أنواع سخرية الفيلسوف الوضعي الدكتور زكي نجيب محمود من العقل العربي، القديم والمعاصر، يقدم لقرائه صورة لمدى احترامه للعقل العام، وللحقائق التاريخية الساطعة، وهو ينسى أو يتغافل عن أن أئمته وسادة فكره من الأوربيين لم يعرفوا «المنهج العلمي» التجريبي إلا بعد أن تحرروا على أيدي العرب المسلمين، وفي مجال العلوم الطبيعية، من التأثير الفلسفي التجريدي والصوري والخرافي لأرسطو بصفة خاصة، ولغيره من فلاسفة اليونان بصفة عامة، وذلك في عصر نهضتهم المتأخرة، التي يدينون بها، وبما تم لهم بعدها من الثورة العلمية والصناعية والتكنولوجية حتى اليوم، لهؤلاء العرب المؤمنين، الذين وجهوا عقولهم الأوربية الفلسفية باتجاه العلم، وإن لم يستطيعوا – بسبب الطابع الفلسفي العدواني والعنصري للرجل الأوربي الأبيض – أن يقودوهم إلى الإيمان!

بين الحرية والحجر:

ويعرض الدكتور زكي نجيب محمود في هذا المقال لواحدة من أمنياته العدوانية على العقل العربي فيقول: «نحن متحررون بدرجة كبيرة في ناحية التفكير النظري الفكري والفلسفي داخل الجامعات المصرية، ففي قسم الفلسفة بجامعة القاهرة تعرض كل الاتجاهات الفكرية والفلسفية السائدة في العالم الأوربي شرقًا وغربًا، وهذا لا يحدث في الولايات المتحدة، لكن في اللحظة التي ينزل فيها المفكر العربي إلى تيار الفكر الجاري في الحياة العلمية ليشارك في المشاكل المعروضة في

الصحف والمجلات يحس أنه ليس حرًا أن يقول ما يريد أن يقوله!!.. وربما أحس بهذه المسئولية من داخل نفسه قبل أن تفرضها عليه هيئة رسمية»!

ومعنى هذا أن الدكتور زكي نجيب محمود يريد أن ينقل حرية النظر والإطلاع على الفلسفات العالمية المختلفة داخل الجامعات إلى نوع من شمول الانشغال بها بين جميع فئات الأمة العربية. والواقع أن حرية الإطلاع والنظر في هذه الفلسفات الأوربية المتناقضة مكفولة في مصر وفي أكثر البلاد العربية في جميع وسائل الإعلام، وفي المكتبات التي تبيع جميع أنواع الكتب الفلسفية بجميع اللغات.. والدكتور الفيلسوف الوضعي نفسه يكتب ما يشاء من آرائه الفلسفية العجيبة والملتوية في أمهات الصحف اليومية والأسبوعية.. فماذا يتبقى ليشعر بعد ذلك أنه حر مثل غيره في أن يقول ما يقوله؟!

الغالب أن هناك ما هو أدهى مما يقوله يريد أن يقوله.. فما يكون هذا «الأدهى» إلا أن يطالب هو بالحجر على أفكار السلف.. الذين لم يخترعوا الراديو والتليفزيون، ولا أقمار التجسس والقنابل الذرية، ولا مستحدثات حرب الجراثيم وصدمات الإشعاع.. ولكنهم بكل التطاول في نظره – أي هؤلاء العرب – يواصلون في مجال حرية الأفكار عرض دعوتهم، وتنمية حججهم، باتجاه وحدة شعوبهم، وألفة قلوبهم، على هذا الدين القيم، الذي لا يزال الإيمان بصحته يقوم في مصادره من القرآن والحديث، ومن ملكوت السموات والأرض والفطرة – على البرهان العلمي والحسي، الذي لا تناقض به في مجال التجدد بين الأصالة والمعاصرة!

لماذا لا نتفلسف:

ويمضي الدكتور زكي نجيب محمود في مقاله الحانق فينبه إلى أن علة تخلف العرب ترجع إلى أنهم لم يتوصلوا بعد إلى «فلسفة» خاصة بهم.. وهو في ذلك يقول:

«أريد أن أوضح أننا لم نبلغ بعد الدرجة التي تتضح لنا فيها فلسفة خاصة حتى نشعر أو لا نشعر بالتحرر فيها، وكل الاتجاهات الفلسفية التي نعرضها منقولة عن الغرب الأوربي، ولكن في كثير من الحالات نضع أنفسنا في قلب المادة التي نعرضها فتأخذ لون شخصية الأستاذ. فليس لنا مدارس فلسفية، إنما كل الاتجاهات كما قلت بصفة عامة منقولة. ولا توجد اجتهادات عربية في هذا المجال مطلقًا. لأن الفلسفة في كل العصور والظروف تأتي بعد أن تكون هناك أصالة فكرية! فتقوم الفلسفة بعد ذلك بوضع المبادئ لهذا الفكر الإسلامي الأصيل كجماعة المتكلمين، وجماعة الفلاسفة، ونحن إلى الآن لم يتكون لنا فكر عربي أصيل فيما يختص بمشكلات العصر»!!

وهكذا وراء قناع شفيف يكشف الدكتور زكي نجيب محمود أستاذ الفلسفة الوضعية التي لا تؤمن بما ليس له في استعمالات اللغة أي وجود محس في الواقع مثل كلمات: الله.. الوحي.. الملائكة.. النبوة.. الآخرة.. الجنة.. الخ — أقول أنه يكشف عن دعوته إلى تجنيد هذا النوع من المفكرين المتفلسفين الذين يعيدون على أرض العرب والمسلمين، بلغة وظروف العصر، تلك المرحلة من التخلف والشتات المهين عندما «تفلسف» باسم الإسلام متعالمون ومتكلمون من شراذم فارسية شعوبية، ناقمة على العرب، وغير قادرة على تدبر القرآن، والالتزام بالدين، من المتكلمين

المتخبطين، ومن المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن، فكان ذلك أول ظواهر التشتت والتفرق في حياة المسلمين، وأول التشعب في فهم أساسيات الحضارة العربية الإسلامية. ووعي مفهوم "الدين الحق" بعيدًا عنه، أو قريبًا منه.. مع استمرار عوامل التفرق والشتات!

الرؤية الصادقة:

لقد استغل الدكتور زكي نجيب محمود أحد رواد هذه الحملة الفلسفية الملتوية على «العقل العربي» قيام هذه الظواهر التي تؤكد تخلف العرب تحت مؤثرات كثيرة ومتلاحقة – عن المنهج السليم في التفكير بعقلهم العربي المبين لسانًا، والمؤمن اعتقادًا، وبعد أن اغتربوا بالبعد عن مقوماته باللغة والتاريخ والحركة.. عن أسباب قوتهم، ووحدتهم، وألفتهم، بهذا العلم الذي يهدي إلى الإيمان، وبالأصالة التي لا تتخلف عن العصر..

لقد استغل هو وغيره من الفلاسفة الشرقيين والغربيين – وتحت مبرر مناخ الشتات وأزماته – هذه الظواهر الدالة على افتقاد النشاط الحقيقي والزاخر للعقل العربي، بافتقاد لغة عربية مبينة، وثقافة عربية رائدة، ورؤية عربية جامعة، فقال هو ورفاقه بأقوالهم الفلسفية الرجعية الملتوية من أجل علاج ما زعموه من تدهور العقل العربي، وشلل العقل العربي، وسلبية العقل العربي وأزمة العقل العربي..!!

هذا بينما الطريق يبدأ من سلامة الرؤية الفكرية لهذا الواقع المتحرك حولنا، في الطبيعة المرئية والمسموعة، وفي أحداث العالم المحيط بنا، وفي واقعنا الديني الإسلامي نحن العرب داخل هذا الواقع الكبير المتحرك والمتغير وفق قوانين كنا على هذه الأرض أول من كشف عنها، وعمل في ضوء الفهم الإنساني لها، كما كنا أول من قدم أعظم العطاء

بهذا الفهم والعمل لجميع من يقفون اليوم في صفوف أعداء أصالتنا ووحدتنا وتقدمنا!!

نعم.. إن طريق العرب للتقدم يبدأ من هذه الرؤية الشاملة التي يتحرر بها العقل العربي بكل أصالته من كل عوائقه، حيث يرى الماضي جليًا في صورة الحاضر أو الواقع، وحيث تكون بداية الطريق فعلًا هي مواجهة وملاشاة هذه الظواهر نفسها على أزمة التخلف بين العرب.. أزمة التدهور في لغتهم المعبرة عنهم، وعن وحدة الرؤية والكلمات والمعاني والغايات في حياتهم المؤمنة.. كما سنوضح ذلك في الفصول القادمة.. إن شاء الله، مستهدفين هدف هذه الحجة البالغة على أن أفضل ما هو للعرب، بدليل لغة العرب، ودين العرب، وتاريخ العرب هو ما اختاره الله للعرب، وأملًا في أن نبلغ من فضول الدكتور زكي نجيب محمود ورفاقه بهذه الدعوة الملحة والغريبة على العرب بأن «يتفلسفوا» إلى أحد رأيين.. فإما أن يرجع الدكتور زكي إلى أصالته فيدع دعوة التفلسف إلى دعوة الإيمان، وإما أن يمضي حرًا بفلسفته ويكف عما يدعو العرب إليه بغير حجة أو برهان!



القسم الثاني

مؤشرات الحقيقة... حول تخلف العقل العربي



الفصل الأول

لماذا مع صحوة العرب
تتخلف اللغة والثقافة والأدب

عاش العرب تاريخهم الطويل، ومنذ فجر الحياة وأولى الحضارات، تتعاقب عليهم الصحوات والغفوات. فهم كلما ناموا انتبهوا.. وكلما غفلوا تذكروا.. وكلما تذكروا كان لتذكرهم صحوة بيانية تؤلف بينهم، ونهضة تعبيرية تحكي شباب لغتهم، وتجدد أصالة أمتهم، وهم يصلون بهذا البيان بين القديم والجديد، ويعرضون الماضي في صورة الحاضر، رافعين بين أيديهم، وبأنغام لغتهم، هذه الأهداف الحضارية الإنسانية التي يستبقون إليها فوق كل عقبات المستقبل..

هكذا عرفت الأمة العربية مرحلة هذا الشروق التعبيري، والصحو البياني، قبيل أعظم وأكرم عهودها التاريخية بظهور وانتصار الدعوة إلى الإسلام. لقد عرفت ذلك في بدائع أشعارها وخطابتها، وروائع أمثالها وحكمتها، مما كان بدلالته البيانية بشائر وأشواق التغير قبيل فجر الشروق للدين الحق، كما كان برهانًا وجدانيًا وعقليًا على استواء وكمال اللغة العربية المبينة، التي نزل بها وحي القرآن الكريم، وأضاءت بها كلمات وأسوة الرسول، وأشرقت بها شمس الإسلام وغاياته على الأرض بغير أفول..

لقد كان هذا الشروق التعبيري بالشعر والأدب – في ألسنة العرب قبيل الإسلام – عذبًا وأخلاقيًا ومبينًا، بقدر ما عبر به الشعراء والخطباء عن الشباب الدائم لهذه الأمة العربية في لسانها الحي، وعن أصالة فضائلها الدينية في كيانها التاريخي، هذه الفضائل التي كانت تجتمع وتحتشد بها لتتذاكرها في مواسم الحج حول «بيت الله»، بقدر ما كانت تعبر في حكمتها وأشعارها – باللفظ والمعنى والإيقاع – عن تفكرها الدائب في خلق السموات والأرض، وعن وعيها بهذا التفكر لهذا الاتساق الباهر والدائم في الواقع المشرق، والمتحرك، من حولها، بغير تفاوت أو فطور، مما

كانت تجد فيه برهانها الحي، والعلمي، واليقيني، على الله الواحد الأحد، وعلى الخالق المدبر الحكيم..

بهذا الشروق التعبيري، والاستواء البياني قبيل الإسلام، حول حقيقة الاتساق في الخلق، والبرهان اليقيني على الله، والتسابق الفطري على مكارم الأخلاق – تهيأ لقريش، ولجميع العرب حول مكة، أن يؤمنوا بعد محال قليلة بدعوة النبي الأمين، وبما نزل إليه من القرآن العربي المبين، وأن يدخلوا بذلك – إيمانًا وعملًا وجهادًا – في دين الله أفواجًا، ليكونوا كما امتحنهم الله واجتباهم: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.. حاملين بهدى القرآن وأسوة الرسول، وبلاغ العربية الفصحى، أمانة الدعوة إلى الله في أنفسهم، وبين أجيالهم، وإلى الأمم والشعوب المحيطة بهم، عبر كل مكان وزمان..

المنطلق لكل صحوة:

ومن ثم فقد كانت هذه الصحوة العظمى بشروق شمس الإسلام في تاريخ العرب والبشر هي المنطلق، والأسوة، لكل صحوة جديدة في مراحل حياة هذه الأمة العربية، وهي تجتاز بمصادرها، وأسوتها، وتطبيقاتها، كل الشدائد والغفوات والعقبات.. ناهضة إلى أهداف أصالتها ورسالتها وعقيدتها مع تنفس كل صبح، وفي مشرق كل أمل، وفي مواجهة كل ابتلاء، لتجاهد عن أرضها ودينها، وعن قرآنها وشريعتها، وعن أسوة رسولها وأخلاقها، وعن لغتها وتاريخها، واثقة من النصر في سبيل الله، مهما كلفها النصر من الجهد والجهاد والصبر..

واليوم.. لا يشك أحد في أن العرب – على الرغم من تفرق صفوفهم واختلاف كلمتهم – يخوضون من أجل تحقيق الذات، وجمع الكلمة، عباب متغيرات عالمية، ملتهبة الأجواء، متسارعة الأحداث، متناقضة الأطماع والخطط. وكانت بداية الضربة المزلزلة لكيانهم، والقاضية

بإفاقتهم، هي هذه الضربة الاستعمارية المباغتة – التي اتفق عليها أكثر الأوربيين غربًا وشرقًا – عندما فرضوا على الأمة العربية آثار ومخاطر وصراعات هذا الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لنقطة مركزية مقدسة داخل بلادهم هي فلسطين، وبعلامة مميزة لتهديد عقيدة العرب والمسلمين جميعًا بتهويد القدس، وبتهديد بيت الله وحرمة الآمن في مكة..

لقد أفاق العرب وهم يجرجرون أغلال تخلفهم وتفرقهم على صدمة هذا التواطؤ والإذلال، ولم يعد أكثرهم نائمين – كما كانوا قبل – على أنفسهم وحسراتهم، بل تيقظوا حتى جذور شعر رؤوسهم، وفتحوا أعينهم حتى آخرها على ما يجري حولهم من مخاطر الإبادة التي تستهدفهم، في حين أفرزت شعوبهم – ولا تزال تقدم – أكثر من قيادة فعالة، وحققت في الاتجاه الصحيح أكثر من ثورة ودعوة، وقطعت بهذه الثورات والدعوات الهادفة أكثر من خطوة..

ولكن هذه الظاهرة:

ولكن.. مع هذه الصحوة المصيرية النامية في حياة وكفاح العرب المعاصرين.. الصحوة التي لا تزال شمسها المتقدة تتصاعد إلى كبد السماء، تبدو هذه الظاهرة الغريبة والشاذة عن كل صحوات العرب، وهي ظاهرة صمت الأدب العربي بكل ألسنته عن التبشير بهذه الصحوة، وعن الإشراق الوجداني والعقلي بكل حوافزها وركائزها وأهدافها..

نعم.. في هذه الصحوة الكبيرة والشاملة للعرب يصمت الأدب على غير عادته، ويسقط فارس الشعر منهوكًا عن جواده، في حين ترهف الأجيال الجديدة أسماعها – جيلًا بعد جيل – وتبسط أشواقها، في انتظار الموجات الدافئة بالحياة والذات لهذا الأدب العربي العصري الحي، والمبين، ولو على مستوى ما ظهر منه في ألسنة الأدباء والشعراء تعزيزًا لثورة عرابي

على الخديو الأجنبي وعلى بقية الأجانب والإنجليز.. ولكن هذا الأدب المنشود في صحوة الأصالة العربية لا يزال بفعل الكثير من السحرة والمضللين لائذًا بالصمت، أو منطويًا في غفوة الضحى، أو متسربًا في شقوق الغربة، أو منكس الرأس خجلًا أمام «الشعر الحديث!».. شعر هلوسات الممسوسين، ورطانات المغتربين..!

لقد خلا التعبير الحي المنتظر، في ذروة صحوة الأمة العربية، وفي غير القليل من كلمات بعض قادتها وعلمائها – من نضارة شباب اللغة، ومن عذوبة إيقاعها، ومن حقائق أصالتها، وكوامن قدراتها، حتى لقد بلغ الأمر بتلاحق التمزق في وحدة الكيان الحي لهذه اللغة المبينة، التي تتحصن من العجمة ومن الضياع بكتاب الله الحافظ لها – أنها أخذت تتردى يومًا بعد آخر في هذه الهجنة التي دهمتها بالمعاني الإلحادية الدخيلة، واللهجات العامية الطفيلية، لتصبح لغة القرآن – كما أراد لها أعداؤها، وكما نكص عنها حماتها مسخًا صوتيًا يتآكل ويحتضر في أكثر الأفواه والأقلام، وكأنها بكل ما أكرهت عليه من أوزار الهجنة، وسقطات العجمة، ومقاتل الأصالة «جارية العصر» التي دفعت بها فاقة أهلها، وافتقاد المرشد والعاصم والغيور، لكي يبتذل المتاجرون بالعامية الفصحى، أو بالفصحى العامية، محاسن أصواتها، وكنوز أصالتها، وهم يهدرون حصانتها، ويهددون مستقبلها، وشرف رسالتها، على مسرح الضائعين، وقصص المغتربين، وأشعار المرضى المنفصمين والذاهلين..!!

فكيف.. بدموع وشكايات وضياعات هذه اللغة المستباحة في السوق العدوانية المنصوبة لاسترقاقها وإذلالها.. كيف يتيسر للعرب أن يعززوا صحوتهم.. وبأي لغة غير هذه اللغة المبينة يمكنهم أن يوقظوا التنبه في أجيالهم إلى ركائز هذه الصحوة باتجاه حقائق الأصالة في الإيمان والعلم،

اليوم في أكثر بلادهم تقدم الدليل على ذلك بتآكل حروفها المميزة لها مثل: الضاد التي أصبحت دالًا، والصاد التي أصبحت سينًا، والقاف التي أصبحت كافًا، والظاء التي أصبحت زايًا.. وبقى أن ينطمس أيضًا أو أن ينغلق حرف الـ«ع» أو «العين» حتى تصبح هذه الأجيال الجديدة التي فرضت عليها مخططات «التفرنج اللغوي» عاجزة عن «رؤية» الطريق الصحيح للخروج من أزمتها.!

إن هذا في الواقع الملموس هو ما تعمل له، وما تنتظر أسوأ نتائجه على اللغة العربية، جميع القوى المعادية للعرب، ولكن..

إن جميع المؤشرات الصحيحة في حركة العالم المعاصر، وداخل الوطن العربي المتمسك بصحوته وعروبته، والمصحح لأخطائه وهفواته، تؤكد أن موت اللغة العربية التي لم تمت منذ فجر حياة البشر، والتي نزل بها الكتاب الحافظ للدين الحق، وللسان العربي المبين، لا يمكن أن تموت.. بل إن الحياة.. والحياة النقية المشرقة، والهادفة، هي ما ينتظر هذه اللغة، التي يتحد على بيانها ولسانها وفرقانها «كل العرب».. كما اتحدوا وانتصروا وتقدموا من قبل.. مع انفراج كل شدة.. وفي فجر كل صحوة.. بمشيئة الله.

الفصل الثاني

محاولات الغزو العقلي للعرب

باسم التقدم في العصر الحديث

من خلال تعقب الجذور لهذه «الظاهرة» التي يصمت بها الأدب العربي لأول مرة مع صحوة صادقة للعرب، وحيث يتوقف بذلك تيار الفكر الموحد وتضيع معالم الثقافة العربية القومية، لا يصعب أن نكتشف وراءها هذه المخططات، والمحاولات، لغزو العقل العربي في العصر الحديث، داخل طوفان هذا الصراع المذهبي الشرقي والغربي والصهيوني، وذلك باتجاه تقويض ركائز هذا العقل المتميز عبر التاريخ، وهدم مقومات نشاطه، واستنزاف قواه، ومحو معالمه، في حين أن هذه الجوقة من الغزاة والمقلدين لهم تحمل على رؤوس كلماتها قبعات أفكارهم، وهي تصرخ وتنادي على بضاعتها الفكرية المستوردة، والمتناقضة فيما بينها، والمتناقضة بوضوح مع هوية وأصالة الإنسان العربي – بهذه الكلمة المظلومة دائمًا في أفواههم.. وهي «التقدم»!

العرب والتقدمية:

وقبل أن نمضي بعيدًا عن فحص هذه الظاهرة الشاذة من صمت الأدب العربي مع شدة حاجة العرب في صحوتهم إليه، ننبه القارئ إلى أن كلمة «التقدم» المستخدمة عربيًا في هذا العصر على أنها ترجمة للكلمة المقابلة لها في اللغات الأجنبية Progress إنما هي بلفظها تعبير عربي أصيل، وقديم، يحمل في معنى التقدم للفرد والمجتمع ما هو أصدق وأقوم من حقائق السبق والصدق في تنشئة الفرد وبناء المجتمع على الحرية والحق والسواسية والعدل والسلام مما تحاول المجتمعات الأوربية المتقدمة في هذا العصر – أو في أي عصر مضى – أن تصل إليه..

ونكتفي بالإشارة إلى ظهور هذه الكلمة بمعناها العربي الأصدق والأقوم في مناسبتين اثنتين من مراحل الدعوة الإسلامية على أرض شروق وانتصار الإسلام، وبين الناطقين المبينين بلغة كتابه.

لقد ظهرت هذه الكلمة «التقدمية» في المناسبة الأولى في شعر أمية ابن أبي الصلت وهو يرثي قتلى بدر من أعلام وشيوخ وفرسان قريش، الذين قاتلوا عن شركهم بالله، وعن حياتهم الاستمتاعية الرخية في ظلال هذا الشرك، على طريق «التقدم» للقتال عما يعتقدونه بسيوفهم حتى الموت، فهو يقول في رثائه لهم:

القائلين الفاعلين الآمرين بكل صالح

الضاربين «التقدمية» بالمهندة الصفائح

فهذا القتال المستبسل «تقدميًا» بالسيوف كان يعني بمفهوم الشاعر، وعند العرب في عصر البعثة، أنه الصورة الحسية للتقدم بالقتال فوق كل عائق إلى أوائل الصفوف في ساحة الحرب، حتى يبقى طريق «التقدم» بالحرية في حياتهم مفتوحًا دائمًا أمامهم، وممتدًا..

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواجهته عناد قريش قبل أن تلين وتذعن للحق، يستخدم بعد ذلك كلمة «التقدم» وهو يقود «تقدمية» قريش ويصحح اتجاهها – بهذا المعنى التاريخي الصحيح للدلالة على التقدم مع سنن الله، من الغفوة إلى الصحوة، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن سورة الترف والمكاثرة بالأموال والأبناء إلى نعمة الإنفاق في الإسلام، وإلى ألفة المساواة في الحقوق والواجبات. وكان عليه الصلاة والسلام قد أمر يومذاك بحفر الخندق حول المدينة ليحول بين قريش وحلفائها من اقتحامها. وفي طليعة أصحابه كان صلى الله عليه وسلم يشاركهم أعمال الحفر، وهو يتمثل رائحًا وغاديًا بشعر الحصين بن الحمام المري من شعراء مرحلة الصحوة قبل الإسلام، مرددًا على أسماعهم من جيد هذا الشعر، وحكمته المأثورة، ما يشد به عزائمهم حول المعنى الصحيح والمأثور في حياة العرب الصحيحة كلها عن «التقدمية»..

و«التقدم».. وذلك حيث اختار عليه الصلاة والسلام أن يردد – كما جاء في كتب السيرة – هذه الأبيات التي تقول:

تأَخَّرتُ أَستبقي الحيَاة فلم أَجِدْ ... لِنفْسي حياة غيْرَ أن أتقدَّمَا

فليس على الأعقابِ تَدْمَى كلومُنَا ... ولكن على أَقدامِنَا تَقْطُر الدِّما

نُفَلِّق هامًا من رجالٍ أَعِزَّةٍ ... علينا وهم كانُوا أَعقَّ وأَظلَمَا

فهذا هو «التقدم» في معناه العربي الأصيل، والقويم، كما أرسى به الإسلام في كل أطوار إشراقه، ومراحل دعوته، صادرًا عن كتاب الله وتاريخ الدين الحق – حقائق ومعالم وغايات هذه «التقدمية» الإسلامية، التي نعى الحق، وتقاتل عن الحق، دفاعًا عن الحق، لكي «تتقدم» بالحق، وتتجاوز وتتخطى غير الحق..

الغزو العقلي:

ربما كان أقرب التواريخ إلى بداية التخطيط لهذا الغزو العقلي لمقومات البقاء العربي هو هذه الهزيمة المدوية التي لحقت بالعدوان الأوربي المتأجج ضد العرب والإسلام عقب الحروب الصليبية، التي لم تحقق أهدافها برغم تجدد حملاتها الوحشية خلال نحو قرنين من الزمان. ففي أعقاب هذه الهزيمة التاريخية توصل العدوان الأوربي بعد دراسة النتائج العكسية لهذه الحروب السافرة إلى أنه من الأفضل له أن يخطط في حربه للعرب ومقوماتهم لأنواع من الحروب والحملات غير العسكرية، وفي نفس الاتجاه الروماني القديم لسرقة مواردهم التي لا تنفد، والاستئثار بشمسهم التي لا تغيب.

وهكذا كان الرأي الذي تمت تجربته، ونشطت الجهود لتطوير مبتكراته هو أن يباشروا غزو العرب بحرب الأفكار والكلمات،

والشعارات الفارغة والمضللة، التي تتشر وراءها الكثير من المذاهب الدخيلة، والإلهاءات المدمرة، التي يفوق فتكها الظاهر والخفي ضربات الجيوش الجرارة، أو الأوبئة الفتاكة..

ولما كان من الضروري إنشاء مصادر أو صناعة متنقلة لهذه «الأكاذيب» و«الأوهام».. و«المخدرات» العقلية التي يراد نقلها إلى العرب، لإثارتهم نحو «السراب» و«الضياع» ولإلقاء الفرقة والخلاف بينهم داخل هذا السراب – فقد توصل دهاتهم إلى ابتداع صناعة «الاستشراق»، وإلى اختراع فنون ووسائل ومعاهد خاصة لتشكيل هذه الكتائب الهجومية والخداعية من «المستشرقين» الذين أشرفت هيئات دينية وعلمية وسياسية خاصة على تنشئتهم منذ الصغر، وعلى حضانة وتنمية «العدوانية» فيهم وهم يعلمونهم اللغة العربية، ويوجهونهم في نفس الوقت، وطول الوقت، إلى هدف القضاء على أهلها.. نفس الهدف الروماني والصليبي القديم ولكن من غير ضجة.. بل من خلال زرع الأفكار السرابية المميتة في كتب ينشرها المستشرقون عن: الإسلام.. أو النبي محمد.. أو اللغة العربية.. أو التاريخ العربي.. أو تاريخ الفرق والمذاهب الإلحادية الهدامة التي نشأت لتقويض الدولة العربية بتأثير فلسفات فارسية ويونانية وهندية، مثل القرامطة، والإسماعيلية، والفاطمية، والبابلية.. وغيرها..

وهكذا سار الأمر، فأصبح لكل مستشرق أتباع ومدرسة، وجاء الاستعمار فعزز من عمل المستشرقين، وفرض تدريس مذاهبهم في الجامعات من باب حرية الإطلاع على ما يجري في العالم، في حين صادر دراسة الدين واللغة في الجامعات نفسها بعد أن قوض ركائزها بإزالة ما كان سائدًا من تحفيظ القرآن الكريم، أو ما تيسر منه منذ الطفولة المبكرة.. كما أنه بجرأة لم نواجهها حتى اليوم عزل ما سماه بالتعليم

«المدني» عما سماه بالتعليم «الديني» في الأزهر ومعاهده، وبذلك شطر الذات العربية المؤمنة، والمجتمع العربي المؤمن، إلى شطرين لا يعيشان ولا ينموان بغير وحدتهما..!

الأيديولوجيات المستوردة:

لقد سار هذا الخطر على وحدتنا طويلًا متسترًا ولا يزال وراء هذا الاستعمار الفكري، الأملس والخفي، وابتداء من صليل وومضات سيوف النظريات الاستشراقية في كيدها السافر، وحقدها الدفين، وهو الاستعمار المتعدد الوجوه والضربات، والذي ما كان له أن ينظم حشوده، وأن يحشد مردته باتجاه أرض العرب إلا بعد أن تم للصهيونية العالمية أن تمارس هذا الاستعمار العقلي نفسه على أوربا كلها، شرقًا وغربًا، والتي عممت من خلاله جميع فلسفاتها الخداعية على كل شعوب أوربا في جميع المجالات العلمية، والدينية، والسياسية، والثقافية، والفنية، والإعلامية، محققة من خلال ذلك، وبإيقاع ديني عنصري سري منتظم بين جميع يهود أوربا، جمع وتكديس وتحريك الأموال الطائلة التي تستولي عليها لتنمية وتركيز هذه السلطة الصهيونية في قبضة واحدة خفية، من أجل السيادة المطلقة – كما يتوهمون ويحلمون – على كل العالم!

لقد كان استسلام الدول الأوربية في عصر تقدمها، وحتى اليوم، لهذه القوى الصهيونية العنصرية العالمية هو ساحة التجارب الأولى لنجاح الاستعمار العقلي، أو الغزو الفكري، فلقد تحولت أوربا كلها وهي تتنازل عن طابعها اليوناني واللاتيني والجرماني القديم، ومن خلال المذاهب الفلسفية المبتدعة، والمتضاربة بين ما هو بلغة العصر «مادي» جدًا، أو «روحي» جدًا، وبين ما هو علمي جدًا، أو خرافي جدًا، من أمثال هذه الفلسفات «السرابية» وغير الإنسانية التي قدمها كل من الفلاسفة

الصهاينة باروخ سبينوزا، وجوته، وهيجل، وكارل ماركس، وفرويد، وبرجسون، وصمويل بتلر..!

لقد تحولت أوربا وحتى الساحل الغربي للولايات المتحدة إلى كيان فكري مصطنع، ومتضارب، ومنفصم عن إرادته، تحت تأثير هذه الفلسفات الصهيونية التي نخرت عظامه، مع تزايد عجز هذه الشعوب الأوربية والأمريكية عن التكيف الذاتي مع تاريخها وجذورها، بطريقة تكشف لها عما هو أفضل للسيطرة على واقعها، والخروج من مأزق انهيار حضارتها. وبذلك أخذت أعراض هذا الانهيار الكبير تظهر على دعائم هذه الحضارة «الصهيو أوربية» المشدودة على وجهها في قبضة الصهيونية العالمية، والمتقدمة علميًا وصناعيًا في الظاهر، والمتخلفة سياسيًا واجتماعيًا في الواقع، في حين هي تتجه بتأثير القوى الصهيونية المسيطرة عليها إلى رفض ماضيها كله بمعنى محدد هو رفض الدين والمسيحية بالذات، وإنكار الله إنكارًا صريحًا أو خفيًا، ليكون البديل هو «الأيديولوجية» أو النظرية الوهمية القائمة على شكل من أشكال «تصنيع» الأفكار باتجاهات متنوعة في مجال الاقتصاد والسياسة، كما لو كانت هذه الأفكار خامات طيعة قابلة للتشكيل في أي اتجاه في يد الصانع المستغل والعابث، ولحساب تأجيج جذوة الصراعات العالمية حول هذه «الأيديولوجيات» الخطرة والهدامة، لصالح القوة الصهيونية العنصرية وحدها، التي تقود هذه الصراعات باتجاه تزايد سلطتها الابتزازية والتوسعية على كل شعوب العالم.

وهكذا دارت الصهيونية العالمية دورتها الخفية تحت أرض أوربا، ومن خلال ضبابها وسحبها، وهي تقتات منذ فيلسوفها سبينوزا من مخلفات ما استحوذت عليه من أفكار الحضارة العربية الإسلامية في

الأندلس، في حين هي تعيد تشكيلها وصياغتها بحيث تنتهي دائمًا إلى هذه «الأيديولوجيات» أي «الفكريات»، وهي من كلمة Idio يعني: فكر.. كما توصل إلى اختراعها ذلك الفيلسوف الفرنسي المغمور ديتوت دي تراسي «1754 – 1836» وهو الاختراع الذي استغلته الصهيونية لكي تجعل من «تصنيع» الأفكار، أو من صناعة «الأيديولوجيات»، مجالًا لترويج الفلسفات الظنية، أو الديانات البشرية الوضعية، بين ضحاياها في كل العالم، في حين ينشأ وراء هذه الفلسفات السرابية آلهة من البشر يخضعون بدورهم لقبضة هذه القوة الخفية للصهيونية العالمية التوسعية.

ولقد كان من الطبيعي أن يكون الوطن العربي – كما ذكرنا – هدفًا لهذه الحرب الأيديولوجية التي تقودها الصهيونية للسيطرة على العالم المتقدم والمتخلف على السواء. على أنه بالنسبة للعرب بالذات، والذين هم القوة الأقوى في العالم لو أنهم توحدوا مرة أخرى على لغتهم ودينهم ومقوماتهم، فإن الصهيونية العالمية التي تعلم ذلك كل العلم، وتخشى من وقوع هذا التوحيد في هذه الصحوة أشد الخشية – تنظر إلى هدف القضاء على وحدة الأمة العربية نظرة أكثر تحفزًا وتركيزًا، لأنها قد قررت طوال مراحل نشأة الصهيونية، أن تكون بداية التحقق لأحلام أحبارها الوهمية بإقامة «الدولة الوحيدة» في الأرض، رهنًا بعملية الاستيلاء على أرض فلسطين، التي ترتبط في نفس الوقت ببداية ظهور التحقيق العملي لدولة «إسرائيل الكبرى» فوق أنقاض العرب «من النيل إلى الفرات»، وحيث تقوم عاصمة هذه الدولة الخرافية على أطلال وأنقاض القدس العربية، التي ستكون – في الأصل الخرافي أيضًا – هي العاصمة الأبدية للدولة الصهيونية الوهمية.. الكبرى!!

من هو العربي:

والآن.. ونحن في مخاطر هذا الظلام والزحام، وفي مواجهة هذا الخداع والصراع، نرى الإنسان العربي وهو يطلب النور الهادئ والكاشف لا يزال يضع يديه على رأسه، باحثًا عن عقله وهويته، وعن ذاته وأصالته، متلمسًا أية فرجة ينبثق منها الضوء إليه، ويصل منها إلى سمعه ووعيه، تعبيرًا بالكلمات المشرقة عن ذاته الحية في أمواج تلك الأصوات المتزاحمة والمتصارعة، التي لا يجد فيها نفسه، ولا أصالته، وإنما يتلقى منها فقط هذه الضربات «الأيديولوجية» القادمة إليه صاروخيًا من أهل الشرق والغرب، لتتقل إليه نفس الإيحاء بالخضوع لذات المخطط الصهيوني الواسع الخفي، الذين خضعوا ولا يزالون يخضعون له.. وحتى تضيع فلسطين، والقدس، ويتمزق العرب ووراءهم المسلمون، وينتهي كل شيء.. إذا ما نجح المخطط الصهيوني البشع، وغير الإنساني، والفاشل، والغبي في نفس الوقت، في تحقيق الأوهام والأحلام!

إن الإنسان العربي يسأل نفسه اليوم ومن خلال صحوته عن طرق استرجاع ذاته، واستعادة أصالته، وإحياء مقوماته التي عاش بها الآماد الطويلة منذ فجر التاريخ حرًا يملك إرادته وقراره، ويملك نفسه وحقيقته، بغير ملوك ولا كهنة، وفوق أي وهم لفلسفة أو أيديولوجية، حول بيت الله القائم بواد غير ذي زرع..

إنه يسأل، ويدأب في السؤال والتدبر والتقصي، وهو يستنكر تمامًا وهو واقف على أرضه، وتحت مشرق تاريخه وشمسه، وجلجلة كتاب الله ووصاياه إليه - أن تذوب هويته وحقيقته، وأن تضيع أصالته ومقوماته، أمام عينيه، وهو ومائة مليون من أشقائه ساكنون لا يتحركون، ولا يفكرون، ولا يتدبرون، ولا يستذكرون فيذكرون. داخل معركة هذه

الإبــادة الــتي تــدور رحاهــا المــسموعة، والمكتومــة الأصــوات، والــسرية الإشــارات، فــوق مــا يــراد أن يكــون حطــامهم وأشــلاءهم.. فكيــف.. وإلى متى؟!

وعندما يلوح الشك في ذاته وحقيقته بعيدًا أمام عينيه يسأل نفسه عن نفسه ليعـرف حقًـا مـن هـو؟.. مـن هـو هـذا الإنـسان العربـي الـذي تـضطرب الأحداث اليوم فوق أرضه.. وتظهر أنياب الطامعين في موارده وأنهاره وبحـاره وحصونه من كل اتجاه؟!

نعم من هو.. وهل لا يزال يتذكر؟

ولكن كيف يتيسر له – هذا الإنسان العربي – أن يرى هذا الطريق الـصحيح للكـشف عـن ذاتـه وحقيقتـه، وعـن أصـالته ومقوماتـه، وهـو إذا أخـرج يـده في ظلمـات هـذا الـصراع علـى احتـواء عقلـه، وإذابـة إرادتـه، لم يكد يراها..؟

كيـف يتيـسر لـه وهـو يبحـث، ويتفكـر، ويتعقـل، أن يجـد طريقـه الصحيح للبحث، والتفكر، والتعقل، ليكشف بذلك عـن طريقـه الأول، والثابـت، والـدائم، والمتجـدد بمنهجـه وغاياتـه مـع العـصر.. طريقـه إلى الله الحق؟!

إنه سيجرب.. سيبحث عن أقرب الطرق ليعرف: من هو؟.. وليس بعيدًا أن يهديه الله.. إن شاء الله..

الفصل الثالث

الهوية الضائعة للإنسان العربي

يجدها مشرقة في لغته المبينة

الواحد القادر الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، هو الله الحق، الجدير وحده بالطاعة والعبادة، معتزين به فوق كل المخاطر، والمخاوف، والآلهة الكاذبة من البشر أو غيرهم.

العرب إذن قد نظروا إلى الإنسان -في نور اهتدائهم إلى الله، وإيمانهم به، وإعرابهم ببيان ألسنتهم عن اليقين بوحدانيته - على أنهم لا ينقسمون قط إلى سادة وعبيد كما زعم الآريون، وكما لحق بهم الصهاينة من اليهود، فالناس جميعًا تحت الله سواء، ولكنهم ينقسمون بحسب لغتهم، وقدرة الكلمة المعبرة في ألسنتهم، **إلى قسمين:**

الأول- إلى مستبينين لما حولهم من واقع الخلق المتحرك بسنن الله في السموات والأرض، ومبينين بالكلمة الصادقة والبالغة إلى غايتها عما حولهم، وهؤلاء هم «العرب» أي المستبينون المبينون..

والآخر- إلى غير هؤلاء ممن أبهم عليهم الحق الظاهر حولهم، واستعجم عليهم «البيان» عنه، سواء بالإدراك لما وراء هذا الخلق، أو لما وراء هذا «الوجود» كما يرونه، وكيف بدأ، وإلى أي نهاية تنتهي، ولماذا وكيف كان الإنسان؟ فأصبحوا بهذا العجز عن الاستبانة، والتعقل، والسقوط عن مستوى الرؤية والكشف عن حقائق الدين والحق، والإيمان بالله الحق «عجمًا» أو «مستعجمين» وهما كلمتان لا مقابل لهما مع كلمات «عربي ومعرب ومبين» في أية لغة أعجمية غير عربية.

على أن هؤلاء العجم أو المستعجمين كانوا ولا يزالون في شرف ونقاء وكمال اللغة العربية المبينة قابلين بغير استعلاء من أحد، وبغير تسيد أو بغي، لكي «يتعربوا» و«يستبينوا» إذا ما أحبوا ذلك لأنفسهم، وإذا ما سلكوا إلى هذا «التعرب» باللغة والعقل والعمل نفس الطرق التي سلكها العرب، متأسين بهم، ومؤمنين بما نزل من الله من الدين الحق والكتاب

المبين إليهم، كما حدث ذلك بعد الفتح الإسلامي، وفي المراحل الأولى من مشرق شمس الحضارة العربية الإسلامية، حيث تعرب الكثير من الشعوب، حتى البربر والإسبان، تحت راية الإسلام البيضاء، وعلى طريق شريعته السمحة..

إذن فمن الإنصات الواعي والمتدبر إلى هذه «اللغة العربية» الفصحى، التي هي لغة الإنسان الحر، المبين عن الصدق، وعن الحق، بما في كلماته، وحيوية عباراته، وإيقاع صوته، يبدأ التعرف على من هو «العربي»، وما هي حقيقة ذاته، ومقومات أصالته، التي إذا جمع نفسه عليها، وملك إرادته بها، لم يعد صيدًا لهذا الغزو العقلي، أو ضحية لهذا الاستعمار الأيديولوجي، واستطاع فوق كل التحديات أن يعود إلى ما كان عليه في أوج إشراقه، متحركًا مع العصر، ظاهرًا بحقيقته وأصالته بين الشعوب، ليكن «هو هو» كما ينبغي أن يكون، وليس «غيره فيه» الأمر الذي يجب ألا يكون.

وحتى وهم يعترفون:

نعم.. وحتى بعض المستشرقين، وعدد من الخصوم التقليديين، أدركوا بدارسة اللغة العربية، وإطالة الاستماع إليها من أفواه أهلها، مدى ما في كيانها الحي المتجدد من الملكات والقدرات التي هيأتها لقيادة هذا الفتح الحضاري العربي السلمي للإسلام في تاريخ العالم، نذكر من هؤلاء على سبيل المثال أحد كبار المتعصبين لمسيحيتهم وهو المؤرخ الفرنسي يوسف إرنست رينان المستشرق أو المستعرب، وعالم اللغات، الذي وقف من خلال دراسته الواعية للغة العربية وسط اللهجات المتفرعة عليها مثل: الآرامية والسوريانية والعبرية، ليعلن في إنصاف العالم الأمين عن رأيه الذي

يزكي به قدرات هذه اللغة التي تكلم بها العرب، ونزل بها القرآن، وذلك في كتابة «تاريخ عام ودراسته مقارنة للغات السامية»..

يقول رينان في ثنايا هذا الكتاب:

«إنه وسط شبه الجزيرة العربية، وهو موطن العرب الأصلي، الذي لم يظهر في تاريخ الشرق القديم إلا متأخرًا، ومع ذلك فإن هنا بالتحديد تستمر بفضل الحياة البدوية هذه الميزات الأصلية للعرب. ففي القرن السادس الميلادي -أي قبل ظهور الإسلام- يتراءى هناك عالم زاخر بالحياة، والشعر، والرقي الفكري، في بلاد لم تعط حتى هذا التاريخ - بالنسبة لأوربا - أي علامة على وجودها..».

ثم يقول: «فبدون سابقه ولا تمهيد نلتقي فجأة بفترة «المعلقات» وغيرها، من الشعر الفطري في مضمونه، بينما هو من حيث الشكل في غاية الأناقة، وفي لغة هي منذ البداية تفوق في بدائعها أكثر أنواع الكلام عمقًا بالثقافة، وبألوان الحصافة في النقد الأدبي وفي البيان، شبيهة بما نجده في أشد عصور الإنسانية إعمالًا للفكر. فإذا ما وجدنا هذه الحركة تنتهي بعد قرن من الزمان إلى «دين جديد» يفتح نصف العالم، أفليس من حقنا إزاء ذلك أن نقول إن بلاد العرب - دون جميع البلاد - تشذ أكبر الشذوذ عن كل القوانين التي نحاول بمقتضاها أن نفسر تطور الفكر الإنسان؟!»

ثم يقول رينان بعد ذلك:

«ومن بين الظواهر التي اقترن بها هذا الانبثاق غير المنتظر لوعي جيد في الجنس البشري - يعني ظهور الإسلام ونزول القرآن - ربما كانت اللغة العربية نفسها هي الظاهرة الأشد غرابة، والأكثر استعصاء على الشرح

والتعليل، فهذه اللغة المجهولة عالميًا قبل هذا التاريخ تبدو لنا فجأة بكل كمالها، ومرونتها، وثروتها التي لا تنتهي. لقد كانت من الكمال منذ بدايتها بدرجة تدفعنا إلى القول بإيجاز إنها منذ ذلك الوقت، وحتى العصر الحديث، لم تتعرض لأي تعديل ذي بال. اللغة العربية لا طفولة لها، وليست لها شيخوخة أيضًا، منذ ظهرت على العالم بياتها وانتصاراتها».

هذا رأي أحد عمالقة الخصوم الأوربيين اللذين بهرهم مع «التعرب» بدراسة اللغة العربية، والإنصات بكل حواس العالم والمتعلم إليها، للمقارنة بينها وبين غربها، ما كشف عنه من تفوقها على غيرها من جميع لغات البشر بدقة نظامها الصوتي، وتقنينها المعنوي، مع شبابها الدائم بكمالها التعبيري، وهو رأي كان يختفي وراءه أكثر من الانبهار الذي عبر عنه مستشرق آخر أكثر إنصافًا هو العالم الانجليزي توماس أرنولد الذي أشار إلى رينان في كتابه البالغ باللغة العربية بعد دراستها، واستماعه إليها في أفواه أهلها، وفي تلاوات للقرآن الكريم في المساجد، هزت من أعماقه إلى حد السجود له حتى ليروي توماس أرنولد عنه قوله:

«كان رينان يقول: ما دخلت مسجدًا قط دون أن تهزني عاطفة حاجة، ودون أن يصيبني أسف محقق على أني لم أكن مسلمًا»!!

فكيف لا تكون هذه اللغة العربية إذن بوجهها الشاب الصبوح، وبخلود كمالها إلى اليوم في كتاب الله، وفي جوامع كلم الرسول، وفي تاريخها الديني الذي خصها الله فيه بكتبه ورسالاته، وفيما حولها من هذا الوطن العربي الفسيح المضيء، والمتوسط لكل العالم، والمشرق على كل

العصور.. كيف لا تكون هذه اللغة المبينة هي المدخل إلى تعرف الإنسان العربي على نفسه ليعرف: من هو؟.. وعلى حقيقته وذاته ليعرف: ما هي؟... وعلى أصالته ومقوماته ليسأل: أين هي؟.. حتى يستعيد بذلك عصمته من الضياع، وحصانته من الغزو، وحتى يخلع عن وجهه النبيل، وعن معالم ذاته الحرة، هذا القناع المهلهل المهين: «غيره فيه».. أو «غيره في صورته»!!!

الوجود باللغة:

إن مثل هذه الشواهد الكثيرة في التاريخ الصحيح، وفي صوت الفطرة الحية، وفي نداء القرآن الكريم مهما طال هجره، بل في أقوال الخصوم المنصفين – تدل على حقيقة هذا الوجود الحي باللغة كما عاشه العرب في صورته الفطرية النقية، وغير المتناقضة بمعانيها وغاياتها مع العلم، ولا مع سنن الله في الخلق، ولا مع رشد الإنسان وتعاقب العصور..

إنها تدل على حقيقة هذا الوجود اللغوي الحي، والمتجدد بالاصطفاء والنماء، في حياة العرب.. هذا الوجود اللغوي «الزاخر بالحياة والثقافة والرقي الفكري» كما يقول رينان، والشاهد إلى اليوم على أن صحوة التعبير، وصحوة العقل، وجلاء الذات بالنسبة للإنسان العربي المعاصر – يمكن أن تتحقق له إذا ما وضع نفسه بوعيه وعقله واختياره في الموقف السليم من حاجته إلى هذا «الوجود اللغوي» المزدهر بهذه اللغة العربية القرآنية، بكل كمالها، ومرونتها، وثروتها التي لا تنتهي، وبكل شبابها وخلودها وهي تستعبد قدراتها على التعبير الديني، العلمي واليقيني، وعلى هذا الاستخلاف الدنيوي في الأرض، والتقدم العمراني على مواردها، من أجل تحقيق هذا الخلود الأخروي بعد الحياة والحساب..

إنـه لا شـك – وكيـف نـشك – في أن الإنـسان العربـي المعاصـر، هـو الأقـدر في هـذا الواقـع المحـيط بـه علـى أن يـربط في منـاخ صـحوته، بـالعلم والإيمان، بين رؤيته الشمولية لملكوت السموات والأرض، في وطنه الفسيح المـضيء مـن المحـيط إلى الخلـيج، وبـين التعـبير الحـر عـن هـذا الملكـوت السماوي والأرضي، الدنيوي والأخروي، بصوته العربي، الإيقاعي والمبين، هـذا التعـبير الحـي، الـذي لا تـتغير دلالتـه مـن كـل زوايـا الرؤيـة البـصرية والعقلية لهذا الواقع، وهـي تعكس بكمالات التكـوين التعـبيري لكـل مـن أجـزاء وجزئيـات الـصورة، والـصوت، والحركـة، والفكـرة، برهـان هـذا الواقـع المـضيء والمتـسق علـى أن الله الواحـد هـو الخـالق الحـق، الـذي منـه البدء.. وإليه المنتهى..

على أن مثل هذا الذي نقوله في الفصول الأولى من هـذا الكتـاب عـن مـنهج الـتفكير الإسـلامي للعقـل العربـي، مـستندين إلى خـصائص البيـان العربـي في اللـسان العربـي، لـيس مـن الإنـشاء المـنغم، والحـب البـالغ لهـذا البيـان، وإنمـا هـو تنبيـه وتنويـه مـوجز لا يمكـن أن يقـال أقـل منـه في وقفـة الانتباه والإعظام لهذا العلم الكامل والزاخر بالشباب والحيـاة والخلود، في هذه الآية الكبرى بكل غاياتها الإنسانية البعيدة، كما اجتبى الله العـرب لها، واجتباهم بها..

إن هـذا البيـان في اللسان العربـي هـو في حقيقتـه علـم كامـل بمفهـوم العلوم الطبيعية، والعلوم الإنسانية، والعلوم البيئية والجغرافية مجتمعة. وهـو علم وإن كان فوق الإحاطة به إلى اليوم، إلا أنه من الممكـن، بل من المحتم في صحوة الأمة العربية في هذا العصر أن تلم بكل ما يتيسر لها من أبعـاده، الـتي يكـشف عنهـا الـوحي في بيـان القـرآن الكـريم، وأولهـا هـذه الحـروف التامـة الـتي تحكـمهـا في اللـسان العربـي المبين قـوانين علميـة هـي أقـرب في

الملكوت المسموع إلى تنبيه العقل الإنساني إلى الله بدلالة آياته في الملكوت المشهود.. والمرئي..

ذلك لأنها – أي هذه الحروف – هي التي تحمل إلى السامع العربي، المتحرك وسط آيات هذا الخلق المتحرك، هذه الدلالة الحية على الله في السموات والأرض، بالغة بصوته، وبالإيقاع المتسق مع حركة الواقع بهذا الصوت، إلى أعمق شعوره، وعقله، ونفسه، وفطرته، في حين هي تقوده في نور العلم والإيمان، وفي أمنه النفسي بالصدق والعمل؛ لكي ينتصر بإخلاص حياته لله، متخطيًا لكل عقبة، متوجهًا لأشرف غاية، عبر كل زمان ومكان.

الفصل الرابع

وفي البدء المضيء بحركة الواقع نشأت اللغة العربية تامة الحروف



وإنها لآية حقًا أن تنشأ اللغة العربية في هذا البداء المضيء، والمتحرك، والذي تحرك الإنسان العربي في واقعه، وبين آياته، ليتدبر ويعقل البرهان على الله، تامة الحروف بالنسبة لجميع لغات البشر، مستوفية الأوتار، ودقيقة الأداء، وصحيحة المخارج لأداة النطق، في فم الإنسان وحلقه ولسانه، بحيث تكون هذه الحروف بهذا الكمال الصوتي آية هذا الارتباط الوثيق في حياة الإنسان بين تمام لغته المبينة، ودوام سيره في الأرض ليستدل ببرهان الآيات على الله، ويؤمن به..

بهذه الآية التي خلدها القرآن الكريم بتنزيله، وأحرف بيانه، استطاع الإنسان العربي أن ينطق إلى حد الكمال بالصوت والمعنى بهذه الحروف الثمانية والعشرين التي نمت بها لغته، متجاوزة بها في العدد والأداء والمعنى والدلالة عدد الحروف المنطوقة في جميع اللغات الأخرى، وعلى رأسها اللغات الأجنبية الغروية الالتصاقية، التي لا يزال يلحق بها التبدل جيلًا بعد جيل، تاركة وراءها على الطريق مهلهلات كلماتها المنقرضة، ومنتهية إلى أبنائها بلهجات غروية طفيلية جديدة تباعد بين الناطقين بها وبين لغات آبائهم البائدة..

لقد نطق الإنسان العربي في باديته بحروف: الجيم، والحاء، والخاء، والذال، والضاد، والطاء، والظاء، والعين، والقاف، وهي الحروف التي اتسعت بها مدركات اللغة العربية فوق أية رؤية عقلية لأية لغة أخرى. وقد ظل هذا التمام للنطق بهذه الحروف، والكمال في بيان اللغة العربية بها، أمانة في حياة الأمة العربية تتوارثها وتحملها أجيالها جيلًا بعد جيل، حتى لا تتعرض لأية عوامل قسرية لإرادتها وحركتها، تؤدي إلى تآكل هذه الحروف الناصعة في قيثارة لسانها، بما ينتهي بها إلى ما انتهى كثيرًا في مراحل القهر السياسي والتخلف الحضاري إلى هذه اللهجات العامية

المريضة، القاصرة في أدائهما، وشتات معانيها، وأفول نجومها، عن ملاحقة آمال ومطالب وغايات الناطقين بها..

إن الاحتفاظ بحيوية الأحرف العربية في اللسان العربي يرتبط كما أكدت مراحل الإفصاح في حياة الشعوب والأجيال العربية بهذا المستوى الحتمي من الحرية، وحياة الحركة والتفكر في السموات والأرض، دعمًا وتنمية للإيمان، وملاحظة واستزادة من العلم، وهي الحياة السوية التي تحفظ على الإنسان المؤمن الراشد يقينه الديني، وأمنه النفسي، مع سلامة عقله، وصحة بدنه، التي يرتبط بها في هذه الحياة السوية الصحيحة صحة وقوة حلقه، وسلامة وصحة مخارج الحروف التامة في فمه ولسانه.

إنه بهذه الحياة الصحية السوية، دينًا وعلمًا، وحركة وسعيًا، وتفكرًا وعقلًا، يتجنب خطر التدهور في مقومات وجوده الأساسي باللغة المبينة، إنه يتجنب ويتحصن ضد جميع هذه المخاطر التي أشار إليها علماء الصوتيات اللغوية Phonetique، والتي يذكر منها عالم اللغة علي عبد الواحد وافي في كتابه «علم اللغة» العوامل الآتية التي تتدهور بها اللغات إلى لهجات:

1- التطور المطرد لأعضاء النطق في تكوينها واستعدادها.

2- اختلاف أعضاء النطق في تكوينها واستعدادها باختلاف الشعوب.

3- الأخطاء السمعية.

4- تفاعل أصوات الكلمة بعضها في بعض.

5- تناوب الأصوات – أي الحروف – وحلول بعضها محل بعض.

6- أثر العوامل النفسية، والاجتماعية، والجغرافية.

7- أثر العوامل الثقافية.

آيات الحروف:

إن الجهاز الصوتي للإنسان العربي قد استوفى مراحل نشأته وتطوره ونموه، وفقًا لقوانين اللغة والبيئة، حتى بلغ درجة التمام لحروف لغته، وغاية الكمال في الاتساق الصوتي لهذه اللغة، باتجاه وعي الدنيوي والأخروي في هذه الحياة، وتنمية العلم والإيمان للمزيد في طاعة الله..

ولئن كان الأوربيون في دراستهم المتنوعة للعلوم الصوتية لم يتوصلوا – وهم تحت المستوى الجغرافي والبيئي والإنساني الملائم – إلى حقائق حية، أو علم نافع، سواء في دراسة لغاتهم أو لغات غيرهم، فإنهم لا يزالون يأملون – وبخاصة مع احتمال توسع دراسات علماء منهم أقروا مثل العالم الفرنسي إرنست رينان بكمال الإسلام وكمال اللغة العربية الناطقة عنه وبه.

وفي مثل هذا الأمل قد يشطح بعضهم بالأحلام عن المستقبل كما يشطح أحد أساتذة علم النفس الإنجليز «سيرل بيرت» في كتاب مشترك بينه وبين زملائه له بعنوان «كيف يعمل العقل» والذي يقول فيه:

«إن الأخصائي في علم الأصوات ومخارج الحروف ليستطيع أن يسجل بالرموز خصائص اللهجات المختلفة وصفاتها، وقد يخترع علماء النفس يومًا من الأيام وسيلة يستطيعون بها أن يسجلوا ما بالكلام من زون.. وموسيقى»!

على أن القرآن الكريم، في قمة الكمال الذي بلغ به كلام الله ببيان اللغة العربية، قد فتح منذ أربعة عشر قرنًا هجريًا هذا الباب واسعًا عن علوم اللغة العربية، وعلوم أصواتها، وما يكمن فيها وفي أحرفها من مثال حي على حركة سنن الله باتساع آفاقها، داخل هذه الذبذبات

الصوتية القصيرة الأمد، والمتعددة القدرات والقابليات، لهذه الأحرف التي أقسم بها سبحانه في أوائل بعض السور، والتي لا يزال العقل الأعجمي الذي يسيطر على تفاسير بعض علماء المسلمين في عصور التخلف – بعد عصر النبي وعصر الصحابة – عاجزًا عن تدبر ما وراء هذه الأحرف في أوائل بعض السور، وحتى ليتحول عجزهم أحيانًا إلى وهم وخرافة، أو فتنة وتضليل..

وفيما يلي نقدم بإيجاز، واستنادًا إلى ركائز ومقومات التدبر السليم لكتاب الله، ولغة العرب المبينة التي نزل بها هذا الكتاب، لنفتح باب «علم أصوات اللغة» على مصراعيه أمام من يستمعون القول من العلماء فيتبعون أحسنه وأصدقه، متحققين من أن بدايات هذا العلم المنبثق من آيات الحروف كانت واضحة كل الوضوح على عهد الرسول الكريم وصحابته المؤمنين، وما هدانا الله إليه اليوم إنما هو أن نستعيد تصور ما كان المسلمون الأوائل على علم به بأسبابه التي لا تزال قائمة، ومن مصادره التي لا تزال حية.

أنواع الاستهلال:

تبدأ بعض السور في القرآن الكريم بحروف مفردة، أو بحرفين أو أكثر إلى خمسة حروف. ويبلغ عدد هذه الحروف أربعة عشر حرفًا وهي: ا – ح – ر – س – ص – ط – ع – ق – ك – ل – م – ن – هـ – ي. ولما كانت حروف اللغة العربية ثمانية وعشرين حرفًا فتكون هذه الحروف بالضبط نصف حروف اللغة، كما أنها مع النصف الآخر زوجية وليست فردية.

هذه الحروف تقع في استهلال 26 سورة مكية، وثلاث سور مدنية فقط هي البقرة وآل عمران والرعد. كما نلاحظ أن هذه الحروف لا تظهر

في مجموعة السور الأولى من القرآن ولا في مجموعة السور الأخيرة منه. إنها لا تظهر إلا بعد السورة الثانية والثلاثين بترتيب النزول ما عدا سورة القلم، وكذلك تخلو منها الست عشرة سورة مدنية الأخيرة في نزول القرآن الكريم.

بعد هذه المقدمة نستطيع ببعض التدبر في كتاب الله أن نتبين أن السور التي تستهل بهذه الحروف تجيء متجمعة في مرحلة ثالثة بين أربع مراحل اتجه إليها شكل الاستهلال في السور المكية والمدنية على النحو التالي:

أولًا – الاستهلال بتوجيه الخطاب إلى الرسول في السور الأولى من القرآن، وذلك لتأييده، وشد أزره في مثل قوله تعالى:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ والتي فيها قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾.

ثانيًا – الاستهلال بالقسم بآيات الله المرئية والمتعاقبة في ملكوت السموات والأرض، وذلك لتنبيه أسماع المدعوين إلى الداعي والدعوة، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ و﴿وَٱلْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ و﴿وَٱلضُّحَىٰ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ و﴿وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ و﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ و﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ و ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾

ثالثًا – الاستهلال بهذه الحروف الأربعة عشر التي يد بعدها دائمًا ذكر كتاب الله مثل:

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ و﴿ يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ و﴿ طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ و(الٓمٓصٓ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾

رابعًا –المرحلة الرابعة بعد ذلك وهي الختامية، وتبدأ في استهلالها بالأمر المراد من السورة وذلك في مثل قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ وفي سورة المنافقون ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ ﴾، وفي سورة محمد: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ وكذلك قوله في سورة الحجرات وهي مدنية وقد جمعت الكثير من أدب الإسلام للمسلمين، وهي تبدأ مباشرة بوصايا الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وقوله تعالى في سورة النساء وفيها ما فرضه الله في شريعته من العدل والتكامل بين الرجال والنساء وبخاصة في المواريث التي كان يأكلها أكثر الرجال في الجاهلية، متناسين حقوق القربى والأرحام ووشائجها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

آيات القسم:

يتبين من ذلك أن الحروف التي جاءت فواتح لبعض سور القرآن الكريم ليست في المراحل التي سار عليها نهج الدعوة بالقرآن المبين إلا نوعًا من القسم يأتي بترتيبه في مدارج الدعوة ومراحلها، ليعلن عن هذا القسم الفريد في تاريخ الدعوات الدينية السابقة، والقسم العظيم بآية الله

الكبرى في هذه الحروف نفسها التي يقوم عليها، وعلى ما فيها من وحي الله بكماله، ومن سننه بقدراتها وقابلياتها، خلود دعوة الله إلى الإسلام في القرآن الكريم، وحجة الله بهذه اللغة المبينة بأصواتها، والمشرقة الآيات في حروفها، على من اجتباهم لدينه، وتدبر كتابه، وحمل رسالته، من هؤلاء العرب من قوم النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن أبناء إسماعيل بن إبراهيم، الذين جعلهم بتمام نعمته عليه بهذه اللغة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾..

وكما أوضحنا فإن هذا القسم بآية عقلية وقلبية، هي هذه الأحرف العربية الظاهرة بوصفها أصوات وعناصر بناء هذا الملكوت المسموع والمعقول، قد جاء بترتيبه بعد القسم بآيات الله الحسية المشهودة في الكون من الليل والنهار، والشمس والقمر، والظلمة والنور، والحياة والموت، والتي هي لبنات وعناصر الملكوت المرئي والحسي..

لقد كان القسم بهذه الأحرف جديرًا بأن يثير اهتمام الأمة التي اجتباها الله فأنزل القرآن بلسانها العربي المبين، وهي الأمة التي ميزت نفسها عن غيرها من الأمم بكلمة واحدة تدل بها على التزامها ببلوغ ذروة البيان والهداية وهي «عرب» في مقابل كلمة أخرى تدل بها على عموم من لا يبينون، ونتيجة لذلك فهم لا يهتدون، وهي «عجم»..

وهكذا كان القسم بهذه الأحرف الحية دلالة فريدة على هذه النعمة الكبرى التي اصطفى الله بها العرب لدينه، وفتح بآياتها هذا الطريق الواسع للهدى إليه، والعزة به، عابرين على جسرها الأمين ما بين عالمهم المحدود وملكوت السموات والأرض، باذلين بالرضا كل الجهد والجهاد ليسمعوا بأصواتهم.. في حين يسيرون قدمًا بين آيات الله – هذا

البرهان الذي يوقظ فطرتهم، ويهز بالوعي قلوبهم وعقولهم، ويذكرهم في مواجهة هذه النعمة التي أعدهم الله لها، ورفع قدرهم إليها، بواجب الشكر لله المنعم وليس الجحود، وحق الطاعة وليس العصيان، وتنمية الإيمان به وليس الفتور والنسيان.

من أجل هذا – كما ذكرنا – فقد أتبع الله الاستهلال لبعض السور بهذه الأحرف بكر القرآن الذي هو آية الله الكبرى بين جميع آياته من خلق الأرض ومن عليها، وذلك لينبه السامع المتدبر إلى أن هذا القرآن العظيم، والحكيم، والمنير، هو الصرح الخالد من الآيات المحكمات، المشرقة كلها من ثنايا هذه الحروف الحية المسبحة كما أوحى بقدراتها وقابليتها في بناء اللغة العربية المبينة. وذلك في مثل قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ وفي سورة الشورى: ﴿حمٓ عٓسٓقٓ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾.

أي بهذه الأحرف العربية ينزل القرآن إليك وحيًا كما أوحى الله بالتوراة والإنجيل لمن قبلك.

أربعة عشر حرفًا:

والآن قد يسأل سائل: لماذا اختار الله أربعة عشر حرفًا ليقسم بها من حروف اللغة العربية دون الحروف الأربعة عشر الأخرى؟.. والجواب: أن القسم بنصف حروف هذه اللغة هو في حد ذاته إشارة إلى أهمية النصف الآخر المتفاعل معه داخل كيانها اللغوي الواحد. وإذا كان بعض المفسرين قد سمى هذه الحروف في أوائل السور بالحروف النورانية، وسمى الأخرى بالحروف الظلمانية، مضيفين إلى ذلك كثيرًا من التهاويل والأعاجيب بعيدًا عن هدى القرآن الكريم، فالحق أن الأمثل في جانب هذه الحروف

الفعالة والشديدة السطوع في آيات القرآن وكلماته أن تسمى بالحروف الشمسية التي تشع من ذاتها، في مقابل الحروف القمرية التي لا تعكس وهي تنير إلا إشعاع هذه الحروف الشمسية عندما تختلط بها. ومثل هذه التسمية تتعادل مع كلمتي «الإيجابي والسلبي» في مجال الكهرباء، و«الحمضي والقلوي» في مجال الكيمياء، أو «المذكر والمؤنث» في المجال الحيوي للاتحاد والاشتقاق والتوالد بين الأحياء.

وإذن فقد أقسم الله تعالى بالحروف ذات التأثير المباشر على الحروف الأخرى المقابلة لها، هذا التأثير الذي له وقعه على الأسماع والعقول، من حيث القدرة على استقبال وتدبر هذا التركيب الصوتي الملهم، الذي تنشط به في الاتجاه الصحيح مشاعر الإنسان السوي وأفكاره، وتتداعى معه الصور والمعاني إلى عقله، وتتحدد الطرق والغايات أمام إرادته..

وتشهد السور التي استهلت بهذه الحروف الأربعة عشر على صحة هذا الفهم لطبيعتها في بناء آيات القرآن الكريم، كما شاء الله الموحى به وبها، وذلك حيث يتاح لكل من يفتح المصحف، ويتدبر هذه الآيات في السور المستهلة بهذه الحروف، أن يتحقق من أن الكلمات ذات الفعالية القصوى حول موضوع السورة، والمعنى المحكم والمراد من الآية، إنما تشتمل على واحد من هذه «الأحرف» التي استهلت بها السورة في موضع القسم.

وفيما يلي نقدم أمثلة قليلة على صحة ما أوضحناه، مع التأكيد بأن هذه الأمثلة شاملة لهذه القاعدة الخاصة بدلالة هذه الأحرف موضع القسم، وبدون استثناء، والقرآن الكريم مفتوح لتدبر الجميع.

من سورة القلم التي تبدأ بحرف نون نسجل بعض الآيات التي وردت بها هذه الكلمات التي يبرز ويضيء بمعناها حرف نون، بحيث يبدو أنه من الحروف الأساسية في موضوع السورة، والأكثر عددًا:

(نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴾.... ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلِّۢ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴾... وكذلك تمضي الآيات في هذه السورة وهي تحمل في أكثر كلماتها الفعالة حرف النون كما في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ﴾... وهكذا إلى آخر السورة.

ومن سورة يس التي تبدأ بالحرفين «ياء، وسين» نسجل بعض الآيات التي يبرز ويتكرر في الكلمات الظاهرة بالمعنى العام المراد منها حرفا «الياء، والسين» سواء أكانا معًا في كلمة واحدة، أم كان كل منهما في كلمة مستقلة.. يقول الله تعالى:

﴿يسٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.. ويقول تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾.. ويقول تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾.

ومن سورة مريم التي تبدأ بخمسة أحرف هي الكاف والهاء والياء العين والصاد نسوق هذه الأمثلة من الآيات التي تبرز بها الكلمات المشعة بالمعنى المراد والموضوع العام لهذه السورة متتابعة بهذه الأحرف. يقول تعالى:

﴿كٓهيعٓصٓ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ فمن الآيات التي تظهر فيها فاعلية حرف الياء وإشعاعاته نلاحظ كما هو ظاهر أن أكثر النهايات الإيقاعية للآيات في هذه السورة يعتمد على هذا الحرف في مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وقوله: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ونعود إلى ترتيب هذه الأحرف في قسم الله بها فنذكر من الآيات التي تظهر فيها الكاف بقوة إشعاعها في المعاني المتعلقة بموضوع السورة قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ وقوله: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ وقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ وقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وأما الهاء فمن الآيات التي تظهر فيها الكلمات المؤثرة بها قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ وقوله: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ وقوله: ﴿أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ وقوله: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ وقوله: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا ..﴾ وقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾.

وأما حرف العين فنذكر من أماكنه في الكلمات المؤثرة بهذه السورة قوله تعالى: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ وقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وقوله: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ وقوله: ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ

﴿أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ وقوله: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

وأما الصاد فنذكر من الآيات التي وردت مؤثرة في كلماتها بهذه السورة قوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ وقوله: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ وقوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ وقوله: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾.

هذه الأمثلة التي أوردناها عن كل حرف من هذه الأحرف الخمسة التي أقسم الله بها في مستهل سورة مريم، والتي تعدد بها كما هو ظاهر تجاور هذه الأحرف مثنى وثلاث في هذه الآيات التي تمثلنا بها – تؤكد أن هذه الكلمات وأخواتها مما ظهرت بها إشعاعات حروف القسم في سورها، هي في بناء القرآن الكريم بوحي الله دلالات وآيات متتابعة على ما خص الله به اللسان العربي المبين في أحرفه التي أقسم بها، والأحرف الأخرى المقابلة لها، والمتفاعلة معها، من كمال المعنى وجلال الإيقاع، ومن دقة النظم وقوة الإشعاع، تجاه كل من يسمعون إلى كتاب الله – إلى اليوم – بقلوبهم، ومن يتدبرونه بعقولهم، من المؤمنين الصادقين، والمسلمين العاملين.

ومما نلاحظ أخيرًا أن عددًا من هذه الكلمات في أمثال هذه السور التي استهلها الله بالقسم بهذه الأحرف، لا يرد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، أو مرتين، أو مرات قليلة، ومن أمثال ذلك في سورة مريم وحدها

كلمات «سريا، صليا، سميا، صبيًا، صريم، مفتون، زنيم، هين، هزي، جذع».

السبع المثاني:

وبعد.. فإن سؤالًا أخيرًا سيظل يتردد في خواطر بعض القراء حتى نجيبهم عليه. أما السؤال فهو: هل هناك دليل من القرآن على أن الله قد أقسم في مستهل هذه السور بهذه الأحرف الأربعة عشر؟

وللجواب نبدأ بهذه الآية الكريمة من سورة الزمر المكية، والتي يقول فيها تعالى من صفة القرآن الكريم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾.

فالله تعالى في وصف القرآن يقول إن بناءه الجامع لأحسن الحديث، وأعظم الغايات، قائم على حروف متشابهة في أنحائه، ولكنها في مضيها به بالتنزيل: مثنى.. مثنى.. أي: أزواجًا أزواجًا، من الحروف العربية المبينة والكاملة، والمتقابلة بالتآلف الزوجي فيما بينها والمتفاعلة، إنما تحشد من قوة التأثير على أسماع المتدبرين وعقولهم، ما تسري به وعدة التأثر الصادق في جلود الذين يستمعون إليه، ممن يخشون الله، ومن ثم تلين جلودهم وقلوبهم خشوعًا ورغبًا إلى الله...

فالمثاني على غير ما اختلط أمرها على أكثر المفسرين إنما هي الأحرف التي تمضي بها مقاطع القرآن ومفاصله وآياته متزاوجة مثنى مثنى، أو اثنين اثنين، سواء من الأحرف التي أقسم الله بها، أو منها ومن الأحرف الأخرى معًا، بما يتجلى به في أعظم نعمة أنعمها الله على الإنسان بهذا القرآن الحكيم كيف أقام الله لمن اجتباهم لهذا الكتاب، ولهذه الأمانة، هذه الآية الكبرى التي تذكرهم إذا غفلوا، وتصدعهم إذا

كذبوا، وتحيى قلوبهم إذا استكانوا – من أحرف متشابهة مع التكامل في أصوات مفرداتها: ألف باء تاء ثاء جيم حاء.. إلى آخرها في حرف الياء. فإذا ما دخلت هذه الحروف المفردة في تركيب الكلمات: مثنى مثنى، وأزواجًا أزواجًا، في تباديل وتوافيق بغير حد، تفجرت من منابعها، ووحي الله في قدراتها وقابلياتها، بما لا تنفد آياته من الصور، والمعاني، والأفكار، التي تستقيم بها مدركات العقول والألباب، سواء في طرقها المفتوحة، أو غاياتها السوية.

هذا.. بينما يغفل الغافلون عن قدر هذه الأحرف المنطوية على عالمها الحي والنشط، كعالم الذرة الواسع برغم دقتها، والمشرقة بمكنونها من عجائب هذا العالم الحي المسبح كلما وضعت في موضعها الصحيح، من قلب وعقل ولسان الإنسان العربي، المستبين، المؤمن. إنهم في مراحل تخلف الشعوب العربية، بالغزو أو بالتفرق، يمرون عليها مرور الغافلين، فلا يدركون قدر ما أنعم الله عليهم بها، وما ميزهم ببيانها ولسانها، ليحملوا رسالتها أقوياء رحماء أشداء، وليؤدوا الأمانة عنها صادقين أوفياء علماء.

إنهم عندئذ وهم يتدبرون كتاب الله سيستوعبون معنى قوله تعالى في سورة الحجر في فضل هذه الأحرف التي قام عليها اللسان العربي، ونزل بها القرآن الكريم مجتمعة: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾.

أي لقد أنزلنا إليك بالأحرف الأربعة عشر التي أقسم الله بها في استهلال عدد من السور.. هذا القرآن العظيم، الذي جمع الله في تنزيله وتفصيله محكم معاني هذه الأحرف، والأحرف المتقابلة والمتفاعلة معها، ليمضي هذا الكتاب المنير ببيانه الخالد، ولسانه المبين، ليكون مثار هزة الخاشع عن غفلته، ودمعة المؤمن بإنابته، وحجة المسلم في جهاده وصحوته.. فكيف.. كيف لا يقسم الله بهذه الأحرف قسمه بالسبع المثاني والقرآن العظيم.. كما أقسم سبحانه قبل ذلك بالضحى والليل.. والشمس والقمر؟!

الفصل الخامس

شهادة القرآن بكمال اللغة العربية
باتساع دلالتها العلمية على الدنيوي والأخروي

العلم والإيمان:

بهذه اللغة المبينة ذات الحروف الحية بتمامها، والمشرقة في إيقاعها، اجتمعت لمعنى العلم في القرآن الكريم دلالته العامة على علم الدين وعلى علم الدنيا معًا. هذا إلى إشارته الدائمة إلى مصدر هذا العلم في السموات والأرض، حيث تتكشف للإنسان السوي من خلال سيره الدائب بين آفاقهما المضيئة، يتفكر في خلق الله ويتدبر ويؤمن، مستزيدًا ببرهان كل نهار وليل، وهو يتتبع قوانين حركة الأشياء في حين هي تتغير باتساق ودون تفاوت حتى لا تتغير – من هذا العلم الدنيوي، الذي يستزيد به في نفس الوقت من علمه الديني، بادئًا ومنتهيًا بهما إلى الله الحق، الذي اجتباه وهداه بالعقل المؤمن، واللسان المبين.

لقد كان مصدر النعم كلها من الله إلى هذا الإنسان الفطري السوي سيره الدائب في بدائه المضيء، ليتفكر في خلق السموات والأرض، وفي اختلاف النهار والليل، والحياة والموت، والهدى والضلال، ولكي يتلقى بهذا السير المرهف الحس، والبعيد الرؤية، والمبين التعبير، والذي أوحى الله به في فطرته وإرادته وحركة حياته – هذا العلم الشامل للدنيوي والأخروي في تدبره.. العلم الذي استخلفه الله به طوال مراحل التاريخ الديني، وجعله بأمانته أهلًا لحمل رسالة الدين أسوة ورحمة للعالمين، وذلك حيث يقول تعالى من هذا الأمر الدائم في تراث وحياة الشعوب العربية، وحيًا إليها في رسالات الدين، وحتى الرسالة الخاتمة بنزول القرآن الكريم: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾.

وحيث يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾.

بهذه الآية المطاعة من أمر الله بهذا السير الدائب المتفكر في خلق الله تفجر العلم الدنيوي الذي اتحد بغايات العلم الديني في نداء القرآن الكريم من قلب الجزيرة العربية، التي كانت ولا تزال قلب العالم القديم والحديث.. هذا العلم الذي جعل علم قوانين الخلق أو الطبيعة طريقًا إلى الإيمان، وجعل الإيمان شرطًا لتسخير واستثمار علوم الطبيعة في بناء مجتمعات الحق والسواسية والعدل والسلام، ولم يفصل أحد العلمين عن الآخر، بل جعل أحدهما دليلًا على الآخر، ومكملًا له، وشرطًا لصحته، وأساسًا لحياة الإنسان السوية اليقينية، التي تجمع بين «الدنيوي والأخروي» في سعيه الصادق الآمن والحثيث إلى الله، في هذه الحياة.. ونحو ما هو أفضل بعد هذه الحياة بمشيئة الله.

العلم بغير إيمان:

واليوم.. والمسلمون جميعًا يواجهون في صحوتهم بهذا العصر تجربة غير مسبوقة بهذا التعقيد، والعتام، والركض المحموم بالشعور وغير الشعور نحو المجهول، داخل هذه الزحمة المتكاثرة للبشر، وتحت إرهاب وصواعق الصراعات المذهبية الإلحادية واللادينية الشرسة، في مثل هذه «الحضارة العلمية الدنيوية» الماردة بأدواتها الضخمة والدقيقة، والسريعة الاندفاع بنزواتها وغبائها نحو الفناء.. اليوم.. أصبح المؤمنون بالله – عربًا وغير عرب – يواجهون التحدي المباشر لما يمكن أن نسميه «عقيدة العلم».. أو الإيمان دون الله بدين العلم.. أي الدين الذي لا آخرة له إلا التسلط بأكاذيب القوة، والصراع على سيادة العالم، وسرقة موارده. وإبادة شعوبه، من أجل الشذوذ والمتاع، وامتصاص الموارد المسروقة حتى آخر لحظة في جنة الدنيا..!

والأوربيون أنفسهم ظهر منهم أخيرًا من يرى رأي المسلمين في مصير هذه الحضارة الدنيوية المتجبرة بأدواتها، والتي تدفع بالعلم ليأثم، لا ليحسن بحركته بين الناس، طائشًا بغير إيمان، ومروعًا بغير آخرة. لقد ظهر منهم من رفعوا أصواتهم الجازعة بالتحذير مما سيجره على الإنسان علم جامح بغير قيادة. وهي أصوات ارتفعت خافتة منذ القرن التاسع عشر ثم أخذت تتعالى حتى اليوم، متصاعدة بقدر ما أخذ الإنسان الأوربي والأمريكي يشعر - كما يقول المؤرخ الأمريكي جفري براون «بأن العلم قد بدأ يقذف بالإنسانية في منحدر وعر لا يعرف مداه..».

وجاءت نظرية النسبية بعد ذلك كما صاغها اليهودي أينشتين لتضع الأوروبيين الذين آمنوا بدين العلم، وربطوا مستقبلهم ومصيرهم على هذه الأرض بإله واحد هو «العلم» وملكوت واحد هو الصناعة والتقنية - أمام طريق مسدود، وذلك عندما أراد أن ينقلهم إلى اليقين بأن «الشيء المحس، الذي تراه العين، وتلمسه اليد، مثل المنضدة في غرفة مثلًا، أو القمر في السماء، إنما هو وهم غليظ»!! وفي كتاب «ألف باء النسبية» الذي وضعه العالم الرياضي الإنجليزي برنراند رسل، الشهير وتشاؤمه وقلقه يحاول أن ينفض ذعره وقلقه على المعاصرين له وهو يؤكد لهم في شرح الألغوزة النسبية الصهيونية لأينشتين أن «عناصر الوجود المحسة، وقوانين الطبيعة العلمية، هي في حالة «روغان» مستمر أمام الحواس، بحيث يتلاشى إمكان وجود حكم قطعي بالنسبة لحركة الأشياء، والقوانين التي تتحرك بها الأشياء، بل ووجود هذه الأشياء نفسها، مثل وجود المنضدة التي تلمسها، أو القمر الذي تنظر إليه، فكل يخضع لأنماط متغيرة، وأساليب متقلبة»!!!

على هذا «الروغان» الذي وضع فيه أينشتين وتلامذته ومعاصروه عالمهم الحائر بالعلم في فتنة الشك في صحة وجود أي شيء، حتى ما تلمسه بيدك، وفي صحة أي قانون علمي تبعًا لذلك، نشط عدد من الأوربيين بعد إفاقتهم من صدمة هذه «الشعوذة» الحالمة بهدم كل شيء حتى سنن الله في الخلق كما يكشف عنها العالم - لكي يثيروا الأمل مرة أخرى في إمكان العودة إلى الدين.. وغلى محاولة تطويع وترويض هذا العلم بالإيمان. نذكر من هؤلاء العالم الألماني باسبرز الذي أخذ يحتج في كتبه على صانعي البيئة الإلحادية المتمردة على الدين في الحضارة المعاصرة، وحيث أصبح الإنسان في جوف خرافة «التقدم العلمي» بغير أمان، وفي غيبوبته بعقده النفسية، وبضوضاء وسرعة الحياة الآلية الوحشية، يتصور أنه هو «الله» في نظر نفسه.. !

يقول ياسبرز في كتابه «العقل والوجود»:

«إنه في عالم محروم من الله ظهر كارل ماركس نبيًا، واتخذ القوالب التي يستطيع هذا العالم أن يفتتع بها، أو أن يهلل لها، ونصب كارل ماركس نفسه مبشرًا بعلم ليس هو بالعلم، وحاكمًا بأمره لا يتكلم باسم الله!».

ويقول ياسبرز في كتابه الآخر «مستقبل الإنسانية» من كلام تشهد على صحته أحداث هذه الأيام، وذلك حيث يجدد تحذيره للعالم من علم بغير إيمان:

«إن مجرى التاريخ جعلنا نحن الأوربيين ننتقل من عصر اتسم برضا سكان المدن والتقدم والثقافة إلى عصر حروب جديدة، وقتل جماعي، بينما تقوم جماهير جديدة وباستمرار لتعيش عصر تهديد مفزع؛ حيث

يخمد كل معنى من معاني الإنساني في دوامة هدامة، وحيث يبدو الاضحلال وقد جر معه الأشياء جميعًا»!!

الدنيوي والأخروي:

ومن هنا نعود مرة أخرى إلى غايتنا من الاستشهاد بالقرآن الكريم على ما اجتمع للعلم في لغته العربية المبينة من دلالته المتكاملة على الدنيوي والأخروي، بهذا التوحد الذي عاش به الإنسان العربي المؤمن، وأشرقت به الحضارة العربية الإسلامية، يعبران عبر العصور وملء آفاق الأرض عما اجتباهما الله به وله من نعمته الكبرى بالعلم والإيمان.

في هذه الحياة السوية والرضية بوحدة العلم والإيمان، ووحدة العمل والغاية، لم يكن هذا العلم الموحد والمتكامل في حياة الشعوب العربية المؤمنة «علمًا سريًا» خاصًا تعيش برموزه وألغازه طبقة غامضة شرهة ومستعلية من الفلاسفة والكهان.. ولم يكن كذلك – ولن يكون حكرًا على المترفين في القصور.. أو المتعاملين في المدن.. إنه علم متحرر المصادر من أي سلطة، لأن مصادرة الغنية بغير حصر هي ملكوت السموات والأرض، المتاح بالنظر إليه أو تفكير فيه للجميع..

إن هذا العلم المتكامل بدلالته عن الدنيوي والأخروي هو في القرآن الكريم وبشهادته علم الإنسان السوي الفطرة، اليقظ الحواس، المبين اللسان.. إنه في العلم لكل من يهتدي إليه في آيات الكون المرسلة، ومن يهتدي به في آيات الكتاب المرتلة، مشرقًا في وعي الإنسان وعقله وقلبه، لكي يمتد به في سعيه وعمله وجهاده، عابرًا به إلى حياته الأخرى – حيث ينحل متصل الزمان والمكان – إلى حياة آمنة خالدة بغير خوف أو صراع، في ظل ظليل، وأمن أمين، وعز عزيز.. ورضوان الله أكبر..

في هذا العلم الذي ينفع الله به أهل الفطرة السوية، واللغة المبينة، تظهر حكمة الله في خلق الأشياء، كما أوحى الله بها في مفهوم العلم الواسع في القرآن الكريم، ذات دلالتين واضحتين متكاملتين:

الدلالة الأولى – يظهر بها العلم مرتبطاً بالإنسان على أساس ما يصلحه في سعيه القريب في دنياه، وحيث تظهر الأشياء لحواسه في صورة من «القوانين العرضية» التي تحفزه على الإحساس بأن كل الأشياء مسخرة برحمة الله له، ولتكون هذه الأشياء في أقرب وأفضل الأحوال الملائمة لأول مراحله نحو العلم عونًا له على صحة ابتلائه في دنياه بتدبره واختياره وعمله..

وأما الدلالة الأخرى فتتجرد بها الحقيقة العلمية من ظروف وأعراض حياة هذه الإنسان، المستقر بحركته على الأرض، لتسفر هذه الحقيقة عن علم أكثر شمولًا في نسبية ما يراه في الواقع من حركة هذا الخلق الواسع في ملكوت السموات والأرض، ومن دلالة هذا العلم الأشمل على ما أراده الله من حكمته في خلقه، وعلى ما أودعه الله في هذا الخلق من سنن ومتغيرات الانطلاق على غايته.. ومعه الإنسان.

إن العلم بهاتين الدلالتين كما أوضحهما القرآن الكريم شرط وعلامة على صحة تدبر آياته، ووعى حكمة الله به، الأمر الذي لا يتوافر لغير المعربين بلغتهم وعقولهم، والمبينين ببيانهم وإيمانهم. ومن أجل ذلك فقد كانت «الشهاب» المدعاة في كتب بعض المستشرقين على تناقض القرآن الكريم مع العلم الحديث في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ هي من حصاد العجمة في الألسنة والعقول، هذه العجمة التي تقف حائلًا بينهم، مع تعدد وجوهها وأبعادها، وبين الواعي المستنير لحكمة الله البالغة علمًا وخلقًا وأمنًا وهدى في كتاب الله المبين..

الدائم والزائل:

حول «بسط الأرض» في بعض آيات القرآن الكريم مع أنها «كروية» كما أثبت العلم الحديث بكل وسائل الإثبات تظهر هذه «الثغرة» الوهمية أمام قصار النظر ليحاولوا التشكيك في الركائز العلمية للقرآن الذي هو وحي الله مبدع الخلق، ومبدع سننه وقوانينه. هذا التشكيك الذي أصبح السلوى الخائبة لعدد كبير من تلامذة الشيوعية في بلادها، من بين العرب الذين اعتنقوها غباء وعجمة وجهلًا، ونزلوا على إرادتها وأهدافها ودعاياتها وهم يترصدون للوافدين العرب على تلك الدول الشيوعية الأوربية ليحاولوا بأرخص الوسائل، وأتفه الحجج، اجتذابهم عن الدين والإيمان إلى الشيوعية والإلحاد، والتركيز كله على ﴿ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ..﴾ في حين هي كروية.. كما يؤكد العلم!!

ولقد واجهت في بعض لقاءاتي مع هذا النوع «الجابوني» من الشيوعيين المنتمين إلى العرب في بعض الأقطار الأوربية الشيوعية التي زرتها مع وفود شعبية وعلمية – كثيرًا من العجائب المسلية، والأليمة في نفس الوقت، في المواقف الدعائية الحماسية لهؤلاء القردة المهاجمين بتوقح لكمال القرآن العلمي، ثم في المهانة العقلية، وجفاف الريق، وزيغ الأبصار، التي كانوا يرتدون ويتهاوون إليها سراعًا بعد قليل من الجدل العلمي بالقرآن وآياته، مما لم يكونوا يحسبون له أي حساب..

لقد سبق القرآن الكريم بأكثر من أربعة عشر قرنًا هذه الإشارات العجماء والقاصرة بروغانها في نظرية النسبية.. هذه الإشارات إلى «القوانين العرضية» باتجاه التنبيه إلى القوانين العلمية الأكثر ثباتًا، وذلك لحفظ توازن الإنسان بين ما هو ضروري لحياته اليومية، وإن لم يكن دقيقًا تمامًا

من الناحية العلمية، وبين ما يفتح الطريق أمامه إلى علوم أكثر ثباتًا وأطول مدى..

إن القرآن الكريم قد سبق بأكثر من أربعة عشر قرنًا فجمع بين طرفي هذه الحقيقة العلمية الكبرى فيما تدل عليه بلغته المبنية، وبيانه الخالد، بين الدنيوي والأخروي... بين البشري والإلهي... بين الزائل والدائم.. في حياة هذا الإنسان في كل زمان ومكان، وحتى يعبر مرحلة الزمان والمكان..

وهكذا.. بهاتين الدلالتين معًا تكلم القرآن الكريم إلى هذا الإنسان العربي المستبين – فيما تكلم إليه عنه آياته التي سخرها بحكمته له، عن آية منها في هذه الأرض التي يعيش حياة ابتلائه العظيم عليها.. الأرض التي يراها في رحمة الله «مبسوطة» بين يديه، في حين هي في الحقيقة العلمية الأبعد مدى من حواسه والقابلة لإدراكه بهداية عقله، وكما يعلن الله له في كثير من الآيات الأخرى – قبل العلم الحديث الذي هو أحد هبات الحضارة القرآنية لمتحضري اليوم بقرون طويلة – فأن هذه الأرض المبسوطة هي «كروية» و «دائمة الحركة» حول الشمس... وإلى غايات أبعد.. من العلم المؤمن، الذي يعبر به هذا الإنسان السوي طريقه – بعد عمارة الأرض بالعدل والرخاء والسلام – إلى حياة أبقى بعد هذه الحياة، وإلى علم أكثر في قربه الأقرب إلى الله..

في هذا العلم بدلالتيه يقول الله للمدعوين المبينين بكتابه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: 19]، ويقول سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨] ويقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا﴾ [الرعد: 3].

إن صورة هذه الأرض المبسوطة والمفروشة والممتدة أمام عين الإنسان وتحت أقدامه.. هذه الأرض المستقرة بالرواسي فلا تهتز ولا تضطرب في دائرة حواس هذا الإنسان وحركته، هي حقيقة علمية أولية وضرورية من حيث إنها تحمل دلالتها في مجموع وحدة العلم على هذا المشد الزائل للأرض بالنسبة للباقي بعدها. ذلك أن هذا الإنسان كان ولا يزال برغم تقدمه العلمي، وبعد رؤيته وراء الظواهر المبسوطة أمامه – يرى نفسه بمشيئة الله ورحمته – إن كان مؤمنًا – يتحرك فوق المنبسط والممتد من هذه الأرض، التي يصحو وينام فوقها، بما يصلح قرارًا لعيشته وأمنه، وحافزًا لنشاطه وطموحه..

ثم نقول.. فإذا تصورنا ارتفاع رحمة الله عن هذا الإنسان فرأى هذه الأرض كما هي في حقيقتها الأبعد وراء حواسه «كرة» هائلة يتسلق بوهنه جوانبها، في حين هي كما يحسها تركض به مارقة كالسهم في الفضاء، وإذ يقرع أذنيه بما يروعه، وما يذهل به عنه نفسه، هذا الدوى الصاعق الذي يسقط على سمعه قادمًا إليه من هذه الانفجارات الهيدروجينية الدائمة في السمش، هذا بالإضافة إلى ما يصل إليه على كل الطرق المفتوحة على سمعه وبصره من أصوات ما يجري في باطن من هدير أبخرة نيرانها، وما يهيج على ظهرها من زئير حيواناتها، وعصف رياحها.. لو تصورنا كل ذلك يصيب الإنسان لو أنه واجه – بعيدًا عما شاءه الله من رحمته به – حياته على الأرض دون هذا التدرج بحواسه وعقله بين علمه الضروري بالزائل، وعلمه الممكن بالدائم.. علمه الذي يأتي بعد التفكر والتدبر في حماية هذا الأمن الحسي بصورة الأرض مبسوطة ومفروشة وممتدة.. لو تصورنا حقًا كل ما يمكن أن يصيب هذا الإنسان، المغترب والمنصعق أمام حقيقة علمية تسبق التمهيد والتمكين له.. فهل كان من الممكن أن يكون هذا

الإنسان «إنسانًا» يأنس لشيء، أو يفهم عن شيء.. بل هل كان في وسعه قبل كل شيء أن يحيا ساعات على هذه الأرض دون أن يتمزق رعبًا، ويتلاشى هباء.. وهو الذي «امتدت» له الحياة «مبسوطة» و «آمنة» ليعيش عليها هذه الدهور وهو ينظر ويتفكر، ويتعلم ويتطور، ماضيًا بعلمه بين الحق والباطل، والهدى والضلال، حتى يبلغ من علمه حد ألا يعلم بعد علم شيئًا..!

إنه بدلًا من هذا «المخدر» الذي يتعاطاه اليوم رائد الفضاء حتى يحتمل نقلته من الحياة داخل الغلاف الجوي للأرض إلى ما بعدها باتجاه القمر والزهرة والمريخ، فإن القرآن الكريم يقص علينا في آياته ظواهر وقوانين هذا العلم الذي هيأ الله به للإنسان هذا المناخ الملائم لتطور حياته وفكره وعقله.. مناخ «التهدئة» الذي حقق له به في واسع رحمته، وكمال حكمته، هذا «التوازن» الفريد وسط ظروفه مهما تنوعت، لكي يتحرك مفتوح العينين، مرهف السمع، يقظ الحواس والفطرة، دائب الطموح والأمل، قادرًا على التفكر والتعقل، نشطًا إلى تحقيق هذا الاتساق الملهم بينه وبين آيات الله المحيطة به، فوق أرض مطمئنة له، مبسوطة في ظاهرها أمامه، وتحت سماء مزدانة له بمصابيحها ونجومها، ليسعى في ضوئها، وليهتدي في ليله بها، وهي تطلع عليه وتغيب، دون ملل أو احتجاب، أو خطأ في الوجهة والحساب.

ومع هذا المناخ الصحي لحركة الإنسان، والمهدئ لفكره وحواسه، فوق هذا المستقر الموقوت والزائل على الأرض، فإن الله برحمته وحكمته يمنحه القدرة بهذه التهدئة لظواهر ما يراه على أن يكشف بعقله وبصيرته علمًا آخر وراء ما يجري أمام عينيه.. علمًا أشمل في دلالته، وأبعد في إشارته.. علمًا يوقظه ويذكره بهذا الأخروي وراء الغيب بعد هذا الدنيوي

ملء العين.. بهذا الخالد والدائم الذي لا يزول بعد هذا المتغير والفاني الذي سوف يزول..

يقول الله في أن الأرض كروية بعد أن استوفى الحكمة من كونها مبسوطة: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:30] أي كروها على شكل الدحية أي البيضة.

ويقول في كرويتها أيضًا: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر:5]. فلو كانت مبسوطة في حقيقتها العلمية الأبعد شوطًا عن مجال الحكم بالحواس البشرية لسقطت عليها أشعة الشمس مرة واحدة في نهار واحد سرمدي لا يتكور أبدًا.. إذن فتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل يقطع بكروية الأرض، بل وبدورانها..

ويقول سبحانه في حركة ودوران هذه الأرض الكروية: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:15] وكيف تميد الأرض بأهلها ما لم تكن تتحرك، بل وتسرع في الحركة؟!

ويقول سبحانه في دوران الأرض في فلك مع الشمس والقمر: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:40].

ويقول سبحانه في هذا المعنى أيضًا: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس:38].. فإذا كانت الشمس مع سبحها تجري لمستقر لها، أي إلى غاية بعيدة تستقر عندها في نهاية رحلتها بعد هذه الحياة الدنيا، فهي تجري ولاشك والقمر معها، والأرض معهما.. وإلا لانسلخ الليل من النهار، وعن النهار، ولم يعودوا يلتقيان ولا يتتابعان في يوم

الأرض هنا وهناك.. وهذا ما لم يقع بعد.. ولابد من وقوعه يومًا ما لا يزال في غيب الله، مع اليقين به عند المؤمنين والعلماء، وذلك من رحمة الله في مناخ «التهدئة» الصحي لحياة الإنسان وسعيه، ولنشاط طموحه وأمله..

هذا إذن هو العلم في القرآن الكريم كما استعنت بالدلالة على كماله ووحدة طرفيه بين الدنيوي والأخروي هذه اللغة العربية المبينة، وهي تقود عقل وقلب وإرادة هذا الإنسان العربي المؤمن والمستبين راجيًا راضيًا آمنًا إلى ما وراء هذا المشهود المحس، والظاهر الزائل، وهو يسعى سباقًا في مواكب وأجيال المؤمنين الصادقين، والعلماء الراسخين، إلى ما وعدهم الله به من حسن ثواب الآخرة، وهو سبحانه القائل عن هؤلاء المؤمنين العاملين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة:22].



القسم الثالث

العقل العربي
على خريطـة مناهج التفكيـر

الفصل الأول

خريطة مناهج التفكير في العالم

والعوامل التي اختلفت بها هذه المناهج



الإنسان المؤمن الأول:

منذ سار الإنسان الأول على سطح هذه الأرض، السطح الذي رآه بمشيئة الله ورحمته منبسطًا وهو متكور، وأحس به ساكنًا وهو متحرك، أتيحت له في مرحلة هذا الابتلاء له على هذه الأرض، وتحت هذه السماء، فرصة أن يتحرك بفطرته مدفوعًا مع غيره من الكائنات الحية بقانون حفظ الذات، ومعه قانون حفظ النوع، مع دوام البحث عن الأمان في سعيه، والتحري للتكيف والتوازن مع الواقع المحيط به، سواء بالتأثير فيه، أو بالتأثر به، في حين هو يمد سمعه وبصره إلى أقصى ما يملك، بين كل ما سخره الله له – برغم مخاطره – من موارد الأرض والسماء، متسمعًا للهواتف، وباحثًا عن الحاجات، ومتعلمًا بتجاربه المريرة والحلوة ما لم يكن يعلم....

في تلك الأيام الأولى، وقبل أن يتكاثر الإنسان فيملأ الأرض لم يكن قد انتهى من كثرة ما كابد من المشقات، من "تلخيص " الكون المحيط به تلخيصًا لغويًا بأصواته، وتحت الكلمات والأسماء التي علمها الله له، وأودعها من أول الخلق في فطرته.

لم يكن هذا الإنسان الجوال ، المروَّع، قد استكمل لغته، أو اختراع الكتابة لهذه اللغة.. لم يكن قد بني بيتًا من أشجار الغابة أو أحجار الجبل، أو أقام لأبنائه على سطح الأرض مدرسة.. في تلك الأيام الأولى كان كل ما يستطيع أن يراه بعينيه، أو أن يسمعه بأذنيه، أو أن يتصوره بفكره تحت قبة السموات، وفوق أديم الأرض، ونحو أضواء الأفق، هو مدرسته، وأن الله الذي آمن به منذ أبيه آدم هو مرشده، وأن عليه أن يتقبل الابتلاء بعد الجنة التي خرج منها، ليعمر هذه الأرض بالخوف من الله، والإقبال

عليه ، والاستهداء به، ليزداد علمًا وعدلاً وأمنًا ، وهو يشق طريقه المفتوح وراء الغيب باتجاه هذه الجنة ليعود إليها...

لقد اكتشف من أول الأمر – قبل أن يغفل عن ربه فيتدهور في أهوائه وأطماعه – أن أشعة الواقع الحي، ونسماته ، وكلماته، تنفذ إليه من جدران ونوافذ "غرفة نفسه" لتضئ كل ما بداخله من حقائق ، ومعان، وكلمات، ورموز، تلتقي وتتقابل مع هذا الواقع، وبذلك كان يدرك وحدة هذا التلاقي والتناظر والتفاعل بين قوانين هذه الأرض التي خرج من ترابها ومائها بالخلق والحياة، وبين الأمل الظاهر أمامه في أن يسودها بالعقل والعلم، وأن ينجو من مخاطرها بالصدق والإيمان.

ولقد وضح له بمتابعة التفكر، وإرهاف السمع، ومد البصر إلى بعيد، أن هذا البحر الزاهر من حركة الأشياء في أصواتها، ومشاهدها، ومتغيراتها كان ينعكس دائماً على مرآه فكره اليقظ على ثلاث مرايا، يرى عليها الشيء الواحد من حوله في ثلاث صور في نفسه أو فكره.. إنه يرى الشيء بداخله كما هو.. ثم يراه أيضًا كما كان.. ثم يراه بجانب ذلك كما سوف يكون. لقد دخلت إذن حركة الزمان ونسبتها إلى فكره، بقدر ما اختزنه من ملخصات واقعه من المعاني والكلمات ، لكي يستكمل بحركة الزمان وحركة المكان ونسبتهما معًا أداة تفكيره، ولكي ينمي هذا الوعي التفكيري حالة الصحة لعقله، وذلك في ضوء سلامة قيادة الإيمان لهذا الوعي والتفكير..

ويمضى الإنسان الأول المؤمن في ضوء تفكيره النامي داخل صروح الأرض، وتحت قباب السماء، يمتحن رتوقها وفتوقها، وهو يمد يده إلى الأشياء القريبة منه فيكتشف "العلاقة"، ويمد سمعه وبصره إلى الأشياء البعيدة عنه فيكتشف "المجال"، وينفذ بفكره المستطلع إلى كنه

الأشياء الغريبة عليه فيكتشف "الاتساق" . ومن العلاقة والمجال والاتساق اكتشف ما أمكن تعميمه من ظواهر الطبيعة بغير استثناء، أي إنه اكتشف بذلك أول قوانينها وهو يسجل من غير ضجة أول اللبنات في صرح العلم.

ثم يمضي هذا الإنسان المؤمن في ضوء ما أدركه من الاتساق في الكون، وما كشف عنه من أول قوانين العلم، فيفتض مساحة أكبر من حصانات الطبيعة وأسرارها، وهو يلمح بإنبهار وخشوع هذا التوازن الدائم بين كل مشيدات الخلق في وحداتها ومركباتها. لقد أخذ هذا الإنسان المتحرك بغير أنيس سوى رؤيته العقلية يرى كل أبنية الحياة، وتدفقات العناصر، وتراكمات الجوامد، تنشأ وتتكامل ، ثم تنتفض وتنحل ، عابرة جسر الموت أو الانهيار، لتعود فتنشأ بنضارة الحياة من جديد، دون أن تلمح عينه في هذا الموكب الزاخر بالخلق والتغير، والبزوغ والأفوال، والبدء والإعادة أية لبنة تنشز أو تسقط، أو يبقى مكانها من بعدها شاغرًا في صحوة البناء المتكامل، أو رجعة الانحلال الشامل. لقد وقع في يقينه وهو "يرجع البصر" في معطيات الخلق، ومشاهد السماء والأرض، وحركة الأشياء في حواراتها ومتغيراتها، أنه ليس هنا أو هناك على مرمى بصره، أو وراء خياله، أي "تفاوت" أو "اختلال" أو فطور..

إن بصيرته في عقله وقلبه أخذت تلمح في مسرى الأشياء قانونًا أعظم من كل القوانين.. قانونًا لا تتصادم به القوانين .. إنه القانون الذي يكون به كل شيء متى ينبغي له أن يكون، وحيث ينبغي له أن يكون كما ينبغي له أن يكون.. إن بصيرته تلمح العدل في كل شيء.. ومن وراء العدل تكتشف البرهان الحسي على الله..

بهذا التدرج في إدراك اتساق الواقع إلى أبعد مدى من الشمول، ومع التوازن معه في الحركة والاستجلاء والاستهداف، تحدد للإنسان الذي صحت فطرته، وصح عقله ثمرة لصحة منهج تفكيره، جوابه الصحيح باتجاه الإيمان بالله، واليقين بصحة هذا الإيمان بالله الواحد الأحد، واهب الحياة، ومالك الملكوت ، الخالق المدبر، والآمر المطاع، والرحمن الرحيم.

اختلاف مناهج التفكير:

لقد كان مثل هذا الإنسان الفطري، المتحرك في أول الزمان بحواسه السليمة في أوسع مجال للحركة والرؤية، خليقاً بأن يهتدي إلى برهانه الحسي واليقيني على الله، أعظم وأقوى من اهتدائه إليه بمجرد وصية الآباء، لكي تصبح عقيدته بهذا البرهان هي الدين الحق، والدين القيم ، والإسلام الخالص.

ولكن على رقعة الأرض المختلفة المناخ والموارد والمواقع، بين الحر والبرد ، وبين الخصب والجدب، وبين العزلة والزحام، لم يكن في وسع الإنسان وهو يتكاثر إلى شعوب وأمم هنا وهناك أن يلقى الطبيعة والواقع والأشياء بمنهج واحد من التفكير.

لقد اختلف المناخ والخصب والموقع على سطح الأرض فاختلفت خريطتها الجغرافية والاقتصادية بالقدر الذي اختلفت به علاقات الإنسان وتوازناته في كل بقعة متميزة على هذه الخريطة، وذلك من حيث الحركة والاستقرار ومن حيث الأمن والخوف، والحاجة والكفاية، ونتيجة لهذا اختلفت آثار هذه العلاقات على تشكيل عقيدة الإنسان وعمله، وتحديد غاياته وطموحه ، وفرض أنواع حكوماته ونظمه..

إن الصحراء الملتهبة الرمال، الموحشة البداء، والتي يشح فيها الماء فلا تتوقف فوقها الحركة طلبًا لمنابعه، هي غير أحواض الأنهار الخصبة الظليلة، وغابات خط الاستواء تحت سمائها المنهمرة، وهما معًا غير جبال الشمال الجليدي، وغاباته التي تحاصرها الثلوج، وتكتنفها الظلمة، ويقسو عليها الجدب..

لقد اختلف المناخ وعوامل البيئة الأخرى بين رقعة وأخرى على سطح الأرض ، وبهذا الاختلاف انعكست قوانين الطبيعة متباينة التأثير على هذا السطح الكروي الدائب التغير في تأثره بالشمس والمطر والرياح، بما يمتد تأثيره على توزيع الإنسان والحيوان والنباتات فوق بقاع الأرض المتباينة، مع امتداد هذا التأثير على خصائص الإنسان البدنية والفكرية والنفسية واللغوية ، بل وعلى لون بشرته، ونوع أطعمته، وأخيرًا على نظمه ومعتقداته..

وهكذا كان من المحقق – بما يدركه المؤمنون من حكمة الخالق – أن إنسان القطب المتجمد شمالاً أو جنوبًا ليس في انعكاس آثار بيئته على صور وأهداف حياته هو كإنسان المناطق الحارة الاستوائية في آسيا وإفريقية، أو هو كإنسان البادية الجدباء في جزيرة العرب، مع ضياء آفاقها، وندرة مائها، ومتعة ساكنيها..

إن الإنسان المعاصر في جانب واحد من جوانب تقدمه قد استطاع أن يسجل الكثير من هذه الخرائط الإحصائية والبيانية ، في مجالات الاقتصاد المتنوعة، وأنواع الموارد ، وأنواع الأعمال، وأعداد السكان، وخصائص الطبيعة من الرياح والأمطار والزلازل والبراكين، وحتى في الدراسات النفسية والإنسانية سجل الخرائط والإحصاءات حول توزيع الأفكار والأديان والمذاهب السياسية، والتي هي كلها من آثار اختلاف

المواقع الجغرافية والمناخية. ولكنه حتى الآن لا يزال عاجزًا عن اقتحام العقبة أمام حتمية الاستهداء والاسترشاد بهذه الخريطة الجغرافية المنتظرة، والتي تحدد بالأمانة العلمية والصدق هذه العلاقة القانونية بين البيئة بكل مؤثراتها الطبيعية والبشرية والزمنية على تكوين عقل الإنسان، وتحديد منهج تفكيره، مرتبطاً ذلك في نفس الوقت بخصائص لغته، ووجهة تفسيره للحياة في دينه وعقيدته.

ولكن في ضوء الواقع المتجدد بقوانينه الثابتة كيف تنتظر أن تتقدم الدول القوية المعاصرة فتضح بأمانة العلم، وشرف الغاية، ما لا علم لها به من هذه الخرائط الصحيحة لمناهج التفكير، أو أن تقبل بهذه الخرائط إذا ما وضعها من يربط صحة العقل بصحة الإيمان ، ومن يربط درجات التقدم الإنساني والأخلاقي بين الشعوب بما يصدر عنها وعن دولها من العدل وليس الظلم، ومن الصدق وليس التزييف، ومن السلام وليس العدوان، ومن يقول إن الصحراء العربية التي هي بيت الآيات المشرقات، ومهد الرسالات الهادية هي بيئة المناخ الصالح لمنهج التفكير العلمي، ونشأة العقل الديني، وإشراق العمران الإنساني..؟

إن مثل الشيوعية في غلوائها، والرأسمالية في أهوائها لا تملك في خضم أخطائها وخطاياها أن تميل برأسها نحو هذا الاتجاه الذي يدين مناهج تفكيرها، وجذور بغيها، وكواذب شعاراتها ، وهي تتفلسف وتفكر وهي تقفز تحت الضباب، وفوق الجليد، أو وراءهما بجوار المدافئ، في العدوان الذي يملكه الملوك والأمراء والدوقات على من تحت ليسلبوهم الحرية، وثمار العمل، ويستمتعوا ويفجروا فوق أنقاضهم، ثم في العدوان أبعد من ذلك على من يملكون هناك حول الساحل الجنوبي والشرقي للبحر الأبيض نعمة الدفء والخبز والمتاع.. إنه يفكر في إسار

الجوع والجليد هذا التفكير الغريزي العدواني الضيق في حين لا يخجل فيفخر بهذا الفكر التجريدي السطحي غير العلمي، والاستبطاني غير الواقعي، والطبقي غير الجماعي، والعدواني غير السلمي..

هذا غير الطبيعة التي فرضت على قاطنها مع وفرة الخصب وسط حرارتها الشديدة، وتحت أمطارها الدائمة، أن يسترخى من شدة الحر، وأن يتوقف عن العمل من وفرة الخصب، وأن تتملكه الأساطير في ظلمات الغابات، فهو يفلسف استرخاءه واستغناءه عن العمل بأنه لا حاجة إلى العقل، فالعقل عنده وهم، مستغرقًا بعد هذه المقدمة في شخوصه الباطني باتجاه الفناء والعدم أو "النيرفانا" إلى أن تتحقق له الخوارق بهذا الفناء العقلي والبدني، أو أن يتحقق له في وهمه هذا الاتحاد مع الروح الأعلى الذي يعبده وهو يرهمن بالغًا إلى هذه الغاية الخرافية إلى جوار حياة الترف الباذخ للملوك والمهراجات يفكر لا فكر فيه، وإنسانية خاوية لا إنسان بها !!.

هذه المناهج الأساسية للتفكير على خريطة الأرض الجغرافية والبيئة يمكن أن نعيد صياغتها على الوجه التالي:

أولاً- المناهج المهيأة لصحة التلقي والتقبل لدين الله ورسالاته، وقد ظهرت على أرض العرب منذ رسل الله آدم ونوح وحتى إبراهيم وإسماعيل وموسى وعيسى ومحمد، وحيث لا يزال الوطن العربي هو القلب المضيء والعقل المفتوح لتقبل وتجديد الإيمان والعمل بهذه الرسالات من مصادرها الباقية إلى الآن في محكم القرآن المبين، وأسوة الرسول الأمين.

ثانيًا – مناهج الفكر الفلسفي كما ظهرت ولا تزال تظهر في تعاقب ظنونها منذ القرن الخامس قبل الميلاد في بلاد اليونان، والتي انتهت

بالعلم المتقدم اليوم إلى هذا الصراع الظاهر والخفي على سيادة الشعوب، وسرقة مواردها، بين القوى الشيوعية والرأسمالية..

ثالثًا- مناهج هذه الشخوصية الاستبطانية، والحلولية العدمية بمفهومها الهندي، والتي عاشت في صورها السلبية الفينائية المتعاظمة على الحركة والعقل، والبالغة التركيز على العدوان على مقومات الإنسان السليم في صحة بدنه، وعقله، لتصنع السلام فقط تجاه الحيوانات والحشرات التي تتأثم بقتلها إن روح برهمن حل فيها.

الخريطة الجغرافية للأفكار:

لا شك أن أية دراسة علمية وتاريخية شاملة لحياة الجنس البشري تعني بتسجيل جميع المؤثرات على شكل واتجاه عقيدته، وخصائص لغته، ستكشف لنا في بدايتها عن هذه الحقيقة البسيطة وهي أنه منذ اليوم الأول للإنسان على هذه الأرض فإن علاقته بالطبيعة المحيطة به مهما تعددت أنواعها أخذت شكل الإجابة المستمرة عن هذين السؤالين:

السؤال الأول: ماذا بالطبيعة المحيطة به من الأمن لجسده .. أي ماذا بها من الغذاء والكساء والرخاء؟

السؤال الآخر: ماذا بهذه الطبيعة المحيطة به من الأمن لفكره وعقله.. أي ماذا بها من التفسير العلمي لما يحيط له.. التفسير الموجه لعقيدته والمرشد لسلوكه؟

إذن فالأمن السابغ لجسم الإنسان الذي هو بيت حركته، والأمن المضيء لعقله الذي هو بيت عقيدته، هما محور علاقة الإنسان في أي مكان وزمان بالطبيعة وحركتها ومؤثراتها المحيطة به.

ولقد شاء الله فتحددت على الخريطة الجغرافية والمناخية للأرض ثلاثة مناهج أساسية أصلية لأفكار ومعتقدات الإنسان نتيجة هذه العلاقات والمؤثرات البيئية على حواس الإنسان وفكره وحركته وغابته، في جميع عصور التاريخ البشري وإلى اليوم، وهذه المناهج المتباينة على سطح الأرض وفق هذا القانون الذي لم يشأ به أن يكون الناس في حكمته "أمة واحدة" – هي كما يلي:

أولاً- الطبيعة التي فرضت على قاطنها بجدبها وأضوائها وقلة مائها وحريته الكاملة بها ألا يتوقف في سعيه فوقها عن الحركة والتفكر بين أرضها وسمائها، ليكتشف باتساق ما خوله برهانه على الله، فيؤمن به، ويعتز، ويعتز بحياته في طاعته، وهو بإيمانه وسط آيات الله الحية من حوله يتحصن بفكره العلمي واليقيني عن أي وهم فلسفي، حفاظًا مع إيمانه على خلقه السلمي غير العدواني، والواقعي غير الأسطوري، والجماعي غير الطبقي.

ثانياً- الطبيعة التي فرضت على قاطنها بجدبها وجليدها وظلماتها أن يملكه الشك والخوف، وأن تثقل عليه الحركة والرؤية، وأن يشتد به الخيال الجائع والشريد وراء الدفء والمتاع، فيكتب الأساطير والفلسفات، وهو يخطط ويدبر باتجاه أرض الدفء والقمح والكروم، ليغزو ويتوسع.. باتجاه أرض العرب..

ثالثًا- الطبيعة التي فرضت على سكانها عند خط الاستواء وسط ظلام الغابات، وانهمار الأمطار، ووفرة الرخاء، هذا الميل إلى الاسترخاء، والانصراف عن العمل، والاستغناء عن التفكير بالغوص في أوهام السحر والأساطير.

وهكذا بالأمس البعيد ، والأمس القريب، وحتى اليوم، لا تزال هذه المؤثرات الجغرافية والمناخية تشكل مناهج التفكير بين البشر وفق هذه الاتجاهات الأساسية والأصلية التي أوجزنا بيانها وهي البيئة المهيأة لتقبل الدين الحق، إيمانًا به ودعوة إليه، والأخرى المهيأة لفلسفة الحلول وطرح العقل والعمل، والثالثة المتقلبة في فلسفات العدوان والشذوذ والصراع، ومعنى ذلك أن الأمة العربية في صحوتها المعاصرة تملك- كما ملكت من قبل – وبعيدًا عن أي شكل من أشكال التفلسف، أن تستعيد مقوماتها الأصلية من اللغة الفصحى، ومن الدين الحق، متوجهة إلى أعظم غاياتها ببناء المجتمع المؤمن على ركائز العلم والإيمان ، والسواسية والعدل، والرخاء والسلام،

الفصل الثاني

فوق الأنعام وبين الآفاق والآيات

أضاء العرب برهانهم الحق على الله



نعم يقص علينا القرآن الكريم من أخبار الماضي القريب في مشرق الإسلام بالدعوة الخاتمة، حياة هذا الإنسان العربي قبيل الدعوة سيرًا فوق إبله بين آفاق الأرض، وآيات السموات. لقد كانت الإبل يومذاك نعمة وآية من الله لهذا الإنسان المعتز ببدائه وحريته، وببيانه ومعروفه. لقد كانت آية حية، مسخرة بكل منافعها وذكائها وبصيرتها له، مثل السماء المشرقة، والجبال الشاهقة، ومثل امتداد هذه الأرض المبسوطة أمامه ليستهدى عليها، وليستثمر المغيب والظاهر من خيراتها..

وها هو القرآن باق بكل جدته وهدايته بيننا، وهو كما نراه لا يصف من صور الحياة النابضة في الأرض، ومن المشاهد البشرية بين البيئات المتنوعة المناخ والموارد والمواقع، إلا هذه الصحراء العربية غير ذات الزرع والأنهار.. الصحراء التي تحرك فوقها قوم النبي، وتكاثر بالسعي في أرجائها، وبالارتباط التجاري بالعالم الخارجي من موقعها، أبناء إسماعيل ، حتى ظهرت في القيادة والشرف من قبائلهم قريش.. فماذا يعني هذا.. والقرآن باق بكماله، وخلوده، وجدته، يسابق العصر، ويعلم المسلمين، ويجدد أصالتهم وهو يعرف ألسنتهم ، وينبههم من الغفلة، ويحذرهم من المروق..

نعم مرة أخرى ماذا يعني هذا .. بعد أن اكتشف الإنسان الحديث قوة البخار، وصنع السيارة والقطار، واختراع الطائرة ومركبات الفضاء؟!

هل يعني هذا أن نسترجع الإبل لنجعل منها ركوبنا وأسفارنا تيمنًا بحياة أوائلنا.. وأن نرفع من جديد أعمدة بيوت الشعر لنأوي إليها.. أم يعني أن نستبقي – مع تطور الحياة – ما استخلصناه من حياة أسلافنا من سنة السير في الأرض، غير محجوبين عما حولنا من بدائع خلق الله، ولا مقصرين عن التفكير في آياته، ونحن نستقبل في التطلع إليها موجبات

التسبيح والحمد لله، مستعيدين صحبة القمر والنجوم، وانشراح الصدر بلثمات النور والنسيم..

ولئن كان من الحق في كتاب الله أيضًا أن العرب في حياة أممهم الأولى كانوا يسيرون سيرهم المتفكر في آيات الله قبل عصر الإبل، وإذن فمن الحق أيضًا أن يحافظوا على سنة هذا السير بين آيات الله، للتفكر في خلق السموات والأرض، ولتجديد الميثاق مع الله على الإيمان والطاعة – بعد عصر الإبل، وذلك حتى تبقى قدرتهم متجددة – في سبيل حفاظهم على أصالتهم – على هدم أية جدران أو شواغل تحجبهم عن ربهم وآياته، وعن الخلق ومشاهده، وعن العلم ومصادره..

وإنه لمن العجب وموجبات الأسى ألا يتعظ العرب اليوم بما صار إليه أكثر المتقدمين تقدمًا في هذا العصر فى الولايات المتحدة، ممن سحقتهم الحياة الآلية داخل ناطحات السحاب، وفي بطون الشوارع السحيقة والمدوية للمدن، وهم بين الالتصاق القاتل بمحركات السيارات والطائرات، أو الضياع الممزق في دوامات ضجيج المصانع والآلات، أو الموت الاختياري في أقبية نوادي الليل، أو الموت القسري في أعماق مناجم الفحم.. هؤلاء الذين عندما انسلخوا عن آدميتهم داخل مذيبات الآدمية في المدن الحديثة. أصابهم الانهيار الحضاري، وسقطوا في قبضة العقد والأمراض النفسية المتعددة. التي قذفت بهم يميناً ويسارًا إلى العنف، والخمر، والجنس.. هذا بينما خرج بعض منهم ممن أدركوا مصدر العلة في انهيارهم فأنشأوا جماعات الـ Camping التي تدعو في محاولة أخيرة للإنقاذ إلى حياة المعسكرات والعيش في الخيام، وسط الطبيعة الحرة، والشمس الساطعة، والرياح الطليقة، والأشجار .. والوعول .. والعصافير .. لكي

يستعيدوا إن استطاعوا – برغم جراح أنفسهم ورواسب فلسفاتهم وشهواتهم – بعض ما فقدوه من صورة الإنسان، وأمن النفس، وراحة الحواس..

وأخيرًا نقول: ماذا في القرآن الكريم في تكريم حياة العرب فوق الأنعام، والسير المتفكر بها الأرض، من هذه الدعوة المحببة لكل مؤمن لكي لا يحتجب عن آيات الله، ولا ينقبر وراء الجدران جامدًا في أغلاله عن السير في الأرض وغافلا عن التفكر في خلق الله وآياته، بالقلب السليم الكبير، والعقل المؤمن المستنير.

البداء والأنعام:

اتجه القرآن الكريم إلى تذكير قوم النبي بآيات الله ونعمه، التي جعل منها الطريق المضيء أمامهم للاستدلال عليه، ولأفراده بالعبادة، هذه الآيات التي لم تتكامل في أي مكان لغيرهم، في بداء جدب حصين عزيز مثل بدائهم، وفي قطاع مضيء من الأرض والسماء، في قلب العلم، كهذا القطاع المتكامل بضوئه ونوره، وفي سمائه وأرضه، كما هو الأمر إلى اليوم فوق جزيرتهم..

لقد ذكرهم الله تعالى بنعمة الرحلة الدائمة في حياتهم – بين فترات الإقامة الموقوتة .. وذلك حيث أقام حياتهم الغنية بآلاء الله، ومشقة السعي، على كل من الرعى والتجارة، وهو في هذا التذكير الذي يجعله آية لهم من أعظم آياته – أمام دهشة المتحضرين المستقرين بالقمر أو المحجوبين بالترف – يقول سبحانه عن خيامهم، أو بيوت الشعر التي لا يأوون في أفضل حياتهم وأعزها إلى غيرها، حين يرحلون في حياة عسكرتهم الدائمة، وجهادهم الموصول: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ

سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [النحل: 80].

إن هذه البيوت أو الخيام من جلود الإبل هي واحدة من نعم الله التي أنعم بها عليهم، ألوفًا من السنين من فجر التاريخ، حين كتبها عليهم ليعيشوا آمنين، خفافًا من الأثقال في بدائهم الجدب المضيء، والموحش الحصين، وهم يخرجون بها في الربيع يظعنون ويقيمون وراء المرعى..

والخيار الثاني فريضة الحركة – داخل واقع الجزيرة العربية المتحرك – هو ما كتبه الله لهم أيضًا، من هذه الرحلات بالشتاء والصيف حيث يستخفون هذه البيوت أو الخيام نفسها في قوافلهم للتجارة العالمية فيما بين الشام واليمن، وما بين اليمن باتجاه موانئ الهند، بعد أن ملكوا هذه التجارة بفضل حريتهم، وما اشتهروا به بين الشعوب المحيطة بهم بالصدق والأمانة..

ولقد ذكر الله في كتابه قريشًا بمثل هذه النعمة في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [سورة قريش]

ولقد ذكرهم الله أيضًا على الطريق المفتوح لهذا البرهان المضيء بحقيقة أحدية الله وآلائه ووجوب طاعته، اعتزازًا على غيره به، ذكرهم بهذه الإبل القومية الشامخة التي جعلها عمود حياتهم، وقوة حركتهم، وأفضل رزق خصهم بهم عضوًا طويلة، وقد سماها لذلك "الأنعام" للدلالة على جملة النعم فيها، وكمال الرزق بها، وتعدد المنافع المتسعة المدى على ظهورها في الظعن والإقامة وفي السلم والحرب، وحيث لم تكن لتهون مشقات الحياة عليهم، وتدنو خيرات الأرض لهم، في بداء قفر، وماء قليل،

ورحلة متصلة، وتيه متوقع، بأية وسيلة أخرى غير هذه "الأنعام" الصابرة الذكية، والشريفة القوية. وهي التي تكاد من وفائها وولائها لصاحبها أن تنطق باسمه، وهي تعرفه بشخصه، وتحن له عند قدومه في حين تشاركه كل ما ينوء به، وتحمل عنه أكثر الذى لا يطيقه، حتى لقد تعددت أسماء هذه الإبل ذكورًا وإناثًا وهي لا تزال من آيات الله الماثله للعيان، للدلالة على خير الصفات المقترنة بإنسانية الإنسان حين تشرق مقاصده.

إن هذه الإبل الذكية ببصيرتها، والسخية بعطائها، هي التي اصطحبها وصادقها وتعلق بها الإنسان العربي، وهو يجدها فوق أي دابة أليفة عرفها الإنسان آية الله له، ونعمته عليه، إذ هي التي تصدق في صحبته، وتصبر على حمل أثقاله، وتهديه ببصيرتها إلى جادة الطريق حتى لا يذهب به التيه، وإلى منابع الماء البعيد حتى لا يهلكه الظمأ. ومن ذلك فقد سماها العرب الأولون "الزاملة" ومعناها الراحلة التي يبدو من شدة نشاطها في السير بأثقالها كأنها تظلع، ومعناها أيضًا "الزميل" والصاحب الوفي، ورفيق الطريق الباذل كل نشاطه، وما في ضروعه، بل وحياته، في سبيل صاحبه، بغير امتنان عليه في سراء الحياة وضرائها. ولا يزال البدو في سيناء وغيرها يسمون الجمل والناقة "الزمالة" إلى اليوم من هذا المعنى القديم نفسه.

عن هذه النعمة بهذه الأنعام يقول الله محدثًا قوم النبي في كتابه الكريم:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر: 79-81]

ولننظر إلى قوله تعالى : ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ وما فيها من الإشارة المبينة إلى آيات الله في نعمه الكثيرة بهذه الأنعام، ومن أعظمها هذه الآيات الكبرى كما يتاح لهم فوق ظهورها بالنهار والليل أن يشهدوها في واقعهم المتحرك، والمنتظم، داخل ملكوت السموات والأرض، فتتحقق لهم معاينة هذا البرهان الحسي والعلمي على قيومية الله وأحديته، وعلى واسع رحمته وبديع خلقه، وعلى وافر نعمه ووجوب طاعته.

ومن تأكيد الله على نعمته على هؤلاء العرب البلداة بهذه الأنعام يقول تعالى أيضًا وهو يساويها بأبنائهم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾[الشعراء:132- 133]

ثم يقول سبحانه وهو يشير مرة أخرى إلى أنها من آيات الله عند ذوي العقول، هذه الآيات التي عن طريقها يظهر لهم البرهان على الله حيًا وجليًا ومتصلاً:

﴿ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ﴾[طه: ٥٤]

ويقول سبحانه أيضًا في ملاحقة التذكير بهذه الآيات والنعم المتصلة بالسير في الأرض، والتحقق من البرهان عليه:

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[النحل:5- 7]

من أجل هذا اوجب الله عليها منذ أقام إبراهيم وإسماعيل بيت الله في مكة فريضة شكره في مقاصد الحج إلى هذا البيت على ما رزقهم من هذه النعمة الكبرى، والآية المتعددة الآيات في هذه الأنعام، وذلك حيث يقول تعالى : ﴿ لِيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ [الحج:28] .

الآيات والبرهان:

واستنادًا إلى هذا الوضوح لآيات الله أمام سمع وبصر هذا الراحل المجد، على ظهر جملة الذكي القوي والصبور. كان هذا التذكير الدائب في كتاب الله لمن غفلوا عن آياته القريبة إليهم، والناطقة لهم، والشاهدة عليهم، حتى يتذكروا بعد غفلاتهم، وليرجعوا إليه بعد فتنتهم بأموالهم وأبنائهم . وهكذا كان الأمر حين بلغ القرآن الكريم مبلغه من هذا التذكير الصادع لشركهم، والموقظ لفطرتهم، فدخلوا في دين الله أفواجًا ، وهم يتذاكرون ما يرونه من آيات الله المشرقة حولهم فلا ينكرونها ، بل يقولون في صدق تفكرهم في خلق السموات والأرض على ما ألقوا ، وألف أسلافهم:﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: 191]

والآن – في مزيد من الإيضاح – تسأل عن طبيعة وخصائص هذا البرهان العلمي والمحس. الذي يرتكز عليه يقين المؤمن بصدق إيمانه.. إننا نسأل فنقول:

1- هل هذا البرهان العلمي والحسي شرط نجده في القرآن الكريم لصحة وسلامة إيمان المؤمن الصادق ، ولثبات يقينه بالله الحق؟

2- ثم ما هي طبيعة وخصائص هذا البرهان كما يمكن أن نتعرف عليها من آيات الله، وحتى يمكن بجلائها أن يزداد اهتمام المؤمنين المعاصرين باستجلاء هذا البرهان، تقوية لإيمانهم، وتزكية ليقينهم، وتقويماً لأقوالهم وأعمالهم ومقاصدهم.

البرهان حجة:

إذا كان البرهان على صحة أمر ما هو الحجة الملزمة بكل ما يقتضيه هذا الأمر من سلوك وعمل، فإنه من المسلمات أن يسبق الإلزام بكل حقائق الدين، وفرائضه ، وأخلاقه، وغاياته ، جلاء هذا البرهان على أن الله سبحانه وهو مصدر هذا الدين الحق، هو حق لا ريب فيه. وهذا البرهان أو الحجة الملزمة يكون صدوره لازمًا من جانبين:

الأول – من جانب الله تعالى الذي يقدم إلى رسله، وإلى من اختارهم بلسانهم لدعوتهم إلى طاعته، وإلى الحياة بشريعته – برهانه إليهم على صحة ما يدعوهم إليه، وهو بهذا البرهان يلزمهم بحجته لهم، أو عليهم، إذا آمنوا أو لم يؤمنوا بهذا البرهان.

ولقد كان هذا البرهان المنير من الله إلى قوم النبي، ومن حولهم، هو آيته الكبرى هذا القرآن الحكيم، وذلك حيث يقول تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 174]

الآخر: من جانب أولئك الذين يزعمون في غفلاتهم، مع ما آتاهم الله من النعم التي أشرنا إليها ليبصروا آياته، وليتحققوا من البرهان على أحديته – أن معه شركاء لا يعبدونهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى!

وفي مواجهة هؤلاء الغافلين، أو المعاندين، أو اللاهين بالترف والمتاع، يسألهم الله عن هذا "البرهان" على ما يشركون به، وما يلجأون

إليه من تكذيب رسوله إن كانوا صادقين، مما يؤكد أن "البرهان" على كل دعوة لازم لقيام الحجة على صحتها، وذلك حيث يقول تعالى لمعاندي قريش: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]

أما البرهان على الله من جانب المؤمنين فقد كان الرسل أسوتهم في استجلائه، ونذكر هنا في أسوتنا برسول الله، وبإبراهيم، عليهما الصلاة والسلام، كيف أقاما على هذا البرهان يقينهم بالله الواحد الأحد، الذي آمنوا به – قبل أن يدعوا إليه – حنفاء غير مشركين، وإلا فكيف كانوا يصدقون بعد بعثتهم بما لم يكونوا على يقين به أعظم اليقين قبل هذه البعثة؟

أما عن طريق النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا البرهان المشرق، واليقين المستقر، فلقد بلغ إليه على نفس طريق أبيه إبراهيم، وهو يسير في شبابه قبل الدعوة في تجارة عمه أبي طالب، ثم في تجارة زوجة السيدة خديجة رضي الله عنها، في قوافل قريش إلى الشام، وحيث في الظعن والإقامة مع الإبل المحملة بالتجارة، والعائدة بمثلها ، كان يتاح لرسول الله أن يشهد مع رفاق رحلته آيات الله في السماء والأرض، وفي الليل والنهار، فيتفكر، ويستجلى، ويدرك الاتساق، ويشهد البرهان.

كذلك فقد عاود صلى الله عليه وسلم هذا التفكير في خلق السموات والأرض، وليكون من الموقنين، عندما قضى سنوات الأهبة قبل البعثة وهو يتحنث في غار حراء، متهللاً بذكر الله للبعيد والقريب مما يراه من آيات الله ، حتى نزل عليه الوحي، وناداه الله به ليحمل الأمانة، أمانة خاتم النبيين ، بهذا القرآن الكريم، والنور العظيم، الذي سيبقى في

الأرض برهانًا لا تنطفئ منارته، ولا تذهب جدته، على أن الله حق، وكتابه إلى الناس حق ودعوته إلى الإسلام إليه حق، ووعده للمؤمنين الصادقين حق.

وأما عن طريق إبراهيم عليه السلام إلى هذا البرهان المنير على الله الحق، والذي مال به في حنيفيته العلمية والسمحة عن كل ميل عن الله، فقد تناوله القرآن الكريم ببعض التفصيل في أكثر من موقف، وهو يقدم هذا المنهج اليقيني في نهايته بشارة لمنهج الإسلام العلمي واليقيني في النظر والاستدلال.

البرهان عام للجميع:

واستطلاعًا لطبيعة وخصائص هذا البرهان الجلي على الله، من بين كل مصادرنا، وسير أنبيائنا، وحياة ما سبق من صالح مجتمعاتنا، نجد أن الصفة الأولى لهذا البرهان، أنه في طبيعة السير والتفكر في آيات الله في السموات والأرض، وكما تحدد ذلك في بيان القرآن الكريم – هي أنه برهان عام، أي أنه برهان متاح لجميع من وهبهم الله هذه النعمة – إذا لم يغلفوا أو يطغوا بالترف.

إن هذا البرهان المضيء، والدائم في مواقعه، متاح للأغنياء والفقراء ، ومتاح لم يقرءون ويكتبون، ولمن لا يقرءون ولا يكتبون، وبهذه السواسية في الحق، والالتزام بمعرفة هذا البرهان الحي، بعد تقليب السمع والبصر، وتوجيه القلب والعقل، في تتبع وتدبر هذه الآيات المفضية إليه، والشاهدة به، والناطقة عنه. إنه بهذه السواسية في حق الاستدلال على الله بأشرف العلوم، وأعظم البراهين، يتجلى أيضًا في هذا الركن الأساسي من أركان الدين، عدل الله.. وفضله .. ورحمته..

إن هـذا البرهـان العـام علـى الله، وهـو الركيـزة للـدين الحـق، وللمنهج العلمي لهذا الدين في الحياة، يشهد بهذا الفارق الكبير، بل بهذا التعـارض الأبـدي بـين الـدين الحـق وبـين جميـع "الفلـسفات" الـتي تـزعم بتمويهات أصحابها أنها تقيم "المجتمعات الفاضلة" على أساس من "علومها السرية " التي قصرتها على الفلاسفة من كهنة هذه العلوم، وسخرتها فقط لتثبيت سلطان الملوك، وتكريس عبودية ومهانة العبيد لهؤلاء الملوك، وللكهنة الفلاسفة، وللتجار الأغنياء وأشباههم..

إن هـذه الـسواسية في الفرصـة المتاحـة لاسـتطلاع هـذا البرهـان المضيء على الله تؤكد أيضًا صدق ما جاء به الدين الحق في شرائعه في أن لكل إنسان بحسب عمله، وأن لكل محتاج فيما دون الكفاية بحسب حاجته، وفي أنه لا طبقة ، ولا استغلال ، ولا بخس للحقوق، ولا كنز للأموال، ولا عدوان على الحريات والحرمات، ولا تفريط في طهارة الجسم والنفس، والقول والعمل والفكر والشعور..

إن أفلاطون الذي لا يزال شيئاً مذكورًا عند بعض موالي الثقافة الأوربية كان يتكلم عن مدينته الفاضلة المزعومة باسم مصالح وأهواء "الارسـتقراطية الأثينيـة" أي "الـصفوة" الـتي فرضـت نفـسها مـن التجـار والمحـاربين والفلاسـفة. وكـان هـو يـرى أن يكـون كـل شـيء "مشـاعًا" في مدينتـه — بمفهـوم المزدكيـة الفارسـية الـسابقة لـه — يتفـضل بالـضرورة باحتقـار العمـل اليـدوي، ويـدعو إلى حرمـان أهـل الحـرف مـن الحقـوق السياسية، مع إصراره على أن يبقى العبء الأكبر في خدمة سادة هذه المدينة الخرافية من الملوك والتجار والفلاسفة، ملقى على العبيد والأسرى المحرومين من كل حقوق.

وأما أرسطو، الأعظم عندهم، فكان على فلسفته المستقرة على ذات الركائز الأرستقراطية اليونانية، وراء الشعار الزائف للديمقراطية، أطول باعًا في متاهاته التجريدية الوهمية، وفي احتقاره أيضًا للعمل اليدوي الذي يرى حرمان العمال بسببه من حقوق المواطن، وذلك حيث كان يرى وهو المخدوم بالأسرى والعبيد، والمتفرغ من العمل ليستمتع بأوهام الكلام عن الديمقراطية والمثالية والمادية، كان يرى أن "العمل في المهن الوضيعة" بسبب الدمار للعمال ومديري العمل على السواء، لأن العمل يدفعهم للعزلة في بيوتهم، وإلى قضاء أوقات راحتهم بجوار المدافئ، وليس عند الأكروبول للجدل الفارغ مثل السادة الأثينيين المتفرغين لشرب الخمر والحوار – وبذلك فإن هؤلاء العمال يصبحون في المجتمع من "أهل السوء" الذين لا يهتمون بالدفاع عن بلادهم!!.. وكأن الأشراف والسادة من التجار والفلاسفة هم الذين يقاتلون عن بلادهم .. وليس الأسرى أيضًا والعبيد!!

وهو برهان علمي:

وننتقل إلى الصفة الثالثة من صفات هذا البرهان على الله.. بعد أن حجة وأنه للجميع – وهي أنه برهان علمي، ليس بالنظر الضيق لكلمة "علمي" بالمفهوم المعاصر، أي أنه يستند إلى " نظرية علمية" كيفما كان المصدر الذي ترجع إليه، وإنما المقصود بكلمة "علمي" في طبيعة هذا البرهان هو استيعابه منهج القرآن الكريم في تأكيد الحقيقتين الآتيتين، اللتين لا تتناقضان مع العلم، بل تعززان منهج العلم، ليكون هذا التأكيد قرارًا وأمنًا وتنمية لحياة المؤمنين:

الحقيقة الأولى – هي أن هذا الخلق المتسق، وغير المختل في أي جانب من جوانبه، والدائب الانتظام مع تعاقب مداراته، وسرعة حركته،

وتعدد اتجاهاته، لا يمكن أن يكون في نظر المشاهد البصير، المتتبع لحركة هذا الخلق المتسق، إلا من صنع وتدبير خالق قدير حكيم.

ويقدم القرآن الكريم هذا الدليل العلمي على هذه الحقيقة لمن يخاطبهم بين آياته الجلية لهم، والمتحركة باتساقها حولهم وأمامهم، بما هو غير متاح لنظر وتدبر غيرهم، في أراضي الجليد والغابات، فهو يقول سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 1- 4].

واضح في سياق هذه الآيات الكريمة أن معنى قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ هو أنك أيها المشاهد المتفكر في آيات خلق الله والمتتبع لحركاتها وأنت تسير في أفضل الظروف للتفكر فيها، لا تجد أثرًا لأي اختلال فيما تراه من حركة هذه الآيات وتعاقبها، بل تجد هذا الاتساق والانتظام فيما بينها وأنفسها، وفيما بينها وبين الإنسان المشاهد لها، هذا "الاتساق" الذي عبر عنه القرآن بأنه "التنزه" عن التفاوت، والذي هو بأي مقياس علمي الدليل القاطع على سلامة هذا الخلق من أي "فطور" أي من أي فجوة أو اختلال، أو صدع، فمهما أرجعت البصر هنا وهناك بحثًا عن هذه الصدوع أو الفجوات، فلن تجد إلا هذا "الاتساق" الباهر، والبرهان الظاهر، الدال على أن لهذا الخلق خالقًا قادرًا حكيمًا، خلقه بسلطانه، ودبره بأمره، وقام عليه بحكمته وأمره.

الحقيقة الثانية – والمتممة لهذه الحقيقة الأولى هي أن هذا الخالق المدبر، والقائم على أمر هذا الخلق المتسق، ما نراه منه وما لا نراه، إنما

هو خالق واحد أحد ، لا شريك له، ولا شبيه به. ويقدم القرآن الكريم دليله على هذه الحقيقة – بمنهجه العلمي التجريبي الذي أشرقت به الحضارة العربية الإسلامية، يقدمه بإيضاح ما لا قدرة لعاقل على تكذيبه، وهو أن شرط الاتساق الذي سلمنا به في الحقيقة الأولى، والذي تحققنا به من شرط وجود الخالق المدبر لهذا الخلق المتسق- يفرض علينا أن ننفي وجود أي تنازع بين آلهة كثيرين، وخالقين متنازعين، على هذا الكون الواحد، وذلك حتى يبقى هذا الخلق متسقًا بغير تفاوت. وبغير اختلال أو فطور، كما يدل برهان المشاهدة..

وفي هذا الدليل الواضح وضوح الحق على أن الله واحد، وليس جملة آلهة، وأن الكون الذي يدبر أمره واحد وليس جملة أكوان، يقول الله سبحانه وتعالى لمن أسلموا بعقولهم وفطرتهم إليه: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]

أي كيف يدبر أمر السموات والأرض آلهة غير الله، أو مع الله، ثم يتسقان في حركتهما ولا يتعرضان للفساد والخلل؟

ويزيد سبحانه من هذا الدليل بيانًا ووضوحًا فيقول في آية أخرى قاطعة بالقول الفصل بهذه الحقيقة اليقينية العلمية: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: 91]

أليس مثل هذا – مع الفارق – مما يحدث بين ملوك الأرض وزعمائها، وهم يتغالبون على السلطة، فيعلو بعضهم على بعض، ويختل أمر المجتمعات والأمم، ويفشوا الظلم، ويضيع العدل، حتى يعود الأمر بيد

حـاكم عـادل إلى الله، ليعـود الاتـساق بوحـدة الإرادة، وسـلامة التـدبير، وشرف القصد، إلى كل شيء في حياة الناس، ومصادر أعمـالهم، وأسـباب عمرانهم ومصلحتهم؟

فكيـف يكـون مـع الله آلهـة يفـسد هـذا الكـون الكـبير بتنـازعهم، ويختل هذا الاتساق الباهر الذي يسوده، والذي لا يزال يقدم برهانه المضيء لمـن يـسير في الأرض فـيرى ويـسمع، ويتفكـر ويتـدبر، علـى أن الله الحـق، الموحي بالدين الحق، هو إله واحد قادر، رحمن رحيم. لا شريك له في الملك والأمر، وهو العزيز الحكيم.

الفصل الثالث

من إسماعيل إلى عصر النبوة

كان العرب يحبون الله ويضرعون إليه

من عهد إبراهيم:

على الأقل في هذه الحقبة التاريخية القريبة بمصادرها إلينا، منذ أقام إبراهيم وإسماعيل بيت الله في مكة، أي منذ نحو 4000 سنة من تاريخ العرب الديني، فإننا نستطيع أن نقدم الشواهد على أن هؤلاء العرب من أبناء إسماعيل، والذين لم ينقطعوا عن حج البيت حتى ظهور وانتصار دعوة الإسلام، كانوا وهم على بقية تزيد وتنقص، وتعتدل وتميل، من دين إبراهيم وحنيفيته، يعرفون الله العزيز العليم، والرحمن الرحيم، بأسمائه الحسنى، وكانوا وهم يحجون إلى بيته يتضرعون إليه باسمه، ويتقربون في الطواف بكعبته بتجديد مواثيق طاعته. ولم يحدث قط برغم الشرك الذي طرأ عليهم قبيل بعثة النبي بأصنام مستوردة من الشام وبلاد اليونان أن سموا بيت الله باسم أحد أصنامهم، أو باسم أحد أرواح الطبيعة التي عبدتها الشعوب المجاورة التي لم ترتق بتأثراتها الهندية إلى مستوى معرفة الله الحق، باسمه الحق، في الدين الحق، فعبدت برهمن، وأهورا مزدا، وزيوس، وغيرها كما كان الأمر شائعاً في الهند وفارس واليونان وغيرها في أوربا وآسية وأفريقية من عبادة أرواح الطبيعة.

وهذه الشواهد التي سنقدمها من مصادرها الحاضرة بأيدينا عن أن الله الذي استدل العرب عليه في سيرهم بين الآفاق، وتفكرهم في الآيات، هو المعبود الحق الذي أحبوه، وآمنوا بقدرته وحكمته ورحمته، ولجأوا في كل شدائدهم إليه، وصلوا وصاموا وتصدقوا وحجوا إلى بيته من فرائض طاعته كما توارثوا ذلك عن أبويهم إبراهيم وإسماعيل، وأنهم آمنوا بالبعث والحساب عدا قلة من المارقين المخلوعين عن جماعتهم لا يحسب لها حساب...

ومثل هذه الشواهد الغزيرة المنابع في التاريخ الديني، وبشهادة القرآن الكريم، هي الوجه الحقيقي لعقيدة العرب الدينية المستقرة على جذورها من أصالة الإسلام في هذا التاريخ، ومن الاخضرار الدائم لشجرة الإيمان بالله الحق في حياة هذه الأمة العربية، على الرغم من فترات الغفلة بالشرك الذي كان يشوب وجه هذا الإيمان عند القلة، ولا يقطع جذوره بين الكثرة، مما يوجب تنقية هذا التاريخ الديني مما تعرض له بأيدي أعداء العرب وأعداء الإسلام من وصم العرب بكل قبيح من الأخلاق، التي هي أخلاق هذه الشعوبية الحاقدة طوال عصورها، واعتبار أن الشرك ومعاداة الله أو الجهل به هي الأصل في حياة العرب، في حين أن الإيمان بالله، وحب الله، واللجوء الضارع في الشدة إلى الله، والتقرب إلى الله بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هي مقومات حياتهم منذ فجر التاريخ، والوجه الحقيقي لحياتهم كما تؤكد الشواهد الكثيرة، الناطقة بهذا الحق في مصادرها، والتي تزخر بها آيات الله وسيرة الرسول، والتي نقدم بعضاً مما تزخر به مكتبة التراث العربي فيما يلي..

الله بأسمائه الحسنى:

يقول زيد بن عمرو بن نفيل – قبيل البعثة – وهو يستعيذ برب إبراهيم مما ظهر من شرك بعض المشركين:

عـذت بمـن عَـاذَ بـه إبـراهِمْ   مـستقبلَ الكعبـة وهْـوَ قـائِمْ

ويقول أمية بن أبي الصلت يذكر سلطان الله على كل الكائنات:

إلَـــــاهُ العــــالمين وكـــــلّ أرْضٍ   وربُّ الراسـيات مـن الجبـالِ

ويقول امرؤ القيس يذكر الله بأحد أسمائه الحسنى، ويحمده على إنزال الغيث وإحياء الجدب:

تلك السحابُ إذا الرحمنُ أرسلها روّى بها من مُحول الأرضِ أيباسا

ويقول لبيد أحد شعراء المعلقات أيضاً وهو ينكر أن أحداً غير الله يعلم الغيب:

لعَمْرُكَ ما تدري الضواربُ بالحَصَى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ويقول عنترة وهو يؤمن بأن كل أمر هو بقضاء الله وقدره:

وإذا كان أمرُ اللهِ أمراً يُقدَّرُ فكيف يفرُّ المرءُ منهُ ويحذرُ

ويقول حاتم الطائي وهو يقسم بالله رب البعث والنشور ومن لا تخفى عليه خافية:

أمَا والذي لا يعلَمُ السرَّ غيرُه ويُحْيي العِظَامَ البيضَ وهي رَميمُ

ويقول عامر بن الطفيل في التسليم بقضاء الله، وأن في بعض ما يكرهه الإنسان خيراً له:

قضى اللهُ في بعْضِ المكارهِ لِلْفَتى برُشْد وفي بعضِ الهُدَى ما يحاذِرُ

ويقول سويد بن أبي كاهل اليشكري يحمد الله على ما أنشأ عليه قومه من مكارم الأخلاق، والصبر، والبعد عن الدنايا، وإباء الضيم من الأقوياء:

كَتَبَ الرحمنُ والحمدُ لَهُ سَعة الأخلاقِ فينا والضَّلَعْ

وإبَاءٌ للدّنِيَّات إذا أُعْطِيَ المْكثُورُ ضَيْما فكَنَعْ

وبناءُ لِلْمَعَالي إنَّما يرفعُ اللهُ ومن شاءَ وَضَعْ

نِعَمٌ الله فينا رَبُّها وصنيعُ الله والله صَنَعْ

وفي بيت واحد من الشعر يجمع رجل حكيم هو الحارث بن عباد من شيوخ وحكماء العرب هذه الحقيقة الدينية الكبيرة، والتي أضاء بها

القرآن وهو يرددها في آياته، جامعاً بها الدين كله في «الإيمان والعمل الصالح» الذي لا يبقى من دنيا الإنسان وسعيه المنجي بها غيرهما.. يقول الحارث بن عباد عابراً بحكمته محنة حرب البسوس قبل البعثة، ومذكراً قومه بهذه الحقيقة الجامعة التي لا شك في أنها من ذخائر تراثهم، ومن مقومات أصالتهم حتى لا ينسيهم الغضب والثارات أن يرجعوا إليها، فيرجعوا إلى الله وإلى ما يليق بالمؤمنين به من صالح العمل.. وهي قصيدة طويلة من جوامع الحكمة يبدؤها بهذا البيت:

كُلُّ شَيْءٍ مَصِيرُهُ لِلزَّوالِ ... غَيْرَ رَبِّي وَصَالِحِ الأَعْمَالِ

نثر الحكمة والوصايا:

هذا من حكمة الشعر الذي اشتهر به بيان العرب.. وأما في الحكمة والوصايا الداعية إلى تذكر مكارم الأخلاق، وإلى الاعتصام بالحق، والألفة به، وإلى قمع الباغي، ونصرة الضعيف، فنذكر من مشهورها في اقوال حكماء الرجال والنساء من أبناء هذه الأمة العربية الأمينة باجتباء الله واصطفائه على رسالة الدين الحق، ومكارم الأخلاق بين أجيالها، وبين من يتعرب لهذا الدين والأخلاق بين البشر:

يقول أكثم بن صيفي من كلام لا يزال له وهج الشمس، وخفق النجوم ونضارة الحق:

«الصدق منجاة، والكذب مهواة، والباطل لجاجة.. الحزم مركب صعب، والعجز مركب وطئ.. آفة الرأي الهوى.. إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي.. لا جماعة لمن اختلف.. ألزموا النساء المهابة.. أخوك من صدقك.. خير السخاء ما وافق الحاجة، وخير العفو ما كان بعد القدرة..».

ومـن أقـوال الحكمـة في المـأثور مـن أقـوال النـساء العربيـات، الكاملات والمتكاملات مع الرجال في حمل الأمانة أمام الله، وفي نصرة الحق، وإصلاح العمل، وإباء الضيم، نذكر من حديث(*) السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها إلى زوجها الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، عندما وجد شدة الوحي في أول نزوله عليه بغار حراء.. قولها له:

«أبشر يا ابن العم، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً».

فهذه سيدة من أشراف قريش، تعمل بالتجارة، ولكنها بجوار بيت الله وكانت تنتظر مع قومها من أبناء إسماعيل رسولاً من الله إليهم، فهذا هو وعد الله إلى أبيهم إبراهيم كما تناقلوه أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، ولننظر بالإكبار لها إلى نبع الحكمة والصدق والتفاؤل في تثبيتها للرسول، وفي تبشيره بالرسالة، وفي هذا القسم بالله، البالغ في حديثها ذروة الإيمان به ساعة شروق الدعوة حيث تقول: «والذي نفسي بيده».

وينقلنا هذا المثال من القسم بالله في حديث السيدة خديجة إلى ذكر ما كان سائداً في بلاغة العرب قبيل البعثة، ومع صدق إيمانهم بالله على علم وبرهان، من صيغ هذا القسم الذي نزل ببعضه وحي الله بعد ذلك في آيات القرآن الكريم.

لقد كان هؤلاء العرب المؤمنون بالله يقسمون به على قدر إيمانهم به، ومع اتساع المدى أمامهم لشهود البرهان عليه.. فهم يقسمون بآياته الدالة عليه فيقولون:

«والذي سمك السماء دحى الأرض».

(*) هذه المأثورات من كتاب «لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب» للمؤلف – دار الجيل.

«لا ورافعها بغير عمد».. أي السماء.

«لا ورب الشمس والقمر»

«لا ومجري الرياح، ومنشيء السحاب، ومنزل القطر»

«لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة».

«لا ورازق الأنام»

«لا ورب الحل والحرام»

«لا والذي يواريني منه غيب».

كل هذا وغيره مما أقسموا به بالله الحق من آياته مثل: الليل الغاسق، والسماء والطارق، والمزن الوادق، يشهد بأن الرسالة بالقرآن والإسلام نزلت من الله لمن أعدهم واجتباهم لها، برغم غفلاتهم بالشرك، وتكذيب القلة منهم للرسول، وإلا فكيف كان يمكن للعرب أن يجمعوا على إيمانهم الصادق بهذا الدين، بعد فترة المعاندة القصيرة من القلة، فيدخلوا في دين الله أفواجاً، ثم يخرجوا تحت رايات القرآن وشمس الإسلام فيحرروا بقية الشعوب العربية في وطنهم، ملوحين بهذه الرايات، ومضيئين بهذه الشمس على من حولهم من البشر.. كيف كان يتيسر لهم ذلك بآية الله الكبرى به في تاريخ العالم وليس فقط في تاريخ العرب، لو لم يكن الله قد أعدهم واجتباهم لهذا الدين، بأنعمه عليهم من الحرية، ومن السير في الأرض والبداء على ظهور الأنعام ليشهدوا مع سعيهم وراء الغيث والمرعى، أو على طرق التجارة العالمية، برهانهم المشرق على الله، في كل اتجاه يتجهون إليه عبر الحركة الدائبة، ونعمة اللغة والعقل والحياة..

في أحد هذه الشواهد على هذه الحقيقة في القرآن الكريم وهي حب العرب لله الذي أيقنوا به بالبرهان عليه يقول تعالى فيهم على لسان رسوله:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: 31]

ويقول تعالى في أن هذا الدين ميسر لهم بنعم الله فيهم، وبما اجتباهم إليه على ملة أبيهم إبراهيم:﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ ﴾ [الحج: 78]

ويقول في دعائهم له: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: 65]

البيئة والأخلاق:

وننتقل من مجال المأثورات إلى هذا العصر الحديث لنؤكد أن هذا الفهم السليم لأثر البيئة والمناخ – وهما من آيات الله – على واقع العرب قبل الإسلام، لا يزال برغم هجمات الجاهلين أو المضللين من أعدائهم مشعاً من بعض كتب المؤرخين العرب المعاصرين، الذين ارتفعوا بأمانة العلم، ونعمة العقل، وسعة الاطلاع فوق غبار ورياح التشكيك في حكمة الله في اختيار من اختارهم لهذا الدين بحقه، وبقدرات تدبره، وبالصبر على أعباء حمل أمانته، وصدق الجهاد في العمل به والدعوة إليه.

من هؤلاء نذكر المؤرخ العالم محمد فريد أبو حديد الذي ننقل من كتابه «أمتنا العربية» هذه الفقرات المترابطة في مقدماتها ونتائجها لتأكيد وجهة النظر الصحيحة إلى حياة العرب قبل الإسلام بما يتفق وما انتهت إليه منابع وأنهار وظواهر هذه الحياة من هذا النصر العظيم، والباقي والمتجدد للدين الحق، وبما يؤكد في حكمة الله وذوام سننه أن هذه المقومات والركائز التي قام عليها هذا الدين في أقرب الناس له، وتحقق

بها هذا النصر في صدق سعيهم إليه، هي نفس المقومات والركائز التي يقوم عليها مرة أخرى في حياة المسلمين المعاصرين، على أرض العرب، وحول أرض العرب، بقدر صحة استخلاصها من مصادرها، وصدق الجهاد في استعادتها، والتقبل لها، والتوحد حولها، كما نحاول تفصيل الحيوي من ذلك ونقدم البرهان العلمي والتاريخي عليه في فصول هذا الكتاب.

يقول المؤرخ المصري محمد فريد أبو حديد في كتابه الفريد «أمتنا العربية»(*): «وأول ما يسترعي النظر في حياة العرب في حصنهم العظيم بالجزيرة العربية قيام نظامهم الاجتماعي على الرباط القبلي، فولاء الفرد لا يكون إلا لقبيلته، وولاؤه لها لا يقف عند حد... وإذا كان العربي يحمل هذا الولاء لقبيلته فإن قبيلته كذلك تحمل له ولاء مماثلاً، فهي المسئولة عن سلامته، وهي التي تحميه من كل اعتداء».

ثم يقول:

«وكان للفرد في القبيلة أن يجبر من ينزل بجواره، ويكون من واجب القبيلة أن تحمي ذلك الجار من كل اعتداء ما دام مقيماً بها، فإذا تبين لها أنه غير جدير بحمايتها أنذرته بأنها تريد أن تتخلى عن جواره، وتطلب منه أن ينزح عنها، ولكنها لا تسمح لأحد بالاعتداء عليه حتى يخرج عن جوارها..»

ثم يقول: «وكانت كل قبيلة ترشح من بينها سيداً لزعامتها، وهي لا تختار زعيمها إلا عن رضاء وطواعية، لما تجده من صفات السيادة وهي الصفات التي تعدها القبيلة ذروة فضائلها، فلا بد للزعيم أن يكون شجاعاً، وأن يمتاز بالحلم، وبالكرم، وبالمهارة في فنون القتال وقيادة

(*) طبعة دار المعارف من هذا الكتاب سنة 1961.. الصفحات من 43 و44 و45 وما بعدها.

المعارك. غير أن هذا الزعيم لا يكون حاكماً مسيطراً، فالحياة في الصحراء «تسوي» بين الأفراد. وكان لكل فرد في القبيلة حق الاشتراك في المناقشات المتصلة بمصالحها، وحق معارضة رأي الزعيم إذا بدا له أن رأيه غير حكيم، أو غير مناسب للظروف».

ثم يعرض المؤلف محمد فريد أبو حديد في كتابه إلى تمسك العرب بهذه الفضائل التي يدعو إلى مثلها الدين فهو يقول:

«فالكرم فضيلة ذات قيمة كبرى، لأنه يمثل فضل الفرد على غيره من الناس. وكذلك كانت المروءة، والشجاعة، والوفاء، والمحافظة على العهد، فهي جميعاً فضائل اجتماعية، لأنها تمثل فضل الخير في الفرد نحو غيره من الناس...».

وفي نفس موضوع الفضائل العربية يعود المؤلف فيقول عن العصر المسمى بالجاهلي في حياة العرب:

«فالعصر الجاهلي بالنسبة إلى الأمة العربية كان عصراً خصباً، حافلاً بصور المثل العربية العليا. وإليه يرجع الكثير مما تكونت به الشخصية العربية، وما تحددت به مقاييسها في القيم الاجتماعية والخلقية كالكرم والشجاعة والوفاء، وحفظ حرمة الجار، والأنفة من الذل، وبذل الحياة والأموال في سبيل المحافظة على الشرف، وتقديس معنى الحرية، والصبر على الشدائد..»

ثم يقول في عودته إلى طبيعة البيئة الصحراوية ومناخها ومعالمها بجزيرة العرب:

«ولا شك أن الصحراء كانت دائماً حصناً منيعاً للعرب، فليس فيها من الطعام والماء ما يكفي لمئونة جيش كبير، وليس فيها من العمران ما

يمكن لأعداء العرب أن يستظلوا به إذا أرادوا غزوهم، وكانت خيبة أبرهة الحبشي في محاولة هدم الكعبة وإخضاع قريش من أكبر الأحداث في نظر العرب عامة، حتى إنهم صاروا يؤرخون حوادثهم بعد ذلك بالنسبة إلى العام الذي سار فيه أبرهة بفيلته الضخمة لغزو مكة، وكانوا يسمونه عام الفيل..»

ثم يقول من ظواهر وكوامن التوجه نحو مستقبل الوحدة فيما بين قبائلهم برغم تنازعها:

«ومن المظاهر التي تدل على شعور العرب بوحدتهم في الجاهلية على رغم منافساتهم القبلية أنهم حاولوا تنظيم العلاقات بينهم حتى لا تقضي الفوضى الشاملة عليهم. فكانت القبائل تعقد المخالفات فيما بينها حتى لا يتجرأ أعداؤها على مهاجمتها منفردة، ولكن هذه المخالفات لم تؤد إلى منع الحروب فيما بينهم بل جعلت حروبهم تزداد شدة لوقوعها بين مجموعات متعادية من القبائل. على أننا نلاحظ أن شعور العرب بالعدالة كان عنصراً هاماً في حياتهم المضطربة، وفي عقد محالفاتهم أو نقضها».

ثم يقول في نفس المعنى:

«ولكن أكبر المظاهر الدالة على شعور العرب بوحدتهم كانت تتجلى حين تتعرض بعض القبائل لاعتداء أجنبي من إحدى الدول المحيطة بجزيتهم.. وكان من أوضح الأمثلة على شعورهم بالوحدة موقفهم من وقعة «ذي قار» التي وقعت بين الجيش الفارسي وبين بعض بطون قبيلة تغلب على الحدود الشمالية لجزيرة العرب. فقد اجتمعت قبائل الحدود ووقفت مع تغلب في شعاب ذي قار وأحرزوا فيها نصراً باهراً على الجيوش الضخمة ذات العددوالعدة...»

ثم يقول العالم المؤرخ محمد فريد أبو حديد فيما له مغزاه من استشهادنا بأقواله:

«وقد تجمعت آثار هذا الشعور وبلغت ذروتها قبيل الإسلام، حتى إنه ليحق أن نقول إن نفوس العرب كانت قد نضجت للوحدة في ذلك الوقت، وتبلورت فيها مواريث عصر البطولة الجاهلي، واستعدت للصقل والتهذيب وتحقيق «غاية» حين يتهيأ لها وجود الدافع الذي يدفعها إلى التجمع والتحرك. فليس ببعيد من هذا المعنى ما يردده مؤرخو العرب إذ يقولون «إن العرب كانوا يشعرون قبل ظهور الإسلام بقرب انبعاث رسول منهم، يجمع كلمتهم، ويوجه ما فيهم من قوى كامنة، وينقي حياتهم من شوائب الفوضى والقسوة والعنف، ويحقق آية مولد أمة عربية واحدة..»»

أليست مظاهر جاهلية اليوم أقرب. مع كوامن الخير فيها – إلى جاهلية الأمس.. وأليس طريق الوحدة والتجمع، والقوة والرشد، .. هو نفس الطريق.. ومن نفس هذا المصدر المنير والمضيء في آية الله المحفوظة في القرآن الكريم؟!



الفصل الرابع

مؤثرات العقل العربي تقود العالم

بصورتيه المتباعدتين :

أبناء إسماعيل وبني إسرائيل



يبقى بعد ذلك أن نقدم الجواب عن هذا السؤال القديم الجديد الذي تطرحه شعوب الأرض من غير العرب على نفسها مع تعاقب الأزمنة والعصور.. إنه السؤال الدائم عن هؤلاء العرب الذين أشرقت من آفاق بلادهم شمس الرسالات الدينية التي تنزل بها وحي الله تحت أسمائها المختلفة.. هذه الرسالات التي أثرت في مصائر هذه الشعوب شرقاً وغرباً.. أثرت في فكرها.. وفي لغاتها.. وفي معتقداتها.. وفي حضاراتها ومصائرها..

إنه السؤال المتجدد الصيغ، والمتعدد الأهداف بين كل من الفضول، أو التقدير، أو العداء.. إنه السؤال حول ما يمكن تسجيله من هذه الخصائص الغالبة على أخلاق وملكات وغايات هؤلاء العرب، أو هؤلاء «الساميين» كما انتقلت هذه التسمية الخاطئة عن العرب إلى العصر الحديث نقلاً عن سفر التكوين في العهد القديم من أسفار اليهود..

ويمضي السؤال بأصوله وفروعه، مسيطراً على اهتمامات المفكرين من الأصدقاء أو الأعداء، ومن الجادين المنصفين أو الغائبين الحاقدين، حتى ينتهي إلى هذه المواجهة الحتمية حول الشعوب الأجدر بقيادة حضارة العالم.. الشعوب التي تؤهلها أفكارها ومعتقداتها وقدراتها لكي تكون القدوة والأسوة لغيرها من الشعوب في بناء هذه الحضارة الإنسانية الراشدة، والمنشودة بالسواسية والعدل والإسلام، في أمل العالم وضميره وغايته منذ الإنسان الأول.. فمن تكون هذه الشعوب الأجدر بالقيادة الحضارية، والأسوة السلوكية.. هل هم العرب.. الساميون.. أم الأوربيون من أصلهم الهندي.. والآريون بشعارهم الاستعلائي العنصري..!؟

في الجواب عن هذا السؤال تدفق خيال التفلسف الأوربي وراء الجدران، وبجوار المدافئ، وبخاصة في العصر الحديث، عصر الثورة الصناعية والاستعمار، وعصر الصراع وراء شعارات المذاهب الاقتصادية

التسلطية للسيادة على العالم، وسرق موارد المستضعفين، وإبادتهم البطيئة بأحدث وأخبث الوسائل، كما أنه عصر سيطرة أدوات الرصد والتصنت، والإرهاب والتدمير، وغرائب الترف والشذوذ.. في هذا العصر تفجر الخيال الأوربي الجامح لكي يكرس الاعتقاد المتعسف – إلا في القليل منه – بأن «الساميين» أي العرب واليهود، جنس من البشر أدنى قدراً وفكراً وتحضراً وثقافة وفنوناً من «الآريين» الذين هم الهنود ومن خرجوا من أصلابهم من اليونان والرومان والجرمان وبقية الأوربيين.. بل لقد مضى أصحاب هذا الخيال الجامح الشاطح فحاولوا عندما وصلوا على موجات الاستعمار إلى أرض العرب في قلبها، وحتى الحافة من شرقها وغربها – أن يزرعوا بسيطرة الاحتلال الانجليزي والفرنسي على هذه الأوطان، وهيمنتهم على مناهج التعليم – مثل هذا الزعم الفاسد، والتزييف المتعمد لحقائق التاريخ، على الأجيال الناشئة من أبناء العرب، الذين حاولوا قطع الطريق بينهم وبين أصالتهم ومقوماتهم، بل قطع لسانهم العربي ليخرجوا مرة واحدة عن ذاتهم وحقيقتهم، كما فعلوا ذلك بكل الهمجية والوحشية حين فرضوا اللسان الفرنسي على الجزائريين في كل مراحل التعليم، وفي كل صور الحياة، حتى هوى الجزائريون فعلاً عن صهوة عروبتهم وجنسيتهم، وديانتهم وتراثهم، في أعماق ميتة فرنسية بشعة لم يتحقق لهم النشور منها إلا بعد ثورة فدائية باهظة الثمن، دفعوا فيها مليوناً من كرام الشهداء من الرجال والنساء..!!

الوحدانية والبساطة:

في هذا المجال للتهجم والانتقاص من العرب أو «الساميين» نعود إلى المستشرق الفرنسي إرنست رينان، الذي دار رأسه مدحاً وذماً في العرب، وإنصافاً وجهلاً بالإسلام، لنقدم من كلامه في مقدمة هذه الحملات

الهاذية المستعلية، التي يختلط فيها العلم بالجهل، والإنصاف بالجور، والمدح بالذم، وذلك حيث يقول في كتابه المشهور «تاريخ اللغات السامية»:

«الجنس السامي -أي العرب - أدنى من الجنس الآري إذا قورن به، ذلك أن الجنس السامي ليست له هذه الروحانية التي عرفها الهنود والألمان. وليس للجنس السامي هذا الإحساس بالجمال الذي بلغ حد الكمال عن اليونان. وليست له الحساسية الرقيقة العميقة التي هي الصفة الغالبة عند الكلتيين، أي سكان فرنسا والبلجيك. وإنما الساميون بديهتهم حاضرة ولكنها محدودة. وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب. فالتوحيد هو أهم خصائصهم. وهو الذي يلخص ويفسر جميع صفاتهم. ففخر الساميين في أنهم أول من عرف الوحدانية، وعنهم اخذ العالم الديانات. والصحراء هي ملهمة الوحدانية لمنظرها الواحد المتشابه الذي يوحي للإنسان بشعور اللانهائية. وذلك هو السبب في أن بلاد العرب كانت الطريق دائماً إلى الوحدانية الخالصة. إذن فمن الخطأ القول بأن الإسلام هو أول ما عرفه العرب من التوحيد، فعبادة الله الواحد كانت دائماً قوام الدين عندهم، والإصلاح الديني عند الساميين - العرب - كان دائماً عبارة عن الرجوع إلى دين إبراهيم. وإذن فالعبادة السامية الحقة لم تتعد مطلقاً دين إبراهيم البسيط، وهو دين خال من التعقيد، وليس له لاهوت دقيق معقد.. وميل العرب إلى التوحيد يفسر لنا السبب في أنهم لم يكونوا من أصحاب الميثولوجيا - أي الأساطير الدينية - مثل الآريين»!!.

بهذا المدح المتناقض مع أهدافه نحو الذم يقرر المستشرق الفرنسي رينان في ذروة تفوقه الآري، وبعد إدمان الدرس والتحليل للكتب والمصادر العربية والعبرية، يقرر في أعجب تناقض مع نفسه أن العرب الذين هم مصدر «الوحدانية الخالصة» في الإيمان بالله، والذين عنهم وحدهم تلقى

العالم الديانات ومع العالم هؤلاء الآريون – هؤلاء العرب أدنى في نظره الكليل من الجنس الآري، لأن الجنس الآري – كما يزعم – يمتاز بالإحساس بالجماع الذي بلغ حد الكمال، وبالحساسية الرقيقة العميقة... فهل التخلق بأخلاق الدين والالتزام بشرائعه – والعرب هم مصدر هذا الدين بجميع رسالاته إلى الآريين وإلى العالم – هل هذا الدين الداعي إلى وصايا المحبة والرحمة، والألفة والإيثار، والمساواة والعدل والسلام – يتنافى مع «الحساسية الرقيقة العميقة» ومع الإحساس بالجمال، بمعنى جمال الخلق في السموات والأرض، وليس جمال «الشهوات البهيمية والتماثيل والصور العارية..»؟!!

الوحدانية الخالصة التي هي في الديانات الثلاثة مشرق النور بدعوة الأخلاق والتعاطف والطهر والنقاء والصفح في العالم، والتي تنهج نهج دين إبراهيم البسيط... هل هذه الوحدانية المشعة بنورانيتها عبر عصور التاريخ، باتجاه كل العالم، والتي لا تزال هي العصمة من البغي والحقد والتظالم، ومن العدوان والاستغلال والتفرق، ومن الخمر والجنس والعنف.. هل هي المبرر المعقول لدى الآريين لكي يكون العرب أدنى في القدرات الإنسانية منهم، وأقل في المؤثرات البانية لآمال البشر في العدل والسلام والمحبة، وفي العلم والعمران والتقدم، بالنسبة إليهم..؟!

إذن فهل يستطيع رينان وغيره – ممن قرءوا تاريخ الآرية القديم والمعاصر، كما قرءوا وعاينوا في بلادهم آثار العرب العالمية والعمرانية والدينية والثقافية.. أن يجيبنا عن هذه الأسئلة البسيطة حول حياة هؤلاء العرب، مصدر الوحدانية البسيطة بغير تعقيد منذ فجر التاريخ إلى اليوم... وهل فيها مثال واحد من هذه الموبقات الثقيلة، والوحشيات المتتابعة، وحتى

اليوم، في جميع مراحل هؤلاء الآريين.. ذوي الحساسية الرقيقة العميقة..!؟..
إننا نسأل رينان وجميع من هم على شاكلته:

هل ظهر على أرض العرب في كل عصورهم التاريخية، السابقة كثيراً للهند واليونان وغيرهم من الآريين.. هل ظهر مثل مدرج روما المسمى Collosseum.. والذي كان جمهور روما – الرقيق الإحساس جداً – يشهد فيه بحضور الإمبراطور الاحتفال بطرح الأسرى والمحكوم عليهم ظلماً بالموت، ليموتوا رعباً ونهشاً بأنياب الأسود المعدة لذلك، في حين أن الإمبراطور المفترس المجنون يقهقه فرحاً بسلطانه، وفخوراً بدمويته، ومن حوله رعاياه المفترسون الصغار يضجون بالفرح الوحشي تحت أقدام سيدهم..!؟

هل ظهر بين العرب في كل تاريخهم الديني المنير، وبرغم عصور غفلاتهم ومنازعاتهم التي يفيقون سريعاً بعدها.. هل ظهر بينهم مثل المجنون المتوحش.. الإمبراطور «نيرون».. الذي أحرق روما بعد أن طال البغي بها ومنها.. في حين جلس هو على قمة منها يقهقه بفرحه الجنوني، ويسكر من سعادته الوحشية، وهو يرى النيران بوحوش اللهب، وأنياب الشرو، تلتهم رعاياه، وتدمر عاصمة مظالمه.. ومظالم الذين سبقوه..!!؟

وإذا تخطينا التاريخ الأسود لعصر النبلاء، وقصص التجارة بصكوك الغفران، وما بعد ذلك من ولوغ «ذو الحساسية الرقيقة» من الآريين في دماء بعضهم، ودماء من حولهم، حتى نصل إلى العصر الحديث.. عصر الاستعمار.. ثم نكتفي بوصمة الأبد، وعار الماضي والحاضر والمستقبل، في وجه الآريين الإنجليز، الذين مارسوا بعد الكشف عن القارة الأمريكية وحشية سرقة البشر من الأفارقة السود، في أفظع وأقسى وأخبث تجارة ببني الإنسان.. والذين عدا القتل، وهتك الأعراض، ومواصلة

التعذيب خلال نقل الشحنات الآدمية المسروقة إلى أمريكا، بما انتهى إلى قتل الملايين منهم قتلاً أو غرقاً – فإنهم وهم يبيعونهم بعد عزل الأم عن بناتها، وعزل الرجال والشباب عن ذويهم. كانوا يسلمونهم إلى المستعمرين المتوحشين الأوربيين «الآريين» الذين اغتصبوا أرض أمريكا بإبادة الهنود الحمر سكانها الأصليين.. كانوا يسلمونهم إلى السخرة القاتلة من الإجهاد، وإلى الإذلال الخالي من أي هدف إلا الافتراس، والمتعة بالقتل، وسلب الإرادة واغتصاب المتعة البهيمية..!!

فهل.. والكلام لرينان، وللكثير من الذين وقفوا ويقفون في صف الانتقاص من العرب، بل والادعاء بالمفتريات والأكاذيب عليهم.. هل في كل تاريخ العرب منذ فجر هذا التاريخ.. شيء مهما قل من مثل هذا العار الأبدي..!؟

وأخيراً وقد جاء دور القصاص الإلهي من هذه الحضارة الآرية العدوانية الوحشية، بما هو ظاهر في كل مكان شرقاً وغرباً من بوادر انهيارها.. فهل اتعظ الآريون.. وهل حدث في أي مرحلة من مراحل اتساع مدى الحضارة العربية الإسلامية، وتوهج إشراقها حتى أطراف العالم.. هل حدث ما هو قريب الصلة أو بعيدها بمثل ما شهدناه ونشهده في هذا العصر، من التجارة بالحروب، والأسلحة والغزو المخطط لإبادة الشعوب الصغيرة، والغزو الفكري والاقتصادي في محاولة يائسة لتقويض صرح الوجود العربي في العالم.. واغتصاب أرض العرب.. وتهديد الإسلام..!!!؟

الآريون والفلسفة:

ثم يمضي رينان بهذا الاختلاط العقلي الآري – بما هو فيه مثال على غيره من رفاقه – فيقول عن العرب من الذم الذي هو بموازين العلم والعقل مدح لا ريب فيه:

«يبدو أن التفكير الفلسفي للبحث «الحقيقة!» كان وقفاً على الجنس المسمى بالهندي الأوربي، أو الآري، الذي يمتد من الهند إلى أقصى الغرب، وإلى أقصى الشمال، والذي كان يبحث منذ أقدم العصور إلى الآن في تفسير الخالق والإنسان والعالم تفسيراً عقلياً. وقد ترك وراءه في كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقي. أما العرب الساميون فإنهم بدون تفكير أو تدليل – أي بدون فلسفة – قد وصلوا إلى صفى وأنقى صورة دينية عرفها التاري»..!!

ثم يمضي رينان أيضاً فيعلل هذا الترقي – بغير فلسفة – إلى أصفى وأنقى صورة دينية عرفها التاريخ – بأنه قصور عند العرب عن نعمة «الدهشة» التي يتمتع بها الآريون.. فهو يمدحهم تحت توهمه بأنه يذمهم فيقول: «العرب تنقصهم الدهشة التي تدعو إلى التساؤل، والتفكير، لأن اعتقادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء»!!

وبالطبع فإن رينان، الفيلسوف الآري الفرنسي، الواسع الاطلاع في اللغات السامية العربية والعبرية وغيرها قد حاول قراءة القرآن الكريم، ولكنه لم يستطع كعادته، وبمنهجه الآري، أن يحسن «التفكير» فيه.. وبالتحقيق فإنه لم يفهم أن «التفكر في آيات الله» كما أوضحنا قبل – هو أول الطريق العلمي والحسي إلى التيقن بهذا البرهان المتجدد في حركة السموات والأرض على الله.. كما أنه على التحقيق لم يتسع بتفكيره الآري «الرقيق جداً» أن يفهم أن «التسبيح» في بيان القرآن الكريم هو اقتران دهشة المؤمن مما يراه من عجائب وبدائع خلق الله وآياته بهذا الإيمان المشرق على قلبه، وعقله. والذي تتحول به الدهشة في نور اليقين، إلى حمد لله على نعمه، وإلى تسبيح له بتمجيد آلائه، وإلى حث الخطى بالتفكير

والسعي إلى المزيد من الإيمان به، ومن العلم المقرب إليه، ومن الدعاء المستجاب به.. سبحانه وتعالى عما يشركون.. وعما يصفون!!

العرب واليهود:

والآن في مواجهة هذه الآراء الانتقاصية للعقل العربي وخصائصه وقدراته، نلخص الحقيقة التي يتعامى عنها، قصوراً وخلطاً، هؤلاء الدعائيون لتفوق الرجل الأبيض بفلسفته وأساطيره، وهي أن العرب منذ فجر التاريخ أقاموا بالدين، والعقل، والعلم، أقدم الحضارات الإنسانية العمرانية المؤمنة.. هذه الحضارات التي كانت بامتدادها من الجزيرة العربية باتجاه أحواض الأنهار في مصر والشام، ثم آخر الأمر باتجاه شعوب الهند واليونان، الذين نقلوا عناصر حضارتهم الأولى – في حدود مدركاتهم الآرية – من أصول عربية كنعانية ومصرية.

هذه الحضارة العربية الأم، بالنسبة لكل العالم، انبثقت من جنوب اليمن، حيث بلغ الرقي الحضاري والمعماري وباختراع الكتابة وغيرها من أدوات الثقافة – قبل ظهور اليونان بآلاف السنين – حداً في أرض عاد كانت به أصلاً – في موجات الهجرة إلى أرجاء الوطن العربي – لحضارة قدماء المصريين، وحيث لا يزال علماء الآثار يجدون من هذه الدلائل في تنقيبهم بمواضع حضارتها البائدة ما يؤكد هذه الحقيقة ويزيدها وضوحاً. ولقد نزل القرآن الكريم بما يجعل ذلك غير موضع للشك، حيث يقول تعالى في ذكر وترتيب ظهور الحضارات العربية الأولى بدلالة مبانيها الشامخة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: 6- 10]

وعندما جاء وعد الله ببلوغ هذه الحضارات الدينية مبلغ الكمال والرشد، والتحصن من مخاطر الفتنة بالترف، الأمر الذي انهارت بسببه هذه الحضارات اليانعة بضربات إلهية – ظهر في مكة محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم النبيين، ليقود العرب في نور القرآن، ومحكم شرعه، إلى هذه الوحدة الأولى من نوعها بين المؤمنين.. الوحدة المنتصرة بالحق، والمؤتلفة بالصدق، والمشرقة بوفرة العطاء، والباقية بخلود مصدرها في القرآن. وبذلك قام على الأرض، وفوق جزيرة العرب وكافة أرجاء الوطن العربي، أول مجتمع كامل للمؤمنين يقوم على نظام ودولة، وعلى كتاب وأمة، وعلى دعوة وأسوة..

الطريق التحريفي لليهود:

كان انتصار الإسلام في دعوة محمد هو تمام الوعد لإبراهيم من الله بأن تكون الرسالة الخاتمة، والمهيمنة على ما سبقها من الرسالات التي نزلت على أبناء إسحاق هي للرسول المصطفى من أبناء إسماعيل، وهي ببيانها العربي المبين أمانة هؤلاء العرب ومن والاهم وناصرهم من المسلمين، وممن هداهم الله إلى الإيمان بها من أهل الكتاب، الذين صدقوا بهذه الرسالة إلى محمد، كما صدقوا بما نزل من هذا الحق على موسى وعيسى، وقالوا: كل من عند ربنا.

ولكن بعض اليهود العرب مالوا بأطماعهم، وغرورهم، وبسبب خضوعهم الطويل لمن أذلهم، إلى تصديق ما أدخله الأحبار منهم، وعلى أزمان متلاحقة، من التحريف لما نزل إليهم من الله. وبذلك فقد جنحوا بعيداً.. مع تعاقب العصور وتوالي الضربات – عن دعوة إبراهيم وعن وصايا الله إلى موسى، متوجهين ومتساقطين بعنصريتهم فوق هذا المنزلق من «الصهيونية» العنصرية والعدوانية الكهنوتية، التي يرون بها – مثل الآريين

وأكثر منهم – أنهم أحق البشر بسيادة العالم، وذلك لمحض أنهم «أبناء إبراهيم»، وليس لأنهم المؤمنون الصادقون والعاملون بدين إبراهيم!

في نشوة الوهم بهذا التفوق العنصري، وبمجرد عصبية الانتماء إلى رسول أو جنس، هذا الوهم الذي ظهرت أعراضه منذ البداية في رحلة خروجهم الظافر من مصر، ومن نير فرعون، بقيادة موسى، بدءوا وهم على طريق الخروج فآذوا موسى بمعصيته، وعبدوا العجل الذهبي رمزاً لما أشربت به قلوبهم من حب المتاع، ونزعة التسلط بقول المال، وبسبب ذلك، وما لقيه المسيح من بعد من إيذائهم، وما لقيته البارة البتول مريم من غطرستهم وتقولاتهم – غضب الله عليهم، وتلقوا من الضربات المنذرة ما تلقاه غيرهم من العرب عندما كانوا يكذبون رسلهم، ويجحدون بآيات الله ونعمته عليهم..

وهكذا حين كان حواريو المسيح وتلاميذه ينشرون المسيحية من بعده في الأرض، وقع الشتات الكبير على بني إسرائيل ابتداء من سنة 70 ميلادية حيث أحرق الرومان أورشليم بقيادة تيطس بن فسباسيا قائد نيرون، إلى أن جاءت الضربة القاصمة على يد الإمبراطور هادريان الذي استأصل الوجود اليهودي من القدس وفلسطين، لكي يتشتتوا بعد ذلك في الأرض، في مرحلة من مراحل عقاب الله الراصد لهم، ولتحريفاتهم وغرورهم وعدوانهم...

على أن هذا الشتات والضياع لم تلبث آثارهما أن خفت عن اليهود باتساع صدر العرب لأبناء عمهم. ثم ظهر الإسلام واليهود يحلمون بإقامة «دولة مستوطنات» لهم بالمدينة، وخيبر، وتيماء وشمال الحجاز، زحفاً بظهورهم باتجاه فلسطين. فلم يتردد محرفوهم، ومتغطرسوهم، وعبدة العجل منهم في أن ينقضوا مواثيقهم مع رسول الله، وأن يظهروا ويبطنوا

الكيد للمسلمين، فكان ما شاء الله من اقتلاع مستوطناتهم، واجتثاث جذورهم من الحجاز، وعودهم بعد هذه الضربة القاصمة لأوهامهم إلى التجوال الهائم والمتربص بأرض العرب بالشام، والعراق، وبالمغرب العربي..!!

ومع كل ذلك فقد عاد العرب المسلمون فاتسعت صدورهم وأحلامهم مرة أخرى لهؤلاء المحرفين لما نزل إليهم من الله، والطامعين بنوبات الحمى الصهيونية التي تعتريهم، فتذهب بصوابهم، في أن يسودا العالم، وحتى أرض الوطن العربي، بل ارتكازاً على نقطة مركزية تأخذ في التوسع والاتساع حتى تستوعب بالقوة أو بالغدر أو بالكيد.. ما بين «النيل والفرات»!!

لقد اتسعت صدور العرب المسلمين لأبناء عمهم اليهود، مراعين الأواصر القديمة منذ إبراهيم، وناظرين إلى وداعة قلة منهم مؤمنة بصدق ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم من الدين والكتاب — فأفسحوا لهم مجال الأعمال، وأظلوهم بظل وصية الله بأهل الكتاب، فعاشوا أطيب العيش في سعة هذا الأمن السابغ، يتاجرون ويربحون، ويتنقلون ويستثمرون، مع إعفائهم من القتال مقابل جزية قليلة تؤدى لتقابل معنى الإقرار بسيادة الدولة العربية، التي اتسعت للصفح عنهم، ولحرية حركتهم ونشاطهم..

ولقد كان عصرهم الذهبي في ظل الحكم العربي الإسلامي في الأندلس، حيث لم يتركوا فناً من فنون الاستغلال، وعملاً من أعمال التفرقة، والتجارة في سوق اللهو والمتاع، وتنمية الشعور العدواني بينهم من جديد بتحريفات التفوق العنصرية الصهيونية، حتى أجهزوا على هذه الدولة الزاهرة في إسبانيا.. هذه الدولة العربية الإسلامية التي تحقق بها لأول مرة تعريب قطر أوروبي بأكمله تحت اسم الأندلس بعد أن كان يشتمل على

إسبانيا والبرتغال.. لقد أجهزوا بالموت البطيء، والتمزق المتلاحق، على هذه الدولة التي أضاعها العمران العربي ثمانية قورن متوالية فوق ظلمات أوروبا في عصورها الوسطى.. فكان أن لحقتهم على جريمتهم هذه نفس ضربات الله القاصمة بشتاتهم!!

لقد كانوا هم أول الغرقى، وأذل الضحايا، فمضت بقاياهم، وشواردهم حاملة على نفس طريقة الخروج من مصر مسروقاتهم من بقايا الأرض التي احترقت بهم، إلى حيث لاقوا الاغتراب في حارات اليهود في أوروبا أو «الجيتو» قروناً طويلة قبل أن تعود الحياة مرة أخرى، وفي امتحان جديد للحية الصهيونية السامة، التي أخذوا تحت شعارها، وبتدبير متواصل، وغيبة كاملة عن الوعي، وعن العظة بما كان، يؤسسون للصهيونية الغاشمة المعاصرة.. يؤسسون لها من أول حاييم مونتيفيوري 1827 وحتى حركة بيلو سنة 1882 وحتى تيودور هرتزل بمؤتمر بال سنة 1897 ثم إلى بن غوريون، ومن ثم إلى مناحيم بيحن، باتجاه اغتصاب فلسطين، والقدس، ومحاولة بناء دولة التحريفات التي تتسع فوق أرض العرب حتى تستوعب: من النيل إلى الفرات..!!

على أننا سنترك هذا الآن، واثقين من أن الخيار سيكون للإسرائيليين أنفسهم، فيما بين ضربة شتات جديدة ستصيبهم ولا ريب إذا أصروا على مواقفهم من الاغتصاب لحقوق الفلسطينيين، ومع الطمع في أرض العرب، ومن اعتبار «القدس العربية» عاصمة أبدية لهم، وهذا إذا ما استبد بالرأي فيهم قادة هذه الصهيونية من الأوروبيين المتهودين، أو من اليهود الأوروبيين، دون هذه القلة الموادعة من اليهود العرب أو الشرقيين، الذين لا يطلبون أكثر من الأمن الذي ألفوه بين أبناء عمهم العرب، ومن العيش معهم مرة أخرى تحت ظلال سلام لا عدوان فيه، ولا عنصرية، ولا

توسع بدولة خرافية على أرض العرب، دولة إسرائيل الكبرى الوهمية... من النيل إلى الفرات!!

إننا نترك هذا الآن لنواجه معاً نحن واليهود هذا لادعاء الآري بالانتقاص من العقل السامي العربي، الذي قدم للعالم ما هو بأشد الحاجة إليه من الدين الحق، ومن الوحدانية الخالصة، لننظر ماذا قد الآريون لأنفسهم أمام سيطرة اليهود العلمية، والمالية، والفلسفية، والسياسية، عليهم منذ استوعبوا حياة الأوروبيين وتكيفوا بها بعد شتاتهم الأليم من الأندلس منذ القرن الخامس عشر..

نعم.. لقد عاش العرب أمناء على أمانة الدين الحق، المستقر على مصدره المبين والخالد في القرآن الكريم.. لقد عاشوا عصورهم كلها، حتى في فترات الغفلة أو الضعف، لا يحرفون الدين، ولا يغيرون من أهدافه، ولا يستعلون على أحد به عربياً كان أو أعجمياً.. في حين عاش اليهود في مراحل النوبات والحمى بتحريفاتهم، وعنصرية صهيونيتهم، يستغلون الدين ولا يعملون به، ويتعاظمون بالانتساب إلى إبراهيم ولا يصدقون الإتباع له.. ومع ذلك فالسؤال الآن هو ادعاء الآريين أنهم فوق العقل العربي والسامي.. فأين كانوا حينما لعب اليهود بعقولهم، وتاجروا بأحاسيسهم «الرقيقة العميقة» وحكموهم من وراء الأستار، بأشتات من بقايا العلوم العربية في ذاكرتهم، وبمخططات من وساوس السيادة على كل العالم باسم «اليهود» أبناء إبراهيم وإسحاق، حتى صار الأوربيون بالنسبة إلى سلطانهم الخفي يتحركون حركة التابع الخاضع تجاه المتبوع المطاع. وليس أدل على ذلك من انتشار التنظيمات السرية الغربية، الأوروبية في ظاهرها، والصهيونية في قيادتها وأهدافها، وهي التنظيمات القديمة والمعاصرة المنبثقة من ظلمات أوهام المتشبثين بعودة هيكل سليمان،

وتسخير الجن من شعوب الأرض، وبناة الماسونية، وفزوعها، واليونيتيريانز، والهوسبيتالرز.. إلى آخر ما لا ينفد من نفثات الحية السامة، وجعبة الحاوي..!!

اليهود في أوروبا:

وعندما نورد شهادة الشهود الأوروبيون على سيادة اليهود على الفكر الأوروبي الحديث، وعلى النشاط الحضاري المعاصر للأوروبيين، من أقصى الشرق في روسيا السوفييتية وحتى أقصى الغرب عند الساحل الغربي لأمريكا العلمانية – وذلك بعد مرحلة سيادة الحضارة العربية والعلوم والثقافة واللغة العربية على أوروبا في بواكير عصر نهضتها، وخروجها من ظلمات عصورها الوسطى بهذا الأثر العربي – أقول إننا حول سيادة الفكر اليهودي على أوروبا وأمريكا في القرنين الأخيرين نبدأ بالاستماع إلى شهادة المستشرق الفرنسي يوسف إرنست يونان نفسه، والذي يحمل اسم أحد أبناء يعقوب اليهود، عن هؤلاء اليهود «الساميين» والعرب في حقيقة جذورهم، بعد أن نقلنا رأيه المختلط عقلياً وهو يقرر «أن العقل السامي العربي أدنى من العقل الأوربي الآري».. إنه يقول مسترسلاً مع حيراته وتناقضاته بغير شعور بالخجل من هذا التناقض، وكأنه لا يقرأ ما يكتبه، وإذا قرأه فإنه لا يعرضه على ضميره.

إنه يقول: «وليس في ماضي النوع الإنساني ما يثير اهتمام الفكر الفلسفي سوى تاريخ ثلاثة شعوب: تاريخ إسرائيل، والتاريخ الإغريقي، والتاريخ الروماني»!!

بأمثال هذه الشهادة من أقوال عدد من المفكرين الأوربيين البارزين في العصر الحديث تظهر سطوة هذا التأثير اليهودي على تركيب وقيادة العقلية الأوربية بكل ما تنساق إليه بهذا التأثير من فلسفاتها ومذاهبها

وأيدلوجياتها المعاصرة بما يقطع بهذا التأثير المتفوق، والأعلى، وإن يكن باتجاه السيطرة بوسائل الغواية والتحريف، وليس بالدين الحق، لهذا الفكر السامي «العربي» في صورة جنوحه الصهيونية على أصالته على كل أوجه النشاط الأوربي والأمريكي المعاصر..!

فهذا هو تولستوي عملاق القصة الروسية يقول من تصوره – وهو غارق تحت الضباب والثلوج – لأهمية التأثير اليهودي على معتقدات العالم.. وبالطبع روسيا.. على الأقل ابتداء من راسبوتين.. إنه يقول:

«اليهودي هو المنهل الذي اغترفت منه جميع الشعوب عقائدها»!!

ويقول جورج إليوت القصاص الإنجليزي في مبالغة تحكي عمق تأثر الإنجليز باليهود قرابة ثلاثة قرون متوالية:

«الجنس اليهودي لا يزال بمثابة القلب الخفاق في الحياة البشرية، بل هو الذي يظهرها العالم تحت ردائه المنطقي المعقول»!

ويشرح هوكسلي أحد العلماء النظريين لعلم الأحياء هذا السر وراء مبالغة إليوت فيقول:

«تأمل تلك الحقيقة التاريخية الثابتة وهي أن التوراة في مدى ثلاثة قرون قد نسجت خيوطها في حياة إنجلترا وتاريخها، وامتزجت بكل ما فيها من شعور، بل أصبحت رمزاً لتفوق بريطانيا القومي»!

ويقول القصاص الإنجليزي أيضاً وولتر سكوت في كلمات رمزية مبهورة غير مفهومة:

«التوراة هي الكتاب الرهيب الذي يحوي سر الأسرار الإلهية»!!

الفلسفة الأوربية الحديثة:

وننتقل من شهادة هؤلاء الشهود على مدى تأثير العقل اليهودي السامي العربي على المسار العقلي والثقافي والسياسي لأوربا في العصر الحديث – إلى إلقاء نظرة فاحصة وإن تكن عابرة إلى هذا الواقع الجلي من سيطرة العقلية اليهودية الصهيونية، الجانحة بأهوائها، على الفكر الأوربي، وعلى الفلسفة الأوربية التي هي فخر الأوروبيين الآريين منذ عصر اليونان كما يزعمون، هذه الفلسفة التي يرجع أكثرها منذ القرن السابع عشر إلى فلاسفة يهود، وليس إلى فلاسفة آريين أوروبيين!!

ونبدأ فنتذكر كيف بدأ القرن السابع عشر – بعد سقوط الحكم العربي في الأندلس وهجرة يهودها ومعهم محفوظاتهم ومقتبساتهم عن فكر وعلوم الحضارة العربية بها إلى أوروبا – بظهور الفيلسوف اليهودي «باروخ سبينوزا» الذي ولد في أمستردام من أبوين يهوديين كانا قد فرا من الاضطهاد في البرتغال في نهاية القرن السادس عشر، وهما أصلاً من يهود إسبانيا أو الأندلس، وقد تربى سبينوزا الذي يحمل اسمه العبري «باروخ» تربية يهودية، فتعلم الإسبانية والبرتغالية والعبرية، كما تلقى قسطاً كبيراً من علومه على يد الحاخام منشه بن إسرائيل وهو الذي تفاوض مع كرومويل بشأن عودة اليهود ثانية إلى إنجلترا بعد طردهم منها.

الحرب النفسية:

على أنه لا يمكن أن يمر السرد التاريخي لحركة السيادة الفلسفية اليهودية على أوروبا، لتشكيل عقليتها «يهودياً»، وللسيطرة على حركتها، وابتزاز جهودها وأموالها «صهيونياً»، دون أن نتذكر ما توصل إليه الدهاء الصهيوني في جنوحه عن الحق، وطموحه إلى الأوهام، وذلك عندما ظهر أول تفجير وأخطره للحرب النفسية على أوروبا، وجميع

المتأثرين بها، أي عندما ظهر العالم النفسي، اليهودي النمساوي، الساحر والمضلل، وناشر الأمراض النفسية على أوسع نطاق: سيجموند فرويد!!

ظهر سيجموند فرويد المولود سنة 1856 والمتوفى سنة 1839، والذي جعل من نظريته الخداعية والمشوشة عن «النفس والجنس» وعن «القلق والكبت» وعن «العقل الباطن واللاشعور» تيهاً مخوفاً، ومصدراً خفياً لتفجير القلق، وبث المرض به، وبالكثير من «العقد» التي صاغها بمعادلاته الانقلابية التي جعل بها «الجنس» – هو المحور الذي يهدم به كل القوانين التي تحكم سعي الإنسان لحفظ النوع، بعد سعيه لحفظ الذات – محكوماً هذا السعي بفطرته التي توجهه إلى الإيمان بالله، والالتزام بشرائعه.

لقد قلب فرويد كل هذه القوانين رأساً على عقب، ونفخ في بوقه الساحر لتتحول الشهوات الجسدية إلى قردة تسيطر على حياة الإنسان وتقوده من غرائزه، ومن غواية تحرض على الفسق والعهر، بل وإلى إرهاب وتهديد لكل «المتطهرين» بالدين، وبالأمانة تجاه المجتمع، بأنهم سيهلكون بأمراض القلق والكبت و «الطهارة الجسدية» والصراعات الخفية فيما زعم أنه «العقل الباطن»! أي هذا – العقل الذي يجلس فيه فرويد القرفصاء لينفث أكاذيبه، وكأن الكبت، والقلق، وغيبة الشعور من وطأة الاستغلال الطبقي، وفقدان حرية الإرادة والتعبير، ليست كلها، أو أكثرها، من آثار النظم التعسفية التي تؤيدها الصهيونية اليهودية بكل جهودها تحت شعار الشيوعية الإلحادية التي تقدم الخبز وتمنع الحرية، والرأسمالية الاستغلالية العلمانية، التي تقدم الحرية، بعض الحرية، وتمنع الخبز، الذي تسرقه من عرق العامة والمستضعفين والأجراء..!!

وعلى الطرف المقابل من ذلك تظهر فلسفة المتهوس الممسوس اليهودي برجسون، الذي ينتشر – بدعوى محاربة المادية بالروحية – إحدى الفلسفات الرمزية، الشتاتية، البالغة حد الذهول في عقمها ووهمها، ولكن أصحاب الفكر الآري المتفوق يغرقون سعداء في سرابه، لأنه من الفكر السامي الذي زعم رينان أنه أدنى من الفكر الآري الأوروبي!

على أن سبينوزا، في أول المواجهة بين اليهود النازحين في ضربة الشتات الأليمة بالأندلس وبين أوروبا في مطالع نهضتها بعصرها الحديث – يبقى بكناياته المميزة له، وغير المألوفة في الفلسفة الأوروبية منذ اليونان، هو مؤسس المدرسة الحديثة للفلسفة الأوروبية بشهادة من جاءوا بعده..

لقد كانت كتبه المشهورة: «رسالة موجزة عن الله والإنسان وسعادته» و«رسالة في إصلاح العقل» و«الأخلاق» تؤكد نجاح جهوده الفكرية في صياغة ما نقلته أسرته إليه من خلاصات الكتب التي وضعها يهود الأندلس تلخيصاً، أو تهويداً، للثقافة العربية وعلومها في الأندلس، من أمثال ابن ميمون، وابن عزرا، وموسى القرطبي، لتكون مقبولة لدى الأوروبيين، وقادرة على تشكيل وتوجيه «التفلسف الأوروبي» باتجاهات ومذاقات وأهداف يهودية قريبة وبعيدة!

وهكذا عندما جاء الفيلسوف اليهودي الألماني الشهير هيجل بادر بتأكيد القيمة الفكرية والفسلفية لابن جنسيته سبينوزا، ومضى يحرض ونصح المثقفين الأوروبيين بقراءته، وهو يقول للناشئين منهم في حقل الفلسفة: «لن تكون فيلسوفاً حتى تقرأ سبينوزا أولاً»!!

ثم يتوالى بعد ذلك ظهور الفلاسفة في ألمانيا بعد أن أصبحت شبه مزرعة تجارب لبذور العقلية اليهودية «السامية» بعد أن كثر ارتحال الأسر اليهودية المضطهدة إليها، فظهر من هؤلاء الفلاسفة «كانت» في

كونجزبرج سنة 1724، وجوته الشاعر والفيلسوف اليهودي في فرانكفورت سنة 1749. وهيجل اليهودي في شتوتجارت سنة 1770، وشوبنهور في دانزج سنة 1788، ونيتشه في روكن سنة 1844..

وبقدر ما كان سبينوزا هو البوابة لنشاط الفلسفة اليهودية في أوروبا بطابعها «السامي» أو العربي برغم جنوحه وتحريفه، فقد جاء من بعده كل من الفيلسوفين اليهوديين: كارل ماركس – تريف سنة 1818، وماكس نوردو – بودابست سنة 1849، ليضعا ختاماً لهذه المرحلة النظرية، وليبدآ مرحلة المذاهب السياسية التطبيقية الواسعة، القابلة لإغراء الجماهير، وعشاق التزعم، بشعاراتها الاجتماعية المرتكزة إلى حقوق إنسانية، و«الملغمة» في أعماقها بمصطلحات ومخططات ورموز تساعد على استغلال اليهود وسيطرتهم على قادتها.. دائماً.. وحتى اليوم..!!

أما كارل ماركس فقد وضع بذور «الفلسفة المادية الشرعية» في كتابه «رأس المال» – وأما ماكس نوردو فقد وضع اللمسات الأخيرة في مخطط الغزو الصهيوني لفلسطين، واغتصاب وطن قومي على أرض العرب يكون المقدمة سهلة الابتلاع بالنسبة للشعوب العربية.. باتجاه «إسرائيل الكبرى» وذلك في كتابه «الانحلال» الذي أصبح بعده من أكبر أعوان هرتزل عندما بدأ برحلة التحرك باتجاه إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين.

أما في القاع الجماهيري لأوروبا وأمريكا، حيث تختفي وراء السحب قمم هذه الفلسفات ليظهر النشاط اليهودي الأوروبي، وفي العالم المعاصر، بقوة التلقين في الصحف، وعلى شاشات السينما، وفي القصص الهابطة السريعة التداول، فلا تزال الجماهير هناك وهنا إلى حد ما – تتقلب باستسلام وعجز، بل وفي فرح بائس، وتعاسة ضاحكة بلهاء، تحت نير هذه المعايشة اليومية لحصاد هذه الفلسفات والنظريات والمخططات

الصهيونية، التي ساد بها التأثير الصهيوني على أوروبا، وعلى من تأثر بها.. بغير اتجاه ظاهر إلى هذه الهاوية التي لا قرار لها، والتي أصبح العالم في أحداثه الأخيرة يندفع إليها.. ما لم يتداركه الله برحمته، فيرجع الصهاينة عن غوايتهم، أو تقع ضربة الشتات القاصمة والقادمة على رءوسهم..!!

فهل تقع هذه الآية قريباً.. هل تثوب الصهيونية اليهودية الأوروبية إلى بقية الرشد، وهل ترجع عن نهاية الشوط.. وهي التي نراها لا تقدم بضاعتها السرابية الوهمية القاتلة، ليهود العالم وسكان إسرائيل، الذين تعدهم لمخططات السيادة «المنتظرة» على جميع العالم عندما يغرق في هذه التيارات المتلاحقة من تحريفاتها وأوهامها..

هل يجتهد هذا الفرع السامي، العربي، من أبناء إسحاق ويعقوب، أن يستقي نفسه، عائداً إلى أقرب ما يربطه من الأواصر والمعايشة مع أبناء عمه العرب.. عائداً بغير عنصرية ولا توسع، وبغير خداع ولا تربص؟... عندئذ ولا شك سيتحقق له السلام الدائم بغير ضربات.. عندئذ سيعود إلى وعيه لحظات نادرة في الزمن، ليجد أن هؤلاء العرب – كما يعرفهم وإن أنكر أو تغابى فزمجر – هم الحق الأبقى.. والأصل الأوفى.. والرؤية الأبعد

نعم.. سيجدهم – كما حدث مراراً – هم اليد البيضاء، الممدودة له في ظل التعايش الآمن من أية حروب بشرية، أو ضربات إلاهية.. اليد الممدودة في عزة الصفح، ورحمة القربى، وجناح السلام.. السلام الذي عاش له وبه الأنبياء قبل إبراهيم.. وبعد إبراهيم..

فهل.. وهل..!؟

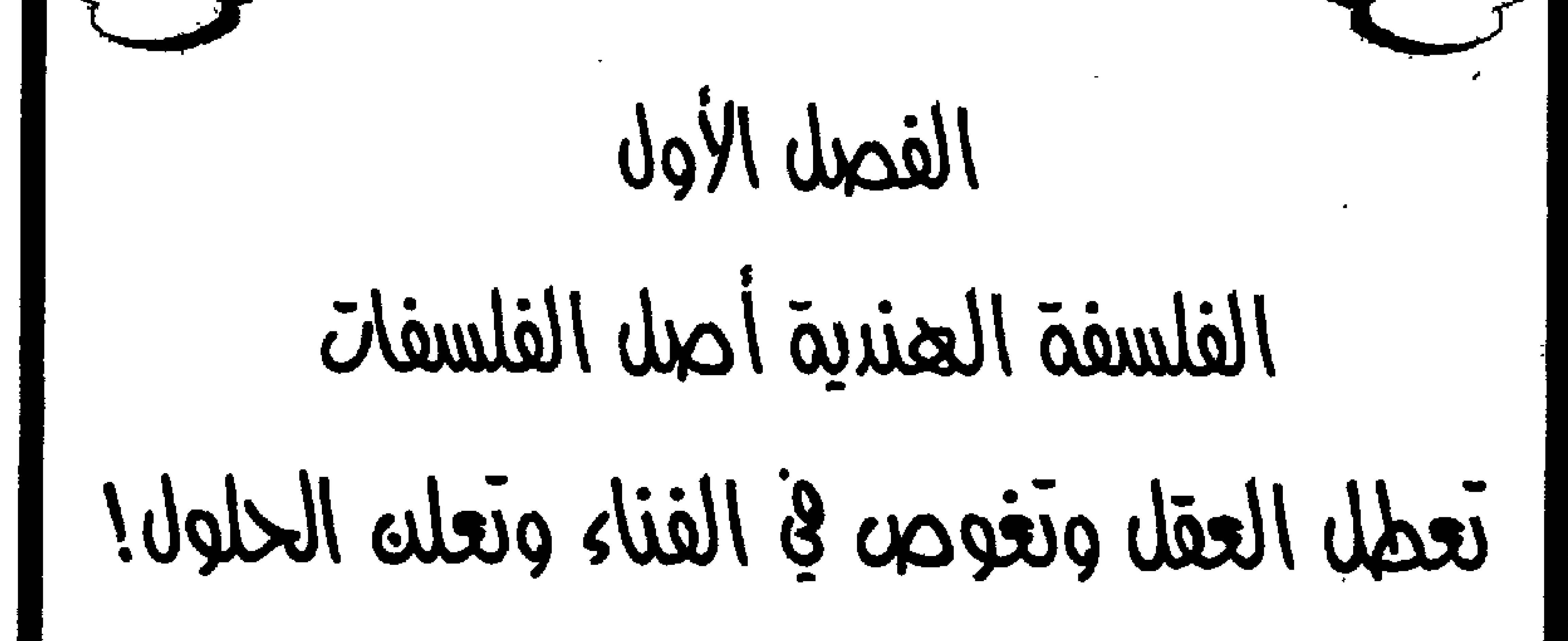


القسم الرابع

هذه هي الحقيقة اليقين الديني

يتعارض مع الظن الفلسفي





الفصل الأول

الفلسفة الهندية أصل الفلسفات

تعطل العقل وتغوص في الفناء وتعلن الحلول!

والآن بعد ما أسلفنا. نعود فنتذكر صديقنا الفيلسوف الدكتور زكي نجيب محمود، الذي أطال مع رفاقه من نوعه هذه الحملة الجاحدة على العقل العربي، الذي لا يزال يكتب بلغته، ويتعامل بها بين قومه العرب، وهم الذين كانوا ولا يزالون – في مصر وغيرها على أرض الوطن العربي –يعتصمون بإيمانهم، ويستمسكون بدينهم، ويعملون جاهدين لكي يجددوا في هذا العصر – في صحوة ذاتهم وآمالهم – مرحلة ناصعة من مراحل تاريخهم الديني المتواصل الحلقات من أول الزمان، برغم فترات التخلف القسري، أو الغفلات العارضة..

إننا نبدأ الآن، وبعدما قدمناه من التمهيد في الفصول السابقة – هذه المواجهة بالرأي والحجة مع هذا التفلسف الهندي، الذي يلح عليه – مع نظائره – رائد الفلسفة الوضعية الكهل المجرب، وهو يدعو إليه بكل ما لا يملك سواء من الجدل العقيم ، والعبارات المنهوكة، والمكابرات الواهنة، التي بلغت به حدًا رضي لنفسه معه أن يصدر في نشوة تزعمه لحركة حلحلة الأصالة العربية، وفي عقر دارها في مصر، كتابًا بعنوان «الشمس تشرق من الغرب»!

نعم .. نبدأ الآن مواجهة هذه الفلسفة الهندية، الأم الذاهلة بشخوصها للوهم، وفنائها عن الواقع، لجميع الفلسفات الأوربية، والغنوصيات الشرقية، ومعنا صورة لهذه البدعة غير العلمية في مثل كتاب صديقنا الشيخ الدكتور زكي نجيب محمود الذي ينكر فيه على مواطنيه يقينهم بهذه الحقيقة الفلكية الأزلية والمتجددة، وهي شروق الشمس من الشرق وليس من الغرب، والذي يتوهم معه أنه كاف لإقناع مواطنيه العرب – بعد إضحاكهم على حماسته – لكي يديروا ظهورهم

لشمس أصالتهم التي تشرق بمقوماتهم من الشرق، إلى شمس التفلسف الغاربة التي تشرق في رؤى الدكتور زكي ورفاقه .. من الغرب!!

اليقين الديني:

في الكثير من آيات الله في القرآن الكريم تذكير بنعمة الله بهذا العقل الذي يهدي إلى الإيمان بالله الحق، والذي هو بهذا الإيمان نور يدرك به المؤمن – خلال سعيه وعمله وتفكره – قوانين الخلق، وسنن الخالق، وهي تتعاقب فيما حوله. إنه يدرك هذه القوانين والسنن بما يؤهله لكي يبنى دنياه وآخرته بهذا اليقين العلمي، والعلم اليقيني، بما لا سبيل معهما إلى الحدس والظن، ولا إلى الإبهام والاستعجام، أو إلى هذا التصور الوهمي «الفلسفي» الذي يستبدل معنى «العدم» بعد إغلاق العقل والحواس – كما هو في الفلسفات الهندية – بهذا الواقع المحس والمدرك في الآفاق، والمتجدد التدفق، والدائم النمو، والذي يهدي التفكر في آياته إلى الله، وإلى العزة به، وبالعلم النابع منه ، وبالحب المتوجه إليه، في هذه الحياة..

يقول سبحانه في نعمة العقل:

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 28]

ويقول في بيان القرآن وحجته التي يدركها العقل إدراكه لمسلمات العلوم:

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3]

ويقول سبحانه:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]

ويقول سبحانه على لسان رسوله من أن الدعوة إلى الله يقينية فطرية لا ظنون ولا تفلسف فيها:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ [يوسف:108]

ويقول سبحانه في أن الإيمان ببرهان آيات الله هو الحياة لعقل المؤمن، والنور الذي يديه بهذا العقل إلى اليقين بالدين، وإلى الاستزادة من العلم، بعيداً عما يشبه الموت في ظلمات الظنون التي يتخبط فيها المتفلسف بغير عقل، وعلى غير هدى:

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: 122]

وعندما نرجع إلى أقرب العهود التي تفشت بها هذه الظلمات الفكرية، المستغشية بظنونها تحت عنوان «الفلسفة» نجد أمامنا لجج ومتاهات ورموز هذه «الفلسفة الهندية» التي يرى مؤرخوها أنها الأصل والجذر للفلسفة اليونانية برغم اختلاف وجهة كل منهما في محنة التجريد والتظنن والاستبطان، فضلاً عن أن الهند كانت منطق هجرة العديد من شعوبها باتجاه أوربا لتعميرها بهذه الشعوب التي لا تزال تسمى بالشعوب الهند وأوربية، ومن طلائعها اليونان الذين بدءوا «التفلسف» بعد تأثرات عربية كنعانية وعربية مصرية في مجالات علمية وعمرانية ، وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد..

على أن هذا الخلاف في وجهة كل من الفلسفة الهندية بظواهرها العامة، والفلسفة اليونانية بخصائصها المعروفة، لا يتعدى هذا الأثر البيئي، الناجم عن الفارق بين حياة الاستقرار في منطقة استوائية شديدة الحرارة، بالغة الخصب، دافعة إلى الخمول كما هو في الهند، وبين حياة

الحركة القاسية في منطقة جليدية، بالغة الجدب، دائمة الغيوم، حافزة بالمجاعة على العدوان وباشتهاء المتاع على الخمر، في حين يقضي كبار الأدمغة منهم لياليهم الطويلة بجوار المدفأة، ينسجون خيوط أوهامهم عن الواقع المحيط بهم، والعالم المغلق عليهم، فكرًا «فلسفيًا» صوريًا، وظنيًا تجريديًا، ينطلقون به مع أهداف الكهانة الفكرية، والسيادة الطبقية، والأرستقراطية اليونانية، بعيدًا عن هذا الواقع.. وبعيدين عن اليقين بأي شيء فيه في سماواته وأرضه، وعاجزين عن الاتساق مع ما تتزاحم به آفاقه من إيقاعاته وحركته.. أي عاجزين عن تبين الطريق الواحد إلى الدين الحق.. ومن ثم عن أي التزام بأخلاق وشريعة وغايات هذا الدين الحق.

عالم الأوهام:

إذن فمن الفلسفة الهندية الأم نقدم المثال على الطبيعة الشاملة لظواهر عالم الأوهام الفلسفي، وعلى طقوس هذا العالم العدمية، والحلولية، إلى حد السذاجة التي تنتهي إلى الشعوذة، وإلى حد الانتفاع الذي ينتهي بتصور حلول «الروح الأول» برهمن – المزعوم – في كل الأشياء، حتى البقر والحيات والجرذان والصراصير!

وهذا المثال الموجز سنقدمه من مصدر لا نشك في صحة عرضه لأنواع ومراحل وأهداف وتوهمات هذا التفلسف الهندي حتى أحدث العصور، وهو الكتاب الموجز الذي أصدره باللغة العربية في القاهرة في 20 من جمادي الآخر سنة 1380 و 9 من ديسمبر سنة 1960 الفيلسوف الهندي المسلم أبو النصر أحمد الحسيني بعنوان : «الفلسفة الهندية – دراسة بعض نواحيها مع المقارنة بالفلسفة الغربية».

ويفتتح الفيلسوف الهندي هذه الدراسة بآية من القرآن الكريم يشير بها إلى فضل « الحكمة» كما نوه بها كتاب الله بقوله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ

﴿مَن يَشَآءُ﴾ ، مبتدئًا من هذه البداية بإيهام القارئ بصحة هذا الخلط المتعمد بين «الحكمة» في بيان القرآن ولغة العرب، وبين «الفلسفة» في مفهوم الهند وبلسان اليونان، حيث أن أول من أجاد فهم كلمة فلْسَفة Philosophy هو أفلاطون في القرن الخامس قبل الميلاد. وحيث إن المقابل لكلمة الفلسفة بمفهوم «المعارف السرية والظنية» في تدرج كهنوتها الطبقي كلمات أشار إليها المؤلف في اللغة الهندية مثل «أوبانيشاد» ومعناها بالسنسكريتية الهندية: «الجلوس بقرب الأستاذ لتلقى أسرار العقيدة» أي أسرار الفلسفة بأشكالها الهندية الشخوصية وغير العقلية المتعددة..

وبعد أن يتكلم المؤلف عن مذهب «أذوائيتا» من مذاهب هذه الفلسفة الهندية، ومعناه مذهب «وحدة الوجود» – يتكلم عن فلسفة عجيبة أخرى يسميها بعد ترجمتها «فلسفة كأن» ويصفها بأنها واحدة من الفلسفات الهندية التي تسير بمفهوم شامل: «نحو غير المعقول، في سبيل الفناء، وتأكيد الحلول»!!

ثم ينتقل بعد محاولة تفسير عجائب وحلزونيات «فلسفة كأن» ليتحدث عن فلسفة «ويدانتا» التي توصل إلى استنباطها الفيلسوف شنكرا، فيقول عنها إنها تنقسم إلى قسمين: أحدهما المبدأ «الباطني» ويقوم على «حقائق» ما وراء الطبيعة «وقد أنشأه للناس الذين يقدرون على فهمه وهم قليلون في كل زمان ومكان» !!

والقسم الثاني خارجي، أي «المبدأ الخارجي» وهو يعني المجال التجريبي المحس، وهو لعامة الناس الذين يريدون الحقائق المحسة وليس «الحقيقة المجردة» التي تأتي مباشرة من العبادة والفكر والتأمل!!

ثم يقول المؤلف أيضًا عن هذه الفلسفة وما تقوم عليه من خصائص التفلسف الهندي غير الواقعي:

«إن هذه الدنيا «مايا» أي وهم، وليست الحقيقة. هذه هي الفكرة الأساسية الدقيقة في فلسفة «ويدانتا» الباطني، والتي لا تنال بتقادير فكرية، بل بحالة «أنو بهوا» أي بالرجوع من هذه الدنيا الملونة إلى معزل عميق في أنفسنا، أي في «آنمانا».. اعمله أن إن شئت فأنت تعرف به الحقيقة التي تختلف كثيرًا عن حقيقة «التجربة» وهي حقيقة مجردة عن الزمان والمكان والتغير»!!

ثم ينتهي المؤلف الفيلسوف الهندي أبو النصر الحسيني بعد الإفاضة فيما سبق إلى الكلام عن فلسفة اليوجا التي اشتهر بها عدد من فقراء الهند الذين يتظاهرون بالقدرة على بعض الخوارق فهو يقول:

«يوج» معناه باللغة السنسكريتية الاتصال والانضمام، وهو اسم يطلق في الفلسفة الهندية وديانتها على مذهب خاص. وخلاصة هذا المذهب وتعليمه كما هو عند جميع المذاهب الصوفية، الإصرار والتأكيد على أن هناك إمكانًا للاتصال المباشر بالله، وذلك برفع مستوى الإنسان عن مستواه الطبيعي، ومتى ارتفع الإنسان إلى ذلك المستوى نال عند أصحاب هذا المذهب النجاة النهائية من جميع أدوار التناسخ للأرواح..»!!

ثم يقول بعد بعض الشرح:

« ينشد مذهب يوج أنه يجب علينا أن نقهر نطقنا – أي كلامنا – ونحوله إلى الإحساس، والإحساس إلى الفكر، والفكر إلى الشعور العام. حينئذ نقدر به على أن ندرك عمق الطمأنينة الموجودة في السرمدي.. إننا لا يمكننا أن نبلغ العلو المنشود إلا إذا هدأت المصادر الخمسة للعلم، وهي الحواس. وسكن العقل والفهم. والطريق لارتياد الهدوء والسكون هو تركيز أفكارنا وحواسنا في هدف واحد ومحو الأهداف الأخرى»!!

وراء الباب المغلق:

ولكن .. وبعد هذا التلخيص المتيسر لفلسفة تعطيل العقل، والغوص باتجاه الفناء، وتوهم حلول الروح الأعلى، ، وما يتصورون انه الخالق باسم «برهمن» في هؤلاء العدميين في لحظة فنائهم، وعندئذ يكشف لهم عن علمه. ويحل فيهم بقدرته- نجد أن الهند وهي لا تزال وراء هذا الباب المغلق من فلسفاتها الباطنية العدمية الحلولية ، عصورًا وقرونًا طويلة، لم تستطع أكثر من تبرير ابتكارها الاسترخائي عن العقل والعلم، ، وعن العمل والحياة. فالهند عجزت عن أن تتوحد، كما عجزت مع إفادتها مع ثقافة الغرب بعد استعمارها الوحشي من الإنجليز أن تستفيد من جوانب تقدم الإنجليز. فلا يزال الفقر مع وفرة الغنى يسحق فقراءها بعشرات الملايين، كما أن المرض مع الفقر يزيد من أعباء هؤلاء الفقراء المضيعين بين طبقة مترفعة من المترفين من المهراجات وأشباههم إلى حد الهوس، وطبقة أخرى من المتماوتين من مريدي وكهنة هذه الفلسفات التي ترفض العقل، وتعطل الحواس، وتحلم بالفناء الخالد، وبالروح الأعلى الوهمي الذي تطمع أن يحل بها فتملك ما يملكه المهراجات، ولكن من غير جهد .. ومن غير عقل !!

وعندما أشرقت شمس الإسلام بالحق على ربوع وآفاق الهند لم يلبث الهنود الذين أسلموا أن حاصروا بأغلبية محكمات الدين الحق بمفاهيم فلسفاتهم الطبقية والعدمية الغريبة، وذلك تحت عنوان «الباطن» و «الظاهر» في مثل فلسفة «ويادنتا» وغيرها، حتى خرج أكثرهم من هذا التأويل بهذه المذاهب الصوفية المتعددة التي ابتعدت كثيرًا وهي تنشد «الحقيقة» وتطلب ما يرضي الله، من حيث ضلت الطريق القرآني المفتوح على ملكوت السموات والأرض بآياته، وبمنابع اليقين والعلم به، واقفة في

حيراتها وراء هذه الأبواب الهندية الفلسفية المغلقة.. بينما الباب إلى هدي الله ورضوانه لا يزال – وبخاصة على أرض العرب أرض الرسالات والآيات – مفتوحًا غير مغلق، الطريق المطروقة إلى هدى الإسلام الخالص، والسلام الكامل.. ولا يزال رحبا غير ضيق.. ومضيئًا غير معتم..

على أنه مهما كان الخلاف بين من أغلقوا أبواب الفلسفة عليهم لينفذوا من أرضها أو من سمائها إلى «مقام ما وراء الطبيعة» وإلى « أوهام ما بعد تعطيل العقل» فإن ما ينبغي أن نؤكده هنا للأخوة المسلمين من الهنود أن برهمن، أو البريم آتمان، أو «الروح الأعلى » ليس مطلقًا هو الله الحق، الذي ليس كمثله شيء، والذي لا يحل بروحه بهذا المفهوم الهندي في شيء، ولا يحل فيه شيء، فهو سبحانه : (لا تدركه الأبصار ويدرك الأبصار) وقد (علم الإنسان ما لم يعلم)، وجعل آيته إلى هذا الإنسان هذا «العقل» الذي هداه بحكمته ورحمته إلى برهان الله المشرق في السماء والأرض، ليزداد المؤمنون بهذا العقل إيمانًا مع إيمانهم، وهم على ربهم يتوكلون، وبأعمالهم الصالحة في الدنيا ونحو الآخرة يعبرون، في حياة وسط، لا يبيعون فيها الآخرة من أجل الدنيا، ولا ينسون نصيبهم من هذه الدنيا، عمرانًا لها، وإصلاحًا ورخاء وسلامًا بها، من أجل هذه الآخرة بعدها.. والله سبحانه هو القائل في نعمة الحواس التي يوقع تعطيلها في فتنة الكفر، وظلمة الجحود، لأنها مقومات ازدهار العقل ، الذي هو طريق الإيمان: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: 23]

ويقول سبحانه فيمن عطلوا حواسهم حتى لا تقودهم إلى ما يهديهم إليـــه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ ﴾ [الجاثية: 23].

ويقول سبحانه في أنه مصدر النعمة بالسمع والبصر والعقل:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 46]

ويقول سبحانه عمن يلومون أنفسهم يوم القيامة على ما عطلوا به حواسهم وعقولهم فلم يتفكروا ولم يؤمنوا:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 10].

ثم يقول سبحانه عن نعمة البيان العربي لم استبانوا برهان الله في حركة السموات والأرض، مرهفين حواسهم، ومتفكرين بعقولهم، سعيًا إلى الله عبادة له، وعزة به، وليس حلولاً أو فناء فيه، فكان لهم من فضله، ولمن أحسنوا إتباعهم من بعدهم، هذه النعمة الكبرى بالدين الحق، واليقين المستبصر، والإسلام الخاص، والبيان المستبين:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2] :

ويقول سبحانه في تأكيد هذا المعنى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: 44]

نعم.. كيف يكون أعجميًا .. وهو بلسانه العربي المبين.. هدى ويقين.. وشفاء للنفوس والعقول من سراء «التفلسف».. وتيه الظنون ..!!



الفصل الثاني

كلمة الله المشرقة في لغة العرب

ليس لها مقابل في اللغات الأخرى

من المحقق أمام الباحث المسلم، المتمكن من اللغة العربية والتاريخ الديني ، والواسع الاطلاع على لغات وتاريخ العالم المحيط به حول الدائرة العربية والإسلامية، أن كلمة «الله» لا توجد بهذا التنزيه الكامل لاسم الله تعالى، في صدق الدلالة عليه، والإشارة إليه، في أية لغة أخرى، ولا شك أن الكثيرين من الباحثين الأوربيين المنصفين، ممن درسوا الإسلام واللغة العربية، قد أدركوا بقدر المتاح لهم كثيرًا من مزايا وخصائص هذه اللغة القرآنية المبينة، وربطوا بينها في اتساع معانيها ، وتميز أدائها ، وقوة تأثيرها الصوتي على سامعها ، وبين ما تميز به الإسلام بين الرسالات الكتابية من سرعة الانتشار، وقوة الاستمرار، وبقاء مصدره الأعظم في القرآن الكريم نقيًا من التحريف، متسع الرحاب على جلاله لجميع من يستمعون إليه ويخشعون لله على صوته، من العملاء والعامة.

ولئن كانت كلمة «الله» التي يدور من حولها توجه العرب المؤمنين إلى الله تعالى بالدين الحق، واليقين الخالص، والصدق الفطري الذي لا يتناقض مع العلم، ولا يتخلف عن الحياة، هي الكلمة الأولى التي نقارن بين كمال دلالتها وإشارتها في اللغة العربية وبين قصور الكلمات المقابلة لها في اللغات الأخرى، وهي تتردى في غيابات عبادة الطبيعة وأرواحها ، فلا شك أن هناك كلمات أخرى كثيرة في اللغة العربية ليس هناك ما يقابلها في تلك اللغات الأجنبية والأعجمية مثل كلمات: العقل والقلب، والإيمان والإسلام، والحق والعدل، والرحمة والسلام، والإنسان والبشر ، والرجل والمرأة، والسماء والأرض.. التي هي في العبرية عن العربية «آرص» والتي نقلها الإنجليز عن اليهود بقولهم بلسانهم «إيرث» وبحروفهم earth.

كلمة .. الله:

في العودة إلى الجذور اللغوية نجد أن كلمة «الله» قريبة في ظاهر حروفها من كلمة «إلاه» ونجد إن الفعل أله: يأله ومصدره إلاهة أو ألوهة يعني عبد: عبادة. نجد من ذلك أن كلمة «إلاه» على وزن فعال ترد بمعنى «مألوه» أي معبود. وعلى ذلك فكل معبود حق أو باطل فهو إلاه عند من يعبدونه.

كذلك فإن كلمة ألَهَ بمعنى عبد تعني في اللغة العربية أيضًا معنى أجار وأمَّنَ ، أي أن من صفات الإلاه المعبود أنه أمام من يعبدونه هو «المجير» لهم من الخوف و «الملجأ » لهم بالأمن، وهذا من الأسباب التي أوجبت عبادتهم له.

هذا عن كلمة «إلاه» .. فماذا عن كلمة «الله»؟

اختلف علماء اللغة باختلاف مذاهبهم، وتفاوت صحة العربية في ألسنتهم، حول كلمة «الله» إلى عشرات الأقوال، أما أقربها إلى الصواب فهو القول بأن اسم الله «علم غير مشتق وأصله إلاه».. كما جاء في القاموس المحيط ومن سار على نهجه.

أما الصواب فهو ما نتحدث عنه هنا من فضل الله وذلك حيث نقول: إن حرف الهاء في كلمة «إلاه» وكلمة «الله» هي في اللغة هاء «الغائب» للدلالة على أن المعبود الحق، الحاضر أمام البشر في كل لفتة إلى الوجود، وأقرب إليهم من حبل الوريد، هو في غيبه بعيد عن الحواس، ومنزه عن التجسيم، وهو يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار. والمعنى أن المؤمنين الصادقين الذين يعبدون الإلاه الحق إنما يعبدون هذا المعبود الواحد

الأحد، الخالق المدبر الذي هو في تنزهه عن التحديد والتجسيم غائب عن حواسهم، وبكل رحمته وآياته حاضر في حياتهم.

ومع تمام البيان والإفصاح في اللغة العربية تجلت بتمام نورها ودلالتها كلمة «الله» وذلك بإضافة أل التعريف إلى حرف «الهاء» الدال عليه «هو» الغائب الحاضر، ثم بإضافة أل التعظيم أيضًا لتشرق وتتجلى كلمة «الله» بكمال دلالتها على هذا المعبود الحق، الواحد الأحد، الخالق المدبر، الذي له الأسماء الحسنى، والذي ليس كمثله شيء، لتمضي هذه الكلمة بأشواقها «نورًا على نور» لا يأفل في كتبه، ولا في آياته، ليهتدي إليه المؤمنون الصادقون، كما شاء لهم رب العالمين.

هذا الكمال في الإشارة المشرقة المبينة إلى الله الحق في اللغة العربية، منزهًا سبحانه في ندائه ودعائه عن التشبيه والتجسيم، لم تلحق به اللهجة العبرية وهي تنزل إلى المرحلة الأولى من الإشارة إلى المعبود الغائب الحاضر بقولها: يا هو... وهكذا مع مرور الزمن، ومع تلاحق التحريف على اللسان العبري، ومع اختلاف أكثر اليهود بعد موسى على أنبيائهم، وعلى الصحيح من معتقداتهم، تحو نداؤهم لله الغائب الحاضر من «يا هو» إلى «يهوه».. لكي يصبح بعد عصور شتاتهم في أوربا إلى جاهوفا في اللسان الأوربي..

هذا بالنسبة للغة العربية في ألسنة شعوبها اللذين تحققت لهم في أكثر إتباعهم الصحيح لرسالات الله إليهم معرفتهم وعبادتهم «الله» الحق، في صحة البرهان عليه، والإشارة إليه، منزهًا من التحديد والتجسيم، وعن الأشياء والشركاء، وعن خبال الادعاء بفرية «الحلول» له في غيره من خلقه، من البشر والحيوان وغيرهما..

وهكـذا بهـذا الاسـم المنـزه بالمثل الأعلـى، والأسمـاء الحـسنى، صـدقت عبـادة «الله» في أقـوال وأعمـال المـؤمنين بـه، المتـبعين لـشرائعه ومناسكه، الذين شقوا تحت أعلام طاعته وآياته طريقهم المضيء والمفتوح إلى النصر، ليقدموا عبر أزهى عصور البشر فوق هذه الأرض، وتحت رايات القرآن الكريم، ووراء أسوة النبي العظيم، هذا الإشراق المتجدد، والقدوة المتبعة، في استيعاب حقائق الدين القيم، وإقامة دعائم المجتمع المؤمن، وإحياء آيات الإسلام المنتصر.

أرواح الطبيعة:

أما بالنسبة إلى الكلمات المقابلة لكلمة «الله» في اللغات الأخرى، والتي تجري بها ألسنة الشعوب غير العربية، سواء في الأزمنة القديمة في عصور وثنيتها، أو في الأزمنة القديمة في عصور وثنيتها، أو في الأزمنة الحديثة بعد إيمان بعضها برسالات نزلت من الحق باللسان العربي، وذلك مثل اللغات الهندية، والفارسية، واليونانية، واللاتينية واللغات الأوربية المعاصرة، فإنها تنزل كثيرًا في مستوى دلالة كلماتها على «الآلهة» أو «الله» المعبود، عن هذا المستوى الذي ارتفعت وارتقت إليه العربية الفصحى في تنزيهها اللغوي والمعنوي واليقيني للإله الواحِد الأحد، عن التجسيم والتحديد والحلول..

لقد اتفقت طبيعة هذه اللغات غير العربية، وغير المبينة، وهي تنشأ في ظلماتها وظنونها، وتتكاثر وتتقرض، تحت مستوى أن ينزل بها كتاب من الله، أو يظهر بها رسول من الله – على إيمان شعوبها في غيابات الأوهام والأساطير بأن يسمونه «أرواح الطبيعة» ليس إلا القوى الخارقة الجديرة بالعبادة في هذا الوجود، أي أنها هي «الآلهة» التي تتوزع اختصاصاتها، وتتنوع قدراتها، في هذا الكون، بما يوجب على كل شعب من هذه

الشعوب – بمستوى أساطيره وأوهام كهانه – أن يعبدها وحدها، وأن يقدم القرابين تحت وصاية الكهان إليها، وأن يقيم لهذا الأعياد والهياكل، وأن يتخيل لها الصور وينحت التماثيل!

وهكذا ظهر في الهند برهمن، أو بريم نمان، أو الروح الأعلى، والذي يرى البراهمة أنه الروح الأكبر بين كل أرواح الطبيعة المحيطة بهم، وانه لذلك هو الذي يهب الحياة لكل شيء من البشر والحيوان والنبات بحلوله فيها، حتى في أجسام الحيات السامة والجرذان والصراصير التي يحرمون قتلها. . لأن برهمن قد حل بروحه الأعلى فيها!

بمثل هذا الاعتقاد الوهمي اتسع في الهند وما حولها مذهب عبادة «أرواح الطبيعة» المسمى : Animism . وظهر كذلك في إيران أي فارس القديمة على يد زرادشت في القرن السابع قبل الميلاد ليكون أساس «المجوسية» بها فيما توجهت إليه من تقديس النار، ومن عبادة «روح النهار» باسم «أهورا مزدا» إله النور والخير، وكذلك عبادة «روح الليل» معه باسم «أهريمان» إله الظلام والشر..!!

وفي زمن مقارب لهذه المجوسية الثنوية الفارسية في عبادة روح النهار وروح الليل، ظهر على أرض اليونان، مع توسع في الخيال ونسج الأساطير عدد كبير من أرواح الطبيعة المعبودة في صورة أسرة من الآلهة العابثة الماجنة المستكبرة يقودها أيضًا «روح النهار» المسمى زيوس Zeus ، والذي جعلوه رب كل أربابهم، وإن كان هو الابن لأحد آلهتهم الأولى كرونوس Kronos أي «روح الزمن» وذلك لأنهم في صناعتهم لآلهتهم بحسب أهوائهم، وتأجج شهواتهم، فضلوا الزمن المحدود في «النهار» أو زيوس على الزمن غير المحدود في كرونوس أو «الزمان»، وذلك لأنهم في النهار، وكما عاشوه فوق الأوليمب الوثلوج، وتحت الضباب والظلام، عشقوا

حيـاتهم اللاهيـة، وأعيـادهم الـصاخبة، يـستمتعون بمباريـات السفـسطة والتفلسف، وملاحقات المرأة والخمر، وكلما انتابهم الشعور بمأساتهم بين الـضياع والعنـف عكـسوا هـذا الـضياع عـن المـسيرة الـسوية للبـشر بهـذا «الثغناء» والصراخ الحزين على المسرح الوهمي، الذي اعترفوا على خشبته بنقائصهم فبكوا لـه ، وضحكوا منهـا، وحيث وجدوا توازنهم التـاريخي بهـذا الـضياع الجديـد، زاعمـين، بمـا أقـاموه مـن حـضارة الخمـر، ومـسرح الثغاء، وتراث الأساطير، أنهم «أبناء هيلين» من نسل الآلهة .. المتفوقين على فيرهم من الشعوب الأوربية ، وعلى من حولهم من الشعوب الأخرى!!

في هـذا اللـهو المأسـاوي صـنع اليونـان بخيـالهم المخمـور أكثـر الآلهـة عددًا من أرواح الطبيعة التي عبدوا مسراتها، وفزعوا من مخاطرهـا. فتحت زعامـة زيـوس أو «النهـار» عرفـوا Apollo أبولـو الـذي تعـددت الآراء في خواصه، والذي يؤكد أكثر من كتبوا من الأوربيين عن آلهة اليونـان أنـه كان يمثل في بنوته لأبيه «النهار» روح «المراعي»..

ومن هذه الآلهة اليونانية أيضًا، وهي من آثار لهو هـذا الـشعب الـذي لم يستوعب شيئًا نافعًا له مـن حـضارات العـرب القديمـة الزاهـرة علـى أرض مصر وكنعان وبابل، الإله دينوسيس Dionysis الـذي يمثـل «روح الربيـع» حاملاً إلى الذين صنعوه ليسقطوا في حبائله هـذا الفـرح المخمـور، المنجـذب للـشهوات والمتـاع، وحتـى يـتم «الحفـظ » صـنعوا لـه رفيقـه وتوأمـه يـاخوس Bakchos إله الخمر والذي يمثل مع «روح الربيع».. «روح الكـروم» .. الـتي يعصرونها خمرًا .. ولعبًا!!

وأمـا في بـلاد الرومـان المتاخمـة لليونـان فقـد ظهـر في اختيـار آلهتهـا نفس المذهب المنجذب إلى عبادة «أرواح الطبيعة» وعلى نفس النمط الهندي، والفارسـي، واليونـاني، فكـان كـبير آلهتهـا هـو جـوبيتر Gupiter الـذي

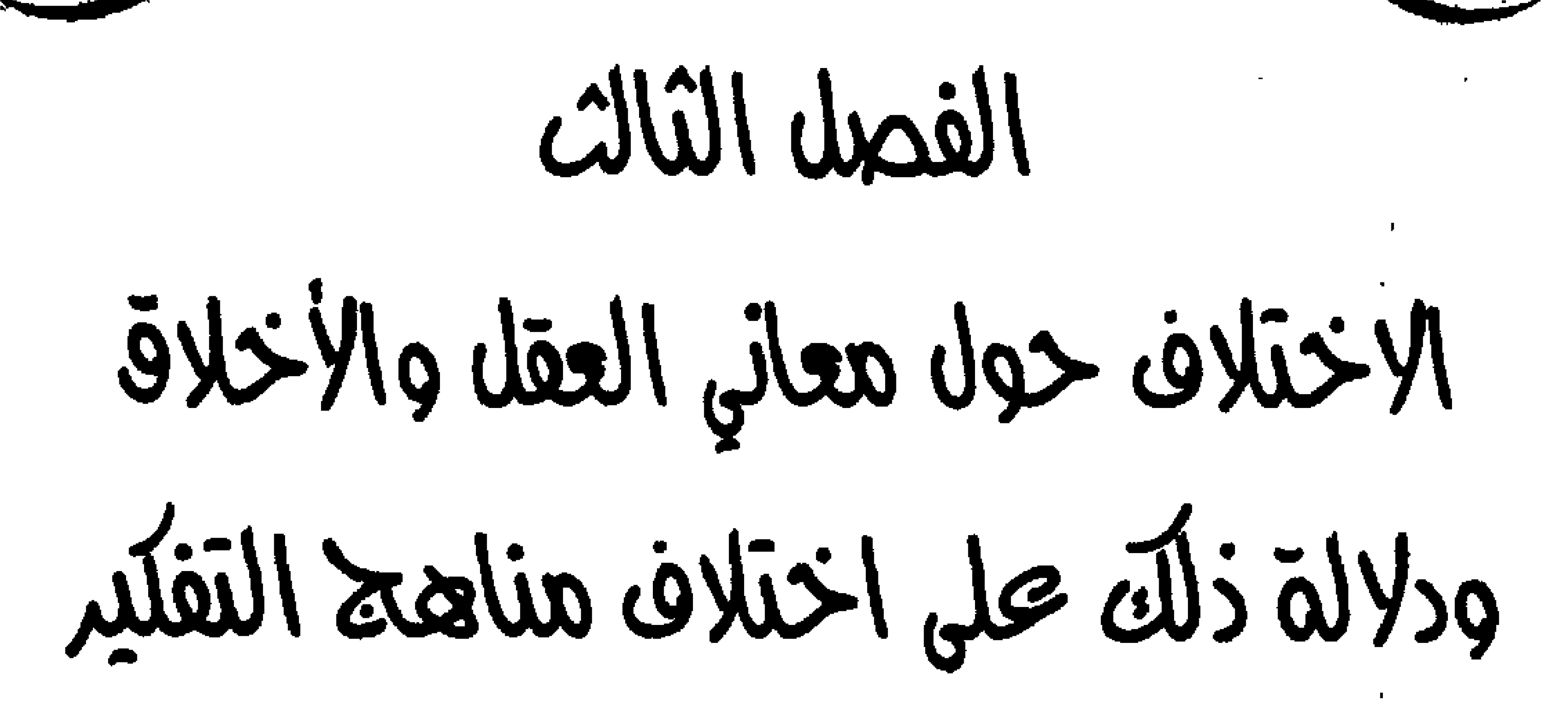
يعني إله الخصب والأمطار، والذي يمثل روح كوكب المشترى، أكبر كواكب المجموعة الشمسية، وإلى جانب هذه العبادة للخصب لم ينس الرومان القدماء في مزاجهم العدواني أن يجعلوا من روح كوكب المريخ أو Mars إلههم للحرب والغزو والسطو، وأن يجعلوا من روح الكوكب نبتون Neptune في هذه المجموعة الشمسية إله البحار..

كذلك فإن الرومان الغزاة القساة عبر تاريخهم الدموي القديم لم ينسوا مع الطابع الهندي الفارسي اليوناني في وراثاتهم وخصائصهم – أن يخترعوا إلهة لشهواتهم، ولمتاع حياتهم الطبقية الوحشية، فكانت هي روح الكوكب الزهرة، أو فينوس Venus ، التي استنزلوها من سمائها وعليائها، ليدنسوا ذكرها، ويطفئوا انعكاسات نورها وهي أجمل كواكب الصباح والمساء، وهم يجعلونها معبودتهم لحساب الجمال.. والحب.. وكذلك العشق الإباحي .. والجنس !!

وفي نفس الزمن على وجه التقريب، وقبل أن تضيء المسيحية على وجه أوربا الشهواني الأسطوري المعتم – كان الإنجليز السكسون، أبناء عم اليونان والرومان، يعبدون روح الغابات الكثيفة جودن وأساطيره تحت اسم God .. فلما أن ظهرت المسيحية عجزت هذه اللغات غير العربية كلها عن أن تجد أو تعي الكلمة الصحيحة الدالة على الله الحق في دعوة المسيح، ورسالات رسل الله من قبله. وعلى هذا فقد بقيت كلمة God في الإنجليزية وكلمة Dieu في الفرنسية، على جانب كلمة Theo من بقايا كلمة Zeus لتحمل الدلالة غير المبينة، وغير الأمينة، على الله الحق الذي نزلت رسالاته وكتبه باسمه الحق.. ومن ذلك فهم لا يزالون يسمون علم اللاهوت ثيولوجي أو theology ، ويطلقون على الوحي بالإنجليزية كلمة ثيوبنيوستي أو كما هي في الحروف اللاتينية theopneusty، وهكذا

فـإن كلمـة «ثيـو» أو theo القريبـة مـن «زيـوس» و «ديـو» تبقـى بمعنـى «السابقة» التي تعني : إلهي..!

وكـذلك حتـى بعـد ظهـور الإسـلام، وامتـداد الإشـراق العلمـي والحضاري والأخلاقي بشمسه الساطعة إلى أبعد مدى فوق الأرض، وبين شعوبها، وفي صميم تراثها، فإن الأوربيين وغيرهم من الشعوب غير العربية، لم يستطيعوا بعجمة ألسنتهم، وأسطورية قصصهم القديم، وتاريخهم الغابر، أن ينقلوا عن العربية كلمة «الله» لغة وفهمًا، هذه الكلمة التي لا يشيرون إليها، مع اللكنة في نطقها، إلا عند الحديث عن العرب ودينهم، بينما تبقى ألسنتهم حبيسة ما توارثوه من أساطيرهم، وما احتفظوا به وزادوا عله — مع وفرة المتاع والشذوذ فيه في عصر العلوم الآلية والتدميرية والترفيهية من حب المتاع، ومن شهوة الخمر والجنس والعنف، ومن هذا الذي لا يزالون يتوارثونه من دوافع العدوان القديم على أرض العرب، طمعًا في مواردهم، وحربًا خفية وظاهرة على مقومات وحدتهم وقوتهم، في الدين الحق، واللسان المبين.



الفصل الثالث

الاختلاف حول معاني العقل والأخلاق ودلالة ذلك على اختلاف مناهج التفكير

إن ظاهرة إجماع كل المفكرين ، سواء من أهل الفلسفة والظن، أو من أهل الدين واليقين – على أن المفهوم العام لكلمة «العقل» هو مصدر فكرهم وتفكرهم، وأداة إيمانهم أو تفلسفهم، مع اختلاف وتعارض وتناقض ثمرات هذه العقول البشرية في إيمانها ، أو تفلسفها.. إن ظاهرة هذا الإجماع على نسبة كل نشاطات الفكر البشري في العالم، برغم هذا الخلاف الشديد بين الأفكار والمذاهب السائدة – إلى هذا الجهاز العجيب في أعلى الدماغ، وداخل المخ، يفرض علينا أن نتساءل: هل هو عقل واحد في طبيعة رؤيته وحساسيته، وفي نوع قدراته وبصيرته؟.. فكيف يقع منه مع وحدة كيانه وأجزائه وملكاته كل هذا الاختلاف في ثمرات أفكاره، وأنواع قراراته ، إلى حد التعارض.. بل والتناقض؟

لا شك – وبرؤية وحكم هذا العقل على هذا التعارض الدائب في الثمرات الفكرية للعقل البشري، أن هناك تعددًا – قد يكون في طبيعة المجتمع البشري متسقًا – في طريقة عمل العقول البشرية بقدر تعدد أنشطتها، وتباين ثمراتها. أي أن هناك اختلافات ظاهرة في مناهج تفكير العقل البشري تعدد بسببها ثمرات ومذاهب ومعتقدات هذا العقل، بقدر ما نرى مثلاً من هذا التعارض أو التناقض بين بعض هذه الفلسفات التي تعطل عمل العقل، لكي تعقل بتعطيله وتجميده عكس ما تعقله بتنشيطه وتحريره، كما هو سائد إلى اليوم في أكثر فلسفات الغناء واليوجا في الهند.. وبمثل ما تصر بعض الفلسفات الأخرى ذات الجذور الهندية على نسبة أوهامها، وأساطيرها، وما هو بعيد عن حركة الواقع في فلسفاتها وتجريداتها إلى محض العمل العقلي، كما أدعى ذلك كل فلاسفة اليونان، ومن سار وراء السراب في متاهاتهم من فلاسفة أوربا شرقيين وغربيين إلى اليوم.. وبقدر ما نرى كذلك أن الشعوب العربية التي تؤمن

بالله الحق، والدين الحق، لا تزال تؤسس هذا الإنسان الذي يتعارض مع جميع الفلسفات الهندية واليونانية وغيرها، على هذا «العقل» السليم بفطرته، السوي في رؤيته وقدراته وبصيرته، ومجال نشاطه، وهو العقل الذي يصدق به برهانها على الله، ويصدق به تفكيرها في خلق الله، وتدبرها لآياته في كل حركة الحياة..

العقل المؤمن:

ونبدأ الآن في مجال الاستدلال على هذه الحقيقة بكلمة «العقل» في اللغة العربية، لغة الدين الحق، واليقين الكامل، فنجد أنها الكلمة الأقوى ارتباطًا مباشرًا بكلمة «الله» من حيث أنها تحمل كل سمات هذه «النعمة الكبرى» التي كرم الله بها الإنسان على كثير ممن خلق، وهي نعمة «العقل» الذي يهتدي به إليه، ويحمل الأمانة له بتقواه، وباليقين بلقائه، وبالعمل في طاعته.

بهذا العقل الذي يهتدي به العاقل إلى البرهان على الله، بالنظر السليم فيما حوله من الواقع المتحرك بآيات الله، وحكمة الله، ارتبطت الكلمة الدالة عليه في اللغة العربية، في لفظها ومعناها، وفي دلالتها وإشاراتها، بكل ما تنتهي إليه قدرات التفكير السليم، في منهجه وبصيرته، إلى الإيمان الصادق بالله، والإسلام الخالص إليه.

والبداية في جذور هذه الكلمة في اللغة العربية – في مجالها الحسي قبل المجال الاصطلاحي – تنطلق في صميم الدلالة الحسية على الحركة والرؤية والاستهداء من الفعل: عقل البعير – يعقله بضم القاف، أي يمسكه بقيده حتى لا يضل عن صاحبه، وحتى يمسكه عند مرعاه الخصيب ليتزود منه لرحلته وحاجات حياته. ومن هذه الصورة الحسية التي تبدأ منها قوة الإحساس بالرحلة الدائبة في حياة العرب اليومية، والتي تعني

أهمية «ضبط الحركة من أجل تمام التحصيل» خرج وأضاء على أصوله السليمة هذا المعنى الاصطلاحي وبصيرته اليقظة، وفي واقعه المتحرك، على تمييز الحقائق، وظواهر السنن والقوانين العلمية، من كل ما يدور حوله، ثم إدراكها.. أي «عقلها».. بمعنى الإمساك الذهني بها، لكي يسجلها في واعيته وحافظته، وحتى يهتدي بها إلى السوي من مناهجه، والواضح من طرقه.

بهذا المفهوم الصحيح، والجلي، لسلامة الإدراك بالعقل للحقائق والعلوم والظواهر، من آفاق الواقع المتحرك بالحياة، ثم الاستهداء بهذه المدركات العلمية والصحيحة إلى هذا البرهان المتجدد في الواقع الحي والمتحرك على أن الله هو الخالق الواحد، والمنشئ المدبر لهذه الحياة- يثبت ويتأكد أن «العقل المؤمن» كما أدرك العرب بلغتهم، هو وحده العقل السوي، المعبر بإيمانه ومنهجه عن البدن الفطري السليم، وعن النفس المطمئنة، المحصنة بكمال قطرتها، ويقظة بصيرتها، بنشاط هذا العقل المؤمن، الذي يمضي بها على طريق الإيمان ، لتحقيق غايتها الإنسانية من ازدهار الرخاء والتقدم والعمران.

ويبلغ هذا المفهوم السليم لكلمة «العقل» في اللغة العربية ذروته من الجلاء والكمال والحق بنزول القرآن الكريم، وذلك حيث يرتبط صدق النظر في الأشياء، وصحة الإدراك لظواهرها، وقدرة الاهتداء إلى برهانها، بهذا «العقل» السوي الهادئ إلى الإيمان، والذي هو نعمة الله وحكمته حجته الظاهرة على هذا الإنسان حتى يؤمن، وفي هذا يقول تعالى عن اجتماع نعمته بعربية القرآن إلى نعمته بهذا العقل السوي الذي يهدي إلى الإيمان: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2]

ويقول تعالى في أن آياته لا يخطئ برهانها عليه عقل العاقلين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 4]

ويقول سبحانه وهو يجمع بين عقل العقلاء وعلم العلماء: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:43]

ويقول تعالى في تأكيد أن من لا يعقل لا يؤمن أي أن العقل السوي هو الذي يهدي إلى الإيمان: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 10]

ويقول سبحانه في مثل هذا المعنى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 100]

فأين هذا العقل «العاقل» للحقائق ، المدرك للبرهان العلمي، المؤمن بالله الحق، كما هو في لفظه ومعناه في لغة العرب، وفي تطبيقات حياتهم طوال عصور الصحوة والإيمان، من هذه الكلمات الدالة في اللغات الأخرى غير العربية على معان بعيدة في جذورها اللغوية، وفي مناهجها الفكرية، عن مستوى هذا «العقل العربي» المستبين لبرهانه وإيمانه، أي بعيدة عن قدرتها على تقرير شهادة الواقع المحيط بها من حيث غنها تتخبط وتتردى في عزلة التفكير الفردي، والباطني، في مذاهب عدوانية، وفلسفات ظنية، لا تدرك سواها من ثمار تفكيرها التجريدي والاستبطاني لحركة الواقع، من نقطة ساكنة وبعيدة عن هذا الواقع!!

العقول المعطلة:

وفي انتقالنا إلى الكلمات المقابلة لكلمة «عقل» في اللغات الأخرى نكتشف من خلال صراعات شعوبها القديمة والمعاصرة، ومن خلال قصور

هذه الشعوب عن الرهان الملزم بالإيمان، والهادي إلى الحق بمعنى «الله» وبمعنى الديني – أنها لا تزال معطلة بشهوات المتاع، والخمر، والعدوان، عن الرؤية بفطرتها، وعن الشهادة الصادقة على الواقع الحي المتحرك من حولها. وهكذا نجد أن أفلاطون في قمة فلاسفة اليونان يصف المنطق «الصوري» غير العلمي لهذا الفكر التفلسفي اليوناني بأنه – في عبارة يبسطها الفلاسفة المعاصرون – هو الاستعمال المعقول للكلمات في «التفكير».. أي : هو استعمال الكلمات، في كل اتجاهات الفلسفة وظنونها، في التفكير .. أي في صناعة التفكير!

من أجل ذلك، وفي برهان دامغ كانت كلمة «عقل» في اللغة اليونانية وهي nous لا تعني إلا «الحدس» أي «الظن» الذي اعتمدت الفلسفة اليونانية وغيرها على تنشيطه بتصوراتها، وتخيلاتها، وشطحاتها، بعيدًا عن اليقين العلمي، والصدق الواقعي، وهي تمضي بمتغيرات شطحاتها وأوهامها في العلوم الإنسانية حتى العصر الحديث، الذي تظهر فيه بأثوابها الجديدة ونفس مفاهيمها القديمة، برغم صلصلة العلوم الطبيعية وإنذاراتها من حولها، لكي تقدم هذه المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة التي تتصارع من حولها منافعها، وشهواتها، وقسرياتها، وهي ترقص رقصات المخمور المسعور على فوهة بركان من أسلحة الدمار العسكري، والاقتصادي، والنفسي، بعيدًا عن العيش المستقر المضيء بالأمن والإيمان، وبالمساواة وبالرخاء والسلام.

ومن أجل ذلك أيضًا بقيت الكلمات الدالة على العقل في اللغات الأوربية، على الرغم من عصر القدرات العلمية والصناعية، بعيدة عن قدرة التعادل في مجال العلوم الإنسانية مع حركة العلوم الطبيعية، هذا التعادل الذي لا نجاة لأوربا وللعالم المحيط بها إذا لم تتوصل به إلى هذا الإيمان

الذي يقود العلم، وحركة الصناعة، وأهداف التقنية أو التكنولوجيا، بعيدًا عن هذا التكرار المأساوي لعصر الرومان القديم بجنون أباطرته، وشراسة أطماعه، وأهوال صراعاته، وحتمية مصيره، وهو الانهيار والانقراض..

ففي اللغة الإنجليزية مثلاً نجد من الكلمات الدالة على العقل – بعيدًا عن العقل – هذه الكلمة التي لا تعني إلا مكان التفكير الباطني في دماغ الإنسان أي المخ أو الذهن وهي كلمة intellect والتي ترجع إلى الأصل اللاتيني وهو intellectus ومعناها أيضا الدماغ أو المخ أو الذهن، فهل هذه الكلمات التي قد تدل أحيانًا على الذكاء أو على الطبقة المتعلمة تعني «العقل» بمفهوم قدرات الهداية إلى الإدراك السليم، والطريق المستقيم، في العقل العربي.. بلغة العرب؟!

وكذلك أصبح من الكلمات الشائعة في دلالتها على العقل باللغة الإنجليزية كلمة mind التي لا تعني في جذور معناها اللغوي إلا «الذاكرة» أو الرغبة التي تحرك الذاكرة للتفكير، الأمر الذي يتفق مع منهج التفكير الاستبطاني الفردي للأوربيين جميعًا على النمط الهندي والفارسي، وذلك حيث يجلس المفكر للتفكير والتفلسف حول تفسير الحياة والكون، والتخطيط الظني لنظريات المذاهب والعلوم الإنسانية، في عزلته بجوار المدفأة، وبجوار كأس الخمر، في بيته المغلق، مسترجعًا من «ذاكرته» أجزاء الواقع الممزقة لكي يعيد تركيبها بلغته المبهمة، ومن ابعد نقطة عن هذا الواقع الذي ليس له في ذاكرته، وفي ظنونه وتصوراته، أي تماثل علمي.

هذه الكلمة mind والشائعة بين الإنجليزي للدلالة على «العقل» ترجع إلى المصدر اليوناني mainesthe بمعنى «يتذكر» وإلى مصدر

جرماني انجلو سكسوني قديم يرجع بهذه الكلمة إلى مفهوم الذاكرة الخرافية منذ عهد الإله Mannus الأب الأسطوري القديم للقبائل الجرمانية.

وامتداداً مع هذا الفراغ المعتم والمستمر في اللغات الأوربية من المفهوم العلمي والحيوي والفطري لكلمة «عقل» كما عرفها واستعملها العرب، أصبحت كلمة Concious ومعها أيضاً كلمة Conciousbess بمعنى الشعور وبالإضافة إلى كلمة Spirit بمعنى الروح أو النفس تعني كذلك إلى جانب معانيها الأخرى هذا المفهوم الاستبطاني لكلمة «عقل» دلالة على هذا النوع من التفكير المعزول عن الواقع، والمنفصل عن اليقين، والذي لا يعتمد في عزلته ووراء حجبه على غير الذكاء الغريزي في الكائن الحي، أو عمل الذاكرة داخل المخ، أو الاستدلال بعشوائية الشعور الشخصي، والهوى النفسي، على صحة ما يسمى تعسفاً بحكم العقل؟!

وبعد .. فهل من « المعقول» ببرهان العلم والإيمان في حياة الإنسان الفطري السوي أن تكون لهذه الكلمات الشاحبة، والمعتمة، والمبهمة، في اللغات الأوربية أية دلالة حقيقية على عقل علمي، قادر على البرهان، ومتوجه إلى الإيمان؟!!

الحق والقوة:

وفي مجال آخر يزيد من هذه القضية وضوحاً، ويؤكد أن العقول البشرية في واقع المجتمع الإنساني تتمايز بين الهدى والضلال، أي بين أمنها مع الصدق العلمي واضطرابها في التيه الفلسفي والظني، نشير إلى أن هذه العقول الأوربية المعطلة فوق جليدها، وتحت ضبابها، وداخل استبطانها، عن إدراك البرهان على الإيمان، قد أمنعت في غيبة العقل والتيه عن الإيمان في استكثار أسباب الصراع في حياتها، والعبودية لشهواتها، عندما

انطمست معالم «الحق» في كلمات لغتها، ودلالات معانيها، ليصبح الحق هو القوة، أو لتصبح القوة التي تفرض واقع العدوان، والاغتصاب، والترف، والشذوذ، والعنف.. هي الحق!

فأين هذا من معاني كلمة «الحق» المضيئة في اللغة العربية بمعاني القوة الغالبة للبغي والعدوان، والواقية من الترف والعنف والشذوذ، هذه الكلمة التي تعني في قولنا: حقٌ يحق بمعنى لزم يلزم.. والتي ترتفع بمعناها الذي لا يحد، بالنور الملزم، والبرهان المضيء، فيكون «الحق» هو «الله» الذي نلتزم أمام البرهان عليه بالهدى والإيمان، ويكون الحق أيضًا هو سنن الله وقوانينه التي لا تتبدل ولا تتحول في ملكوت السماوات والأرض، هذه القوانين التي نهتدي إليها بنعمة العقل، فيكون التزامنا العقلي والعلمي أمامها هو إيماننا اليقيني بالحق، الذي هو الله الحق، والدين الحق، ثم كل هذا الصحيح في جملته ومفرداته، وفي مدركاته ومحساته، مما نراه حولنا ملء السموات والأرض من هذا الحق.

فأين هذا من غلبة القوة على الحق، ومن ضياع الحق بالقوة، في دلالة كلمة right في اللغة الإنجليزية على كل من كلمة الحق، وكلمة اليد اليمنى إذا أضفنا إليها كلمة hand بمعنى يد، مما يكشف عن هذا التلازم بين القوة التي تبطش وبين المعنى المنطمس للحق الذي تفرضه هذه القوة..

ويزيد في تأكيد هذا التلازم بين القوة والحق في لغات الأوربيين العدوانية، الدنيوية، المعتمة، أن كلمة Fact التي تعني بالإنجليزية «الحقيقة الواقعة» أو «الأمر الواقع» لا تعني في غياب مفهوم «الحق الديني» و «الحق الأخلاقي» أكثر من حقائق الأرقام والبيانات الإحصائية، ومن ذلك ما تجسدت به هذه الحقيقة الدنيوية المجردة في الأمر الواقع، الملموس

باليد، في الكلمة المأخوذة من Fact وهي Factory بمعنى مصنع، وفي كلمة Factor بمعنى عامل، وكذلك كلمة Factitious بمعنى اصطناعي أو تصنعي..!

على أن الأعجب من ذلك فقدان معنى «الحق» في مفهوم «الحقيقة الواقعة» عندهم، أن كلمة Faction تعني الشغب والفتنة، وكلمة Factious تعني مشاغب أو مشاكس، كما أن كلمة Factionalism تعني النزعة الحزبية التي لا تتجه عندهم للدفاع عن «الحق» بل إلى طمس الحق بالقوة، قوة الصراع والمشاغبة والمشاكسة!!

وكذلك أيضًا في مثال من هذه اللغات الفاقدة الوعي إلا بما يمكن لمسه باليد واغتصابه بالعدوان نجد أن كلمة real بمعنى حقيقي وكلمة reality بمعنى الحقيقة لا تعنيان إلا الأمر المحس باللمس، والواقع الملموس باليد، ومن ذلك كلمة realistic أي الشخص الممدوح بأنه «واقعي» أي لا يعتقد بغير الواقع المحس الذي يمكن أن يلمسه بيده، ومن ذلك أيضًا في عمق الدلالة على أن «الحقيقة الملموسة» في اللغات الأوربية الشرهة هي «التملك» ولو بالاغتصاب أن الكلمة الأكثر حروفًا من أصر كلمة real أي حقيقي وهي realization تعني إلى جانب معنى الاستيعاب، أو الفهم، أو التحقق، هذا المعنى الأقرب إلى إحقاق الحقيقة الواقعية باللمس والتملك لكل ما هو أكثر حقيقة من الأموال والثروات وهو «عملية استبدال أموال عينية أكثر ثباتًا في الحقيقة الملموسة من أموال وممتلكات أخرى» !!

فهل هناك بعد ما هو أعجب من هذا القيد الثقيل على هذه «الحقيقة» المرهقة والمنطمسة من كثرة اللمس باليد في اللغات الأوربية... ؟!

وأليس هذا الارتباط بين «الحقيقة» واللمس باليد في حياة الصراع على الدنيوي فقط في حياة الشعوب الأوربية هو الذي يفسر كيف أنهم عاشوا أكثر عصورهم الوثنية يطلبون أن يلمسوا «الله» باليد حتى يؤمنوا به، فلما لم يتحقق ذلك لهم آمنوا بآلهة من «صنع أيديهم» وبأرواح الطبيعة في الأشياء المحيطة بهم. وحتى لما بلغت إليهم رسالة المسيح، واستقر بين أيديهم إنجيله، وارتفعت أمام أعينهم صوره، عاد أكثرهم في العصر الحديث إلى عزل الإيمان، والحق، والحب، والعدل، والإيثار، عن الحياة.. سواء لأن الله قد تكلم عنه المسيح لا يمكن لمسه باليد، ولذلك ألحد الشيوعيين.. أو لأن «المحبة.. والصفح.. والسلام..» كما جاءت بها دعوة المسيح تتعارض مع هذه «الحقيقة» التي تلمس باليد في الأموال، والمتاع، والخمر، والشذوذ والعنف.. ولذلك «تعلمن» الغربيون، أي آمنوا بالعلم وحده في أضيق حدوده، ومن ثم أطلقوا العنان – بعد أن هجروا الكنائس – لشعارهم العدواني الروماني القديم: «الحق هو القوة»..!!

الأخلاق والقيم:

وعندما ننتقل إلى هذه الأثواب من السجايا التي تتواءم في سلوك الإنسان مع الإيمان أو الإلحاد، ومع الحق أو الباطل، ومع العقل أو الهوى، نجد في الدلالات اللغوية هذا الفارق الكبير بين كلمتي : خلق وأخلاق، والمعاني المشرقة منهما، والدائرة حولهما في اللغة العربية، وبين الكلمات الأخرى المقابلة لها بإبهامها، وعتامها، وإخلادها بأوهامها وشتاتها إلى الأرض، في اللغات الأوربية..

إن كلمة «خلق» تعني في اللغة العربية: السجية، والطبع، وهي بهذا المعنى الذي تخرج به من تشابهما مع كلمة «الخلق» أي النشأة بتقدير الخالق، ومع كلمة «الخلقة» أي الفطرة، إنما تعبر في كمال اللغة العربية

ودقة اشتقاقاتها عن هذا الارتباط والتلازم بين نشأة الإنسان بالخلق والطباع، أي بأفضل وأطهر أنواع السلوك الذي يتواءم مع العقل، ومع الحق، ومع الإيمان، ولذلك كانت كلمة «الخلق» و «الأخلاق» تعني بمعناها العام ومن غير تخصيص أنها : المروءة ، والدين، أي أنواع السلوك الإنساني التي يوجه إليها الدين ، والمروءة ، من الطهر والعفاف، والرحمة والصفح، والنجدة والإيثار..

والآن .. ومع اللغات الأوربية في هذا المجال الجديد، لنكتشف فاجعة التشتت في المعاني المقابلة لكلمة «أخلاق» و «خلق» بالعربية، نجد أول الهبوط والتردي عن المستوى القويم للسلوك الإنساني في كلمة ethics وأصلها اليوناني ethikos والتي تترجمها المعاجم العربية عن الإنجليزية بأنها: الفلسفة الأدبية أو «علم الأخلاق».. والحقيقة هي أنها في المعاجم الإنجليزية الأكثر دقة لا تعني في المفاهيم الأوربية أبعد من قواعد القيادة للآخرين، والتصرف معهم، والسلوك تجاههم لضمان المنفعة منهم!

كذلك فإن كلمة ethics على قمة الكلمات الدالة على علم السلوك الموصل إلى واقع نفع «ملموس باليد» تعني أيضًا: المبادئ الأدبية أو فلسفة الأدبيات بمفهوم المعنويات، كما تعني علم المعنويات والمجال المفتوح للتأليف فيه!!

أليست هذه «المعنويات» أو «الاستنتاجات الأدبية التهذيبية» أو «القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب» في مجال الأعمال الأدبية والفلسفات – مما تدل عليها كلمة moral بالإنجليزية ، والتي لا تتعدى إشاعة الجو «المعنوي» لقيادة السلوك، وتحقيق الثقة في القيادة، و «الانضباط» المريح لها وعمها، من أجل بناء عالم « الحقائق الملموسة» في هذه الدنيا، داخل مجتمعات الصراع على المنافع الطبقية، والفردية – هي

التأكيد للشعار الروماني القديم كما لا يزال سائدًا فوق أرجاء أوربا هـو : الحق هو القوة. والقوة هي الحق ؟!!

ثم نأتي أخيرًا إلى كلمة أخرى من الكلمات التي جعلتها المعاجم الإنجليزية العربية من «المتشابه» في توهم الدلالة على كلمة أخلاق وخلق في اللغة العربية وهي كلمة character التي يفترضون أنها تعني سجبة أو خلق، في حين أنهم يضيفون إلى جملة معانيها ما هو الصحيح في مفهوم اللغات والشعوب الأوربية وهو أنها تعني: النوع، والجنس، والسمة، والكتابة، والإشارة كما أنها تعني أيضًا: رقم، وحرف هجائي، وكما تعني الصيت السمعة ، ،

وكما نرى في تحليل جذور المعاني الأصلية لهذه الكلمة فإنها مركبة من كلمتين : char بمعنى شغل يومي، أو بمعنى أحرق. و act بمعنى يتصرف، أو ينوب عن، أو يمثل، أو مشهد تمثيلي، أو قرار ، أو لائحة.. وعلى هذا فيكون المعنى الأقرب إلى هذا التركيب في كلمة character هو: التصرف، أو السلوك اليومي، كيفما كان هذا «السلوك) الذي يحقق «المنافع الملموسة» لصاحبه، ومن غير خسائر، أي كيفما كان هذا السلوك الذكي الذي يحقق لصاحبه «الصيت» أو السمعة الحسنة، كما هو أحد معني كلمة character، وكما هو شائع في الإنجليزية من استعمال عبارة a man of character بمعنى رجل حسن السمعة بهذا السلوك أو التصرف الذكي لتحقيق المنافع «الملموسة باليد» في تعامله مع الآخرين..!

ومن هنا دخلت هذه الصور السلوكية جميعها وهي تتسابق في صراعاتها، وعلى شهواتها ومنافعها، سوق التضارب على «قيمة » كل منها في «تحقيق» هذه الأهداف الدنيوية، الواقعية، الملموسة باليد، بقدر ما

فيها من ذكاء التصرف، وفنون علم القيادة للآخرين، وقواعد الانضباط في هذه القيادة، وقدرات الاستخدام للتأثير الوهمي لعالم «الأدبيات» و «المعنويات» لضمان حسن السمعة بين ضحايا هذا الصراع الظاهر والمستتر.

بمعنى واضح فإن ما تعنيه اللغة العربية من الأخلاق الثابتة على مكارمها، والتي لا يطرأ عليها التبدل ..، أو تغير القيمة، مهما تغيرت العصور وأشكال الحكم – ليس له مقابل في أنواع التصرف والسلوك الذكي في حياة الأوربيين النفعية، والآنية، والدنيوية، إذ أن هذه التصرفات والسلوكيات قابلة دائمًا للتغير في قيمتها، بحسب تغير العصور، وأشكال الحكم، وهي في تغيرها ترتبط دائمًا بهذه الأهداف النفعية ، والآنية ، والدنيوية، الثابتة في حياة الأوربيين .

وهكذا نستطيع أن تفسر كيف أن ما كان حسنًا من أنواع السلوك تجاه المرأة ، والعبيد ، والفلاحين والحرفيين، في أيام اليونان الأوائل أخذ يتغير في «قيمته» باتجاه صور أخرى من السلوك نحو نفس الأهداف العدوانية الاستمتاعية الصراعية تحت حكم الأباطرة والقياصرة، كما تغير بعد ذلك نحو نفس الأهداف في عصر النبلاء وظهور الطبقة المتوسطة، ثم تغير بعد ذلك في عصر الظهور المتأخر للقوميات في أوربا، ثم عاد فتغير أخيرًا في عصر الثورات الاجتماعية والمذاهب الاجتماعية التي تتصارع اليوم تحت شعارات و«قيم» دائبة التغير، وحيث أصبحنا نرى المرأة التي أصبحت الآن بعد الامتهان الصريح لها على أيام اليونان الأوائل رئيسة حكومة، ووزيرة، وعالمة، وكاتبة، ومتساوية مع الرجل في جميع حقوق العمل والحياة – لا تزال في حكم الأمر الواقع في قبضة الامتهان والابتذال والرق البشع لحساب الرجل القاسي، والشهواني المدلس، وكذلك فإن جميع العبيد تحرروا ، كما تحرر الفلاحون

والعمال، من أجل أن يحملوا في عالم «القيم» المعاصرة.. القيم غير الإنسانية بطابع العدوان الروماني الظالم القديم.. أوزار وأثقال عبودية أبشع مما كانوا عليه في العبوديات السافرة في العصور القديمة.. عبودية «الأحرار» الذين قتلهم الانهيار النفسي، والقهر الاجتماعي، والانفصام العائلي، والصراع الوحشي على فتات موائد القياصرة الجدد، أفرادًا، أو أحزابًا ، أو طبقات.. حتى إذا ما اخترمهم الموت ، الذي ماتوه من قبل، سقطوا على وجوههم ، ولفظوا أنفاسهم، ووطئتهم الأقدام، ولم يبك عليهم أحد..!

أما الذي يثير أعظم الأسى، وأبلغ الحزن، مع تفاؤل أعظم بالمستقبل القريب عبر صحوة المسلمين المعاصرة، فهو هذه المحاولات المستمرة من دعاة الفكر والحياة «والقيم» الأوربية للضرب بمعاولهم الكلية في دعائم «الأخلاق» الدينية الثابتة، حتى لقد راجت كلمة «القيم» في موضع كلمة «الأخلاق».. وسادت في بعض أوساط المثقفين وبخاصة بين الشيوعيين هذه المفتريات المنهوكة القوى للادعاء بإمكان الجمع – بمفهوم التطور التاريخي – بين ثبات الأخلاق الإسلامية وتخلخل «القيم» الشيوعية الإلحادية.. ولكن لماذا لم تتغير بمفهوم هذا التطور التاريخي درجة غليان الماء، ولا سرعة الضوء، ولا حركة الأفلاك، ولا نظام الذرة؟ ... إنهم لا يجيبون .. وهم كذلك لا يفهمون.. وكيف يفهمون – ما لم يستكمل المسلمون فوق أرضهم العربية وبامتدادها صحوتهم، ووحدتهم – كيف يفهمون أن الأخلاق الإسلامية ثابتة بيقين العلم، وبرهان التطبيق، ثبات شروق الشمس من مشرقها، ومطالع الكواكب والنجوم من أفلاكها..

التقويم .. والتقييم:

وامتداداً لهذه المفتريات الشيوعية الشرقية، والغوايات الاحتوائية الغربية، يقع التناقض في حياة المسلمين الفكرية والاعتقادية بين الصحوة والغفوة، وهم يكادون يهجرون القرآن، ويستسلمون لما يراد بهم من الإجهاز على اللغة العربية الفصحى، لغة الإيمان، ولسان التدبر لهذا القرآن. وينسون بذلك بل وكأنهم يتبلدون أمام هذا النذير المدوي أمام أعينهم، وملء أسماعهم ، منذ سنة 1978 عندما تمكن الاتحاد السوفييتي من التسرب الشيوعي إلى أفغانستان فأقام أشقى حكومة شيوعية في بلد مسلم، وعندما دبت الحياة في الأفغانيين فقاوموا هذا التخريب لحياتهم، والتفويض لمقوماتهم، فلجأ الاتحاد السوفييتي إلى المغامرة بالغزو السافر لهذا الشعب المستضعف على كثرة عدده، هذا الغزو الذي أثار ثائرة الغرب على مواقع نفوذه، وأفزعه أن تقع خيرات وموارد هذه المواقع في أيدي الشيوعيين.. منافسيه على هدف السيطرة على كل العالم.. !

هذا الغزو الوحشي ، الذي ظهرت به للعالم أنياب الدب الروسي القيصري ، الشيوعي الإلحادي، وهي تمزق جسد « فريسة» الأفغانية المستضعفة ، والذي تحركت لتمزيقه وابتلاعه عشرات الألوف من القوات السوفييتية براً وبحراً في الأيام الأولى من يناير سنة 1980 ، مندفعة إلى جريمتها المعلنة أمام العالم، وأمام المسلمين ، بنشوة الفودكا ، وشهوة الاغتصاب، ونزوة الغرور.. فماذا يكون في ردود الفعل على المسلمين إذا لم يصروا على «استسلامهم» وتفرقهم بعد هذا العدوان الشرس، والتحدي المتصاعد؟

هل يتحركون على جميع الطرق الصحيحة المفتوحة أمامهم بإتباع المنهج الذي سار عليه أسلافهم؟.. هل مع هذا التحرك العاجل يسارعون إلى

استعادة مقوماتهم، بادئين باللغة الفصحى التي تردهم إلى تدبر كتاب الله إليهم؟!

هل يتحررون حقًا من خيال الفكر الشيوعي المستورد، ومن غواية الفكر الاحتوائي الغربي المتسرب، عائدين إلى ذاتهم، وحقيقتهم، بالعودة إلى الثابت من أخلاق الدين، وسجايا المؤمنين؟!

هل يفطن المسلمون حقًا – كما نؤمن بقرب ذلك – أن الأخلاق بمفهومها في كتاب الله، وفي دينهم ولغتهم أبقى وأهدى لهم من كلمة «القيم» الوافدة بمفهومها الشائع والمتغير في لغات الشرق والغرب؟!

هل يرجع هؤلاء الخراصون باللغة عن إشاعة غير الصحيح في اشتقاق بعض الكلمات، وفي تركيب بعض المركبات، وفي الترجمة الحرفية عن اللغات الأجنبية للناشر والغريب من بعض المصطلحات؟!

هل يثوبون إلى رشدهم، ويعدلون عن وهمهم، حبًا في الإسلام، وحفظًا للعربية التي يحفظها الله بحفظ القرآن، فتراهم إن شاء الله يقولون الصحيح لكلمة «تقييم» وهو «تقويم»، والصحيح لكلمات ومصطلحات ومركبات أخرى كثيرة – ليس هنا مجال إحصائها – سوف يظهر الصواب في نطقها واشتقاقها وتركيبها في ضوء «التقويم» السليم لهذه البداية، وبالعزم الأكيد على «تقويم» أخطائنا اللغوية، لأن هذا هو المنطلق، وهو الطريق للحفاظ على شروق الحقيقة الإسلامية، وخصائص «الذات العربية» لشعوبنا التي تواجه اليوم مع تباشير صحوتها إلى مقوماتها، ودعمها لهذه المقومات، أشرس وأقوى التحديات لبقائها ونمائها..

نعم .. إن هذا التمادي في استعمال اللفظ الخاطئ وهو «التقييم» بمعنى الحكم على القيمة والتقدير لها ، بدلاً من اللفظ الصحيح وهو «التقويم» هو في ظاهره وباطنه شعار يرفعه المستعجمة باللغة لتقويض مبدأ «التقويم» السليم بمعنييه الثابتين في حياة المسلمين المتبعين غير المبتدعين، وهما «التقويم» بمعنى الحكم على الأشياء أو الأمور، و«تقدير» قيمتها ، ودرجة صلاحها ، ثم «التقويم» بمعنى التصحيح والعدل للمعوج منها ، والردع والإصلاح للفاسد بها ، وذلك بعد أن تم «تقويم » قيمته ، وتقدير درجة حاجته إلى الاعتدال عن هوجه ، والصلاح بعد فساده..

ومع هذا الجهد الاستهوائي والحثيث في تيار « العامية » وأمراضها ، باتجاه تقويض الفصحى وطمس معالمها ، أي لتقويض مبدأ «التقويم» في سلامة كلمات اللغة العربية ، المتسقة مع سلامة معانيها ، يستمر هذا الاستمراء لشيوع استعمال هذا اللفظ العامي العليل «التقييم» ليتحقق بذلك مناخ التقارب مع شيوع استعمال كلمة «القيم» بدلالاتها القابلة للتغير مع تغير الظروف ، والأمكنة ، والعصور، كما هو الحال في تغير هذه «القيم» مع متغيرات الصراع والاستمتاع في مذاهب الحياة الأوربية ، ولغاتها ، منذ عصور اليونان الأوائل ، في الوقت الذي تشتد فيه حاجة المسلمين والشعوب العربية إلى الحفاظ القوي والواضح لمعنى «الثبات» لما أوصاهم به الدين الحق في كل رسالاته من مكارم «الأخلاق» كما جاءت بها اللغة العربية ، وكما انتظمت من حولها من غير خلاف على «المعروف» و «المنكر» من هذه الأخلاق، وكما يتجلى هذا الثبات المؤنس لذوي القلوب المؤمنة ، والرحيمة ، والسمحة ، في نور القرآن الذي لا يأفل، ومع شمس الإسلام التي لا تغيب.

الخطأ الظالم:

وحتى يتبين مدى الخطأ الظالم في تيار هذه «العامية» اللاهية الواهية، نرجع أولاً إلى هذه القواميس والمعاجم اللغوية، كما نجدها باقية بين أيدينا إلى اليوم، حجة الأسلاف علينا، ونعمة التراث في تذكيرنا، على الرغم من أن واضعي هذه المعاجم من الأعاجم، الذين لم تمنعهم أمانة العلم، وهم ينقلون الصحيح عن معلميهم من العرب، ويحتفظون به كما هو عن روائهم ومصادرهم – عن هذه الدقة في النقل، وعن هذا الجمع النشط لكل المروي، لكي يحفظوه لمن يعيه، ولمن ينتفع به وهو يجتهد في استخلاص المزيد من الفقه والاجتهاد في علوم الدين واللغة في ضوئه..

إننا بالرجوع إلى هذه المعاجم بحثًا عن كلمة «التقييم»، وطلبًا للحقيقة العريقة في معاني وجذور كلمة «التقويم» سنجد في إجابات هذه المعاجم الأمينة مصداق رأينا، ومصباح حجتنا، على هؤلاء المتعالمين المتفقهين، الغرباء بعجمة قلوبهم وألسنتهم عن سلائق العربية الفصحى، والمفتقدين في أهواء ابتداعهم، وفتنة معاجزتهم، لسلامة الحس لهذا الارتباط المكين، والمقدس، في حكمة الله، بين اللغة الفصحى والدين الحق. وهكذا في القاموس المحيط للفيروز ابادي الشيرازي، وهو أصيل في نسبته للعجم مثل سيبويه وابن جنى وغيرهما – نجده يقول في المعنى القويم لكلمة «التقويم» بعيدًا عن البدعة العامية في «التقييم»:

«والقيمة بالكسر واحدة القيم، وماله قيمة إذا لم يدم على شيء، و«قوّمت» السلعة واستقمتها «ثمنتها». واستقام اعتدل . وقومته عدلته، فهو «قويم» ومستقيم.. ».

«التقويم» إذن – وهو اللفظ الصحيح- مرتبط بمعنيين متكاملين حول أساس التقدير والعدل، فمنه التثمين للشيء، أي «التقدير» لحقيقة ما يساويه أو ما يدل عليه، ومعه مما يتكامل معه هذا «التصويب» للخطأ في التقدير، و«العدل» للميل والاعوجاج، لتمضي هذه الأشياء والأمور بعد «تقويمها» أي تقديرها، وبعد «تقويمها» مرة أخرى أي تصويبها وعدلها- على طريق «الاستقامة» بالعدل، كما جاء بذلك أمر الله بالدين الحق، وكما حفظت هذا المعنى القويم بذلك لغة القرآن الفصحى، بما أوحاه الله في «خصائصها» وملكاتها من البيان عن الحق، ومن المواجهة بهذا الحق للباطل..

كذلك فإنه في معجم آخر أكثر تداولاً في مصر في العصر الحديث، في الأزهر، ومدارس المعلمين بأنواعها، ومدارس وزارة المعارف قبل أن تصبح وزارة التربية والتعليم، وهو – «مختار الصحاح» الذي جمعه العالم اللغوي المحقق محمد بن بكر بن عبد القادر الرازي، من علماء الأعاجم أيضًا، وقد تولى ضبطه وعنى بترتيبه عدد من أجلاء علماء اللغة في مصر، وقد جاء فيه حول كلمة «التقويم» ما يأتي:

« القيمة واحدة القيم. و«قوَّم» السلعة «تقويمًا». وأهل مكة يقولون «استقام» السلعة وهما بمعنى واحد. و«الاستقامة» الاعتدال. يقال «استقام» له الأمر. وقوله تعالى : (فاستقيموا إليه) أي: في التوجه إليه دون الآلهة. و«قوَّم» الشيء (0تقويمًا» فهو «قويم» أي مستقيم..» .

كذلك ونحن نحتج بحجة الله إلينا، وبحجة اللغة المبينة معنا، في بيان مدى هذا الخطأ الظالم، المتوالد بالكثير من طفيلياته في رواكد العامية وعجمتها، وفي هوى العجمة وابتداعها – نقول ثانيًا إن جميع علماء اللغة، وواضعي المعاجم اللغوية، جمعًا وضبطًا وترتيبًا، وأكثرهم من

الأعاجم، لا يمكن أن يكونوا سندًا لمثل هذا الباطل في اللغة، في مثل الكلمة «المائعة» الخطرة «تقييم» وأخواتها اللائي يدرجن كاسيات عاريات وراءها. ذلك أن هؤلاء مهما كان انتماؤهم إلى الفرس أو الهنود، وإلى الروم أو الترك، لا يقبلون وهم إيقاظ، وما لم تغلبهم العجمة عن إدراك الخطأ، أن ينتهكوا حرمة العلم المحفوظ بصدق الرواية، وبأمانة النقل، وحجة الإجماع، لهذه المعاجم التي اجتهدوا في جمعها، وارتحلوا إلى البوادي لسؤال الرواة عن غريبها، وقد جعلوا لنقل الصحيح من اللغة كما تركها السلف الصالح من العرب من صحابة الرسول «قدسية» هذا الذي ارتحلوا وراءه من جمع الصحيح من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهكذا فلو تصورنا خطأ أحدهم في رواية ما سمع، وفي حفظ ما جمع، فنقل الدخيل، أو جمع الساقط، فإننا لا نستطيع أن نتصور إجماع كل المعاجم، وكل الرواة لصحاح اللغة بها، على مثل هذا الساقط أو الدخيل، بمثل إجماعهم على الكلمات الصحاح بغير تعالم، ومن غير أن يميل أحد برأسه كبرًا وزهوًا.. وإلا فأين الدليل على أن الجامعين لصحاح اللغة في معاجمها لم «يجمعوا» على أن «التقويم» بمعناه الحق في لغة العرب وكتاب الله، لا يتطاول إليه مس بدعة «التقييم» وأخواتها، في أفواه من استراحوا للكبر بالخطأ، والظلم للصواب.. ؟!

ومع ذلك فلو تصورنا أن أحدًا من هؤلاء العلماء على جهدهم في الجمع لتراث اللغة، والحفاظ بالأمانة على صحة النقل لصحاحها من مصادرها، قد اعتراه بعض ما اعترى هؤلاء المتأخرين من التردي بوهم العجمة في بدعة المعاجزة للغة القرآن، ومحنة المناجزة لأسوة الرسول، في حبة للعرب، وللعربية، التي هي لسان القرآن العظيم، ولسان أهل الجنة في منزلهم الكريم – فإن مثل هذا العالم المتجني، سواء أكان هو سيبوبه أو

ابن جنى – ليس في حال الخطأ عفواً، أو الخطأ عمدًا، بالحجة على العرب الأوائل.. فينسب إليهم خطؤه، أو بالحجة على العرب المعاصرين.. ليأخذوا وراءه بخطئه، أو ليسيروا معه على هواه..!

لقد اجتهد الكثيرون من علماء الأعاجم، لغويين وجامعي حديث، في تمحيص مصادرهم حتى تصدق روايتهم عن العرب، الذين كانوا كما شاء الله بعد ظهور الإسلام وانتصاره وانتشاره: تلامذة علومهم، وصدقة جهادهم الطويل عن القرآن والسنة، وعن اللغة والدين. وهكذا عاشوا بشعار الأمانة في النقل، والجد في الطلب، والتمحيص للمصدر، كما عاش البخاري وهو يجمع صحيحه مثالاً حيًا على ذلك . وحتى كان من قول أي عمرو بن العلاء وهو من أعلام علماء اللغة العرب السابقين، وهو يرثى لحال هؤلاء المترحلين من الأعاجم وراء ما تركه العرب من جوامع الدين والحكمة والشعر، مع قلة ما وصل إليهم من ذلك ليتعلموا عليه، وليشرفوا بجمعه وحفظه، فهو يقول:

«ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا قلة، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير».. وهذا النص بذاته من أقوال أبي عمرو بن العلاء أورده ابن جنى في خصائصه، وهو يأسى معه على ما فقده المسلمون عربًا وعجمًا من حسنات هذا التراث.. لولا القرآن الكريم، وصحيح السنة، في حفاظهما على موازين الصحيح من الدين، والصحاح من اللغة..

وهنا نرجع إلى الكتاب المنير في مواجهة هذه «العامية» المستعلية بتفاهتها، والمدلة بخطئها وابتداعها، إذ هو الكتاب الحافظ للفصحى في لسان المؤمنين، والحسنى في حياة المتبعين غير المبتدعين، لنستخرج حجة الله على هؤلاء الواهمين العاثرين، وهي حجة قريبة ودامغة في قوله تعالى :

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

فهل قال تعالى: في أحسن «تقييم» .. حاشا لله .. وتنزه كتاب الله ..؟!

وهل جاء هذا اللفظ المبتدع في أي آية أخرى من هذا الكتاب الكريم.. ؟!

ثم .. لو تصورنا ما لا يرضى الله عنه من تنكير وجه اللغة الفصحى بهذا التمادي في العامية الإبتداعية بتنكير الصحاح من كلماتها، وتسميم العذب من منابعها، فكيف نتصور فداحة ما ينتهي إليه حال المسلمين والعرب في العالم – وحسبهم ما هم فيه اليوم من البلاء المحدق، والتهديد الدائم – لو تم لهؤلاء المروجين من العلماء لكلمة «التقييم» وأخواتها، وطفيلياتها، ما قد يصبون إليه، أو يعتزمون الاسترسال فيه.. كيف يمكن أن ينتهي باستفحال هذه العامية في الألسنة، والعجمة في المعاني والقلوب- تدبر المسلمين للقرآن الكريم، وهم بالضرورة سوف ينتهون بالقياس على بدعة «تقييم» إلى أن يقولوا من كلمات صحيحة في آيات كريمة من آيات الكتاب الحكيم، وبالقياس إلى هذه البدعة والفتنة ما لا يرضى الله عنه ولا رسوله ولا المؤمنون..

إننا نسأل كيف سيقرءون قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: 24] ...؟!

وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[غافر: 64...... ؟!]

وقوله تعالى : ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: 1... ؟!]

هل سيقرءون «المصور» فيقولون «المصير» ... ؟!

وهل سيقرؤون «كورت»فيقولون «كيرت».. وفي سورة «التكيير» .؟!

وهل سيقرؤون على هذا القياس كلمات كثيرة في كتاب الله بهذا «الخلط» الآثم الذي: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: 90]

وعلى هذا القياس، ومع «التدرج والتدريج والاستدراج» ستتحول مئات الكلمات العربية الفصحى عن مسارها في لغة الأمة العربية المعاصرة، وهي في أشد الحاجة إلى صحوتها بصحيح الدين، وصحاح الكلمات والمعاني في اللغة، وذلك حيث يقول الناس – فيما يرجو هؤلاء المرجفون – قياسًا على «تقييم»: تطيير بدلاً من «تطوير»، وتتيير بدلاً من «تتوير»؟ وتزيير بدلاً من «تزوير» .. وكلمات تهييم وتتييم وتعييم بدلاً من تهويم، وتتويم، وتعويم.. وكلمات تدييل وتهييل وتعييل.. بدلاً من الكلمات الصحيحة في اللسان القويم : تدويل.. وتهويل.. وتعويل... !! ؟ .

ولكن الله سبحانه وهو أحكم الحاكمين، يتم آياته في السورة التي تحدث فيها عن فضله ونعمته على الإنسان الذي خلقه في «أحسن تقويم» فهو تعالى يقول: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: 4- 6].

فهل يتوب حقًا أولئك المبتدعون العابثون، والمرجفون الأعجمون، عن التمادي في التوكأ على البدعة، والتبطن بالمعاجزة، متأثمين بعد الوقوع في الإثم عن استمرار هذا العدوان على الصحاح من كلمات هذه اللغة الكريمة التي نزل بها القرآن الكريم.. أم تراهم ينطحون الصخر، ويستافون الوهم، وهم يدرجون بالظن والهوى، مكبين على غلوائهم والشيطان في ظهورهم، مستكبرين عن نصح الناصحين، وسادرين في غيابه المبلسين.. والله سبحانه يقول في شأن الغافلين عن آياته، والمعاجزين

لبيناته، والسادرين عن ضرباته.. من الناكبين عن الطريق، والمتطاولين بالعقوق: إنه سبحانه يقول: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: 22]

بلى .. إن الأهدى هو من يمشي سويًا على صراط مستقيم.. ومن خلقه الله في أحسن تقويم . وصدق الله العظيم .. الذي له الخلق والأمر.. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الرابع

شهادة الفلاسفة القدماء على الفلسفة

أنها نقش على الماء وحلول إنساني في الآلهة



قبل هذه البداية المعروفة لنشأة الفلسفة اليونانية على عهد فلاسفتها الكبار سقراط و أفلاطون وأرسطو، عاش اليونانيون تلك المرحلة التي تأثروا فيها بالكثير من الأفكار والعلوم والصناعات التي استطاعوا تحصيلها من شعوب الحضارة العربية المجاورة لهم عن طريق البحر، في الشام ومصر وبابل، والتي حاول الإغريق في مرحلة الفهم والهضم، والاستيعاب والاستخلاص، أن يخضعوها لمنهجهم الخاص في التفكير، ولنزوعهم الآري الهندي لبناء مجتمع السادة المستمتعين فوق طبقة العبيد المسحوقين..!

هذه المرحلة التي سجلها تاريخ الفلسفة تحت عنوان «الفلاسفة قبل سقراط» شملت أعراض المخاض والولادة للفكر اليوناني بكل سماته وتوجهاته.

وقد اشتهر من هؤلاء الفلاسفة الأوائل نحو اثني عشر فيلسوفًا يبدءون من طاليس في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، ومنهم فيثاغورث وأنكساجوراس في تلك المرحلة، وعلى الرغم من ظهور السفسطائيين الذين اشتغلوا بتعليم أبناء السادة فن «الخداع بالجدل» اللعب بالألفاظ، ظهر بتأثير العلوم العربية الأولى في تكوين الإغريق

اتجاه علمي وعملي جاد بين هؤلاء الفلاسفة بالقدر الذي تيسر لهم داخل عتام وجليد البيئة، وتحت مقتضيات خدمة الملوك، ومتابعة أهوائهم، في ترويج الأسطورة، وتنمية باطنية الفكر، وتعظيم هدف المتعة . فكان من هؤلاء القلة من بحثوا في عناصر الطبيعة المحسة والمشهودة ، وفي تركيب هذه العناصر، وفي محاولة حل بعض المشكلات العملية المفيدة للشعب اليوناني في الحياة الجادة مثل قياس بعد السفينة في البحر، وانتقال جيش عبر النهر ، وتحديد فصول السنة تحديدًا دقيقًا...

على أن السفسطة ولعبة الخداع بالجدل، والتي كان سقراط أحد ثمراتها، ظلت الطبيعة السائدة لتربة الفكر اليوناني الفلسفي، كما ظلت هي الانعكاس الأكثر نشاطًا لظلام وجليد وجدب البيئة اليونانية على حركة هذا الفكر باتجاه الشتات، والعبث، والشك... حتى في إمكان المعرفة من طريق الفلسفة، وإلى حد تعريض هذه الفلسفة الحائرة والخائرة لأنياب السفسطة نفسها، ولعبتها الجدلية الخداعية، للسخرية منها، وتعرية أوهامها..!

النقش على الماء:

وفي كتاب كتاب ج. ف. ديسون « خطباء اليونان» ترجمة أمين سلامة، ومراجعة العالم المحقق الدكتور محمد صقر خفاجة، يقول ديسون من حديثه عن مرحلة من مراحل السفسطائيين الذين أعلنوا الشك في إمكان المعرفة الصحيحة، وأكدوا العجز عن اكتشاف هذا المنهج السليم للتفكير بمحض التفلسف القائم على الفروض الوهمية:

"... وفي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد عندما فشل خيال الفلاسفة الأيونيين الطليق في حل لغز البقاء على أسس طبيعية قام بارمينيدس الفيلسوف الباحث في الأسباب والمسببات وأنكر احتمال المعرفة الصحيحة، كما أن زينون الأبلي، المنطقي، لزم الصمت إزاء ما انتهى إليه قرارهم من أن «المعرفة» ليست مستحيلة فحسب، بل لا يمكن تبرير الإسناد النحوي أيضًا إليها، فلا يمكنك أن تقول عن شيء آخر، أو إن الأشياء المتشابهة غير متشابهة، فأصاب الفلسفة من جراء ذلك العار، وانتشر الشك في ربوع العالم الأغريقي»!.. نلاحظ هنا أن المقصود بكلمة «المعرفة» هو الفلسفة.

ثم يقول ديسون أيضًا من حديثه عن هؤلاء السفسطائيين من آباء الفلسفة بوجه عام:

« بدأ جورجياس الليونتيني، أحد معاصري بروتاجوراس- وكسفسطائي من حيث الاعتقاد، بتقرير أنه لا يمكن معرفة أي شيء، وأن متابعة الفلسفة كالحرث في الرمال، أو النقش على الماء، لا تخرج منها بنتيجة»!!

المجتمع الإغريقي:

كانت نشأة الإغريق في بلادهم التي استقروا عليها عند بحر إيجه، بعد مراحل هجرتهم مع قوافل الشعوب والعشائر الهندو أوربية، بعيدة عن أن تبدأ بشيء أصيل من تراثها الهندي تملك به أي قدر من مقومات حضارة عقلية علمية إنسانية.. ولذلك فقد جمعوا في ترحالهم، وفي المراحل نحو استقرارهم الأول، وباتصالهم من طريق البحر بجيرانهم المتحضرين الأقوياء من العرب الكنعانيين والمصريين وغيرهم، كل ما استطاعوا جمعه ليقيموا به الأسس القابلة في مجتمعهم الهمجي العدواني الأول.

هذا المجتمع الإغريقي الأول وصفه بأقرب قدر من الصدق التاريخي المؤرخ الهولندي الدكتور هندريك فان لون في كتابه الشهير « قصة الجنس البشري» الذي ترجمته ونشرته مطابع الشعب، فمن هذا الوصف الذي يصور عناصر خلل الفلسفة اليونانية، وجنايتها على تخلف الأوربيين عصورًا طويلة وعلى عدوانيتهم حتى على أنفسهم بالإلحاد والخمر والجنس، والأساطير التي يروجونها باسم السياسة والاقتصاد العلم – يقول فان لون:

«لقد كانوا على جانب كبير من انحطاط الخلق، وكانوا يعيشون عيشة الخنازير، ويلقون بأجساد أعدائهم إلى الكلاب المتوحشة التي

كانت تحرس أغنامهم، وقلما كانوا يحترمون حقوق الشعوب الأخرى، فقد قتلوا أهالي شبه جزيرة اليونان الذين كانوا يعرفون باسم الفلاسجة، ونهبوا مزارعهم، واستولوا على ماشيتهم، وسبوا نساءهم وبناتهم»!

حقًا ما أقرب هذه الصورة البشعة في طرق انتزاع اليونان لهذه الأرض من أصحابها إلى الصورة البشعة نفسها، وبعد نحو خمسة وعشرين قرنًا، عندما انتزع حفدتهم من الإنجليز والفرنسيين والألمان أرض القارة الأمريكية من أصحابها «الهنود الحمر» فقتلوهم حتى الإبادة، ونهبوهم حتى المجاعة، وسبوا نساءهم وبناتهم حتى العار.. العار الوقتي والساحق للضحايا.. و العار الأبدي والتاريخي للمغتصبين المتوحشين.. حفدة اليونان.. ومدينة أفلاطون الفاضلة.. بلغة الهمجية والعار وأمراض الخمر!

ويقول فان لون عن هؤلاء الهمج بعد أن توصلوا إلى استعمال الأسلحة كما نقلوها من الأبجيين، الذين كانوا قد نقلوها قبلهم من بابل وطيبة، ثم بعد أن تجاسروا على ركوب البحر وبأيديهم هذه الأسلحة، وأخذوا يغزون بها المدن المجاورة لهم بعد تخريبها.. يقول عن طبيعة الحياة الطبقية الاستبدادية الاستمتاعية في مجتمعهم ومدنهم تحت حكم الطغاة، والسادة المتجبرين:

«ومن ثم فإن المدينة الإغريقية إذا لم يكن يحكمها ملك أو طاغية فقد كان يحكمها السادة لصالح طبقتهم. ولم يكن هذا ليتأتى إلا إذا توافر جيش جرار من العبيد يفوق المواطنين الأحرار عددًا بنسبة ستة أو خمسة إلى واحد وكان شأن العبيد شأن الآلة في المصنع الحديث حتى لقد كان يلقى بهم إلى الوحوش لأتفه الأسباب»!!

ثم يقول عن أكذوبة الديمقراطية الإغريقية الطبقية والاستبدادية وذلك في الصفحة 33 من الجزء الأول من هذا الكتاب، وبعد السطور السابقة:

«وكانت الديمقراطية الإغريقية لا تعترف إلا بطبقة واحدة من المواطنين خولت لها حق مناقشة مسائل الحكم جميعًا، وهذه الطبقة هي الأحرار السادة، فقد كانت كل مدينة إغريقية تتألف من عدد صغير من المواطنين الذين ولدوا أحرارا، وعدد كبير من العبيد، وأشتات من الأجانب الذين لم يكن الإغريق يبدون استعدادًا لمنحهم الحقوق المدنية»!!

الإغريق ومتاهة الأساطير:

في هذا المناخ الاستبدادي والاستمتاعي والهمجي انفجر مع الخمر، والعدوانية. ونزوة سرقة الشعوب لأسباب المتاع وراء الجيوش، وباسم الحروب ، سبل هذه الأساطير التي انطلقت تملأ حياتهم من تحت أقدام إلاه الربيع ديونسيوس، وإلاه الخمر باخوس، باتجاه التقديس الأعظم الكبير هذه الآلهة الوهمية «زيوس» الذي يتمثل فيه من أرواح الطبيعة بالمفهوم الهندي الآري «روح النهار» أي هذا الوقت المحدد من الزمن الملائم، الذي يستطيع فيه اليوناني فوق حطام عبيده، وبجوار مسروقات متاعه، أن يسكر ويفجر، وأن يهذي ويتبختر، دون رقيب أو حسيب..!!

وهكذا أظهرت هذه الأساطير الأولى في حياة هذا اليوناني الأول، حاملة من أشتات نفسه الممزقة باختلاطاتها، واطماعها، وعدوانيتها، أغرب هذه الأساطير عن مثل «السيكلوب» العملاق الذي يرمز إلى نوع من البشر لكل منهم عين واحدة في وسط رأسه، ومثل «القنطور» المحارب الذي له صدر ورأس يمسك بالرمح، وجسد وأرجل حصان متحد بهذا

المقاتل الذي تخلى عن أرجله ليكتسب، أو ليغتصب لنفسه من الحصان سرعته وقوة احتماله!!

كذلك فقد كان في رأس هذه الأساطير اليونانية التي تشبه في دوافعها غير السوية ومخلوقات الكابوس، أسطورتهم التي ترمز إلى مأساتهم حتى لتكاد تجسدها، والتي تجمهروا بها طويلًا وهم يحتفلون سكارى بأعياد الربيع والخمر حول هذا «الإنسان الماعزي»، الإنسان التاعس الذي احترف الغناء، والذي أظهرته الأساطير اليونانية في هيئة المخلوق الذي أعلاه بشر، وأسفله عنز، والذي سموه «المغْنى الماعزي» أو «المغْنى العنزي» واسمه باليونانية tragos-oidos..!!

وهكذا فيما سموه أعياد الربيع والخمر كان اليونان السادة يملأون الشوارع ويؤلفون المواكب، وقد لبسوا ملابس «المغْنى الماعزي»، ومضوا نحو كل ما ترميهم به نشو اتهم من بدع، وإلى كل ما تلقي بهم فيه من أوزار يثغون ثغاء الماعز، هذا الثغاء البائس الذي كانت تعبر به تلك الجماهير الذاهلة بالشهوة والخمر، في لحظة صدق مأساوي، عن أقرب الأصوات الحيوانية المستضعفة دلالة على الذعر والاغتراب، وهو صوت هذه «العنز» عندما تضل الطريق عن رفاقها في القطيع، فتثغو ثغاءها البالغ الجزع والألم والحزن، بما تكاد تتقطع له القلوب..!

هذا الإدراك الرمزي والأسطوري لفداحة المأساة التي عاشها اليونان الأوائل، خلال هذه الحياة الهمجية العدوانية الاستمتاعية، التي يتقلبون بها كل يوم على أسنة أوزارهم وخطيئاتهم، ويتخذون فيها بأوهام فلاسفتهم وسفسطائيهم- هو الذي جعلهم يختارون من كلمة «المغْنى الماعزي» أو العنزي Tragos Oidos كلمة Tragedy للدلالة في مسرحياته التي يلفقها خياله عن واقع لا يعيشه ويتمنى غيره – على «المأساة » أي هذه

الأحداث التي تنتهي في هذه القصص الملفقة بخاتمة مؤلمة، مثيرة، وفاجعة وكأنها تجمع في ضحايا هذه الأحداث الوهمية في المسرحية صورة هذه «العنز» المستضعفة عندما تفاجأ بانقطاعها عن رفاقها، وشتاتها بالتيه عنهم، فتثغوا ثغاءها الطويل، البالغ الجزع والألم والحزن، بما تكاد تتقطع له القلوب!!

وبالضرورة فقد وضعوا لهذه التجارة المسرحية الأخرى الخاصة بالإضحاك – إلى جانب هذه التجارة بالإيلام- كلمة كوموس Comos التي أصبحت «كوميدي»، والتي فتحت الطريق واسعة نحو صناعة «التمسخر» حيث يمكن التوهم، وخداع النفس، بأن ضحكات «الملهاة» يمكن أن تجفف دموع «المأساة» .. أو أن ساعات مدفوعة الثمن للعبث واالهو داخل المسرح الكوميدي يمكن أن تضمد جراح الفساد الأغلى ثمنًا، في حياة أي شعب، قد يصاب في حياة «العدوان والوهم» بالضلال البعيد عن حياة « السلام والعلم»..!!

وهكذا مضى اليونانيون الأوائل يضحكون من مأساتهم العقلية الفلسفية في مواكب «المغني العنزي» ومع حفلات الربيع والخمر، ليصدق عليهم في استعلائهم الآري، وفي تفلسفهم الخيالي، ما قاله عنهم أحد شعرائهم .

«هزيود» فيما رواه أحمد أمين في كتابه «قصة الأدب في العالم» من أن اليونان الأوائل: «خلعوا صفات الإنسان على آلهتهم بعد أن حملوها نزواتهم، وبعد أن صنعوا فلسفة للكون تماشي تسلسل هذه الآلهة وتوزيع الاختصاص بينهم»!!

ويمضي أحمد أمين في هذا المعنى فيقول: «إذا كان الهنود يعتقدون بالحلول الإلهي في الكون، فإن اليونان اعتقدوا بالحلول الإنساني في الآلهة

. فالإنسان عندهم حال بكل شيء، حال بالآلهة، ثم حال بالطبيعة التي تصوروها تملك خصائص كل إنسان . وهكذا اتخذ اليونان من الإنسان محورًا للوجود كله، ومنبعًا له »..

هذا الحلول البشري بعد «التأله» بمعنى الاستعلاء على كل البشر باتشاح أثواب آلهة وهمية يخلعون عليها كل نزواتهم وهمجيتهم، كان مركز انفجار كل عوامل «المأساة» في حياة اليونان الأوائل .. هذه «المأساة» التي عبروا عنها جماعيًا وهم يثغون مخمورين ثغاء العنز الضالة عن الطريق، الجازعة من الاغتراب، المذهولة أمام هاوية الضياع، بعيدة عن الهدى.. والرفاق.. والأمل..!

فهل هذا هو ما يطلبه من العرب دعاة التفلسف وراء الأوربيين وأساتذتهم من اليونان؟.. هل هذه المأساة العقلية، التأليه، الهمجية، الفلسفية، الوهمية، الانهيارية.. هي نفس ما يطلبونه لمواطنيهم العرب!؟ .. أم إنهم في حقيقة الأمر قد غفلوا تمامًا، بمثل هذا الهوى التفلسفي بغير علم، عن ثغاء الماعز.

وعن دلالته في مأساة حياة أصدقائهم من اليونان الأوائل..!؟

أفلاطون وجمهوريته:

وكنا قد أشرنا قبل إلى أن أفلاطون – كما جاء في الموسوعة الفلسفية المختصرة والتي ترجمها عن الإنجليزية فؤاد كامل وآخرين، ثم راجعها وأقرها د. زكي نجيب محمود- هو أول فيلسوف يوناني مارس البحث في الفلسفة بأتم المعاني التي تعنيها هذه الكلمة بالنسبة لجميع من سبقه من الفلاسفة، حتى سقراط الذي كان متأثرًا بمنهج السفسطائيين، فلننظر الآن إلى هذا المثال الأفضل للفلسفة اليونانية وهو

ولنستعرض ذروة الأفضل من ثمرات ممارسته الفلسفية وهو «المدينة الفاضلة» أو «جمهورية أفلاطون» التي وضع فيها بفكرة الخيالي الفلسفي أسمى ما ارتفعت إليه أحلامه «الإنسانية» في هذه اليوتوبيا أو «اللا مكان» – باليونانية ow-topos - لتكون في ارتفاعه بمستوى آماله الإنسانية إلى حيث لا يوجد مكان في الأرض يتسع لها- أي لتكون منارة بعيدة الإشعاع الفكري، والخيالي لكل البش، وفوق كل الأمكنة والعصور، باتجاه ما هو الخير والعدل والأمن في خيال جميع المفكرين..!!

نعم.. سنستعرض- على طريقتنا من الإنجاز، ومن استخدام منهجنا العربي من مواجهة عقل القارئ والمستمع بالحجج الفاصلة والقاطعة ضد هذه الأوهام والغايات الخيالية التي يقوم عليها صرح هذه الجمهورية الوهمية اليوتوبية، وحتى نرى بوضوح على أي معراج يصعد، أو إلى أي هاوية يهوى.. فكر وعقل أفلاطون داخل هذا الصرح الوهمي.. الفلسفي!!

ونبدأ في ضوء ما جاء في «الموسوعة الفلسفية المختصرة» فنرى معها أن أفلاطون كان يرى في كلمة «مثال» أنها الصورة الأولى المرئية، ثم أصبح معناها «الصورة» بصفة عامة، وأنها اسم لذلك الشيء الواحد ذاته، الذي هو في ذاته كامل، وخالص، وخالد.. وإذن فهذه «المُثُل» التي اكتشفت بلا توقع – في عالم المعقولات- كانت هي نقطة الابتداء التي يبحث عنها أفلاطون ليضمن السداد في كل من الجانبين العملي والنظري، بل التي كان يبحث عنها لتكون نوعًا من «الدين» فقد عدها أفلاطون – أي هذه المثل – إلهية!!

وعلى هذا، وفي جو هذه القدسية التي تم افتراضها بغير حدود علمية، ولا برهان مقنع، وضع أفلاطون كتابه الذي تصور فيه «المدينة الفاضلة» أو «الجمهورية الفاضلة» على أساس قيام الحكومة الصالحة

لإرادتها من ملوك، وفلاسفة يعرفون قدسية «المثل» و «الصور»، وأن يكون حكم هؤلاء «مطلقا»، وليس مقيدًا بالقوانين بالقوانين الجامدة..!

ثم نرفع الستار أمام القارئ عن عدد من هذه «الصور » المخزية، والخرافية، التي وضعها هذا الفيلسوف الذاهل عن عقله الفطري، وهو في حالة نشوة غير محدودة، بعد ان ارتدى ثوب «المغنْي الماعزي» الشهير، واحتفل كما يحب بإلاهي الربيع والخمر- وذلك حيث يقرر في جمهوريته الأكثر من شيوعية ومن إلحادية ومن قهرية واستبدادية بلغة العصر – أن الأمر في إنشاء هذه الجمهورية – المستحيل قيامها والحمد لله- سيؤدي إلى أن يكون بها – كما جاء في الموسوعة الفلسفسة المختصرة- ثمة نساء «حاكمات» كما أنه سيكون معهم رجال «حاكمون»، وأن هؤلاء النسوة الحاكمات سيقمن على التدريب بالحكم «المثالي» في نظر أفلاطون وهن «عاريات» تمامًا، كالرجال سواء بسواء..!!

وتمضي هذه الموسوعة بخاتم مراجعة الفيلسوف الدكتور زكي نجيب محمود فتحدثنا عن أن «نظام هذه الجمهورية الأفلاطونية سيلغي الحياة الأسرية بين هؤلاء الحكام «من الرجال والنساء» وذلك من أجل دعم «نظام اتفاقي» بينهما عماده «شيوعية الآباء والأبناء»!!.

إن العلاقة بين هؤلاء الحكام والحاكمات العراه ستكون كما أرادها أفلاطون حرة جسديًا من قيد «الزواج»، أي أنها تكون في هذه الشيوعية الجنسية –كما يظهر من هذا البيان الموجز- أقرب أو أقل شيوعية مما بين القطط والكلاب، أو مما بين الماعز والحميرمثلا .. فإذا أضيف إلى ذلك ما يشرطه أفلاطون في جمهوريته من «شيوع» الملكية في الأموال، فإن الطبقة الحاكمة ستذوب في نظرة في «اتحاد حاكم» ليست له مصلحة ذاتية يرعاها – لا في الأولاد ولا في الأموال- وبذلك لاتكون

رياسته بذلك موضع الشك عند المحكومين أبدًا ..!! أليس حدوث ذلك عجيب حقًا.. وبالغًا حد الإثارة والأسى برغم خرافيته؟!

ثم يمضي أفلاطون في شطحه بعد ذلك فيقرر – على هواه- حرمان أرباب الحرف من هذه الجمهورية المحكومة باتحاد «العراه» الذين هم أصحاب وصاحبات الحكم المطلق – من الحقوف السياسية، ذلك لأن أعمالهم من وجهة النظر الارستقراطية الأفلاطونية الفلسفية الاستبدادية – تعوقهم تمامًا وهم يسعون بها وراء الكسب اليومي، عن الاهتمام بالواجبات العليا الملقاه على عاتق المواطن «المثالي» الذي هو المحارب والسياسي، ولذلك استحق هؤلاء العمال هذه الزراية والاحتكار، والحرمان من حقوق المواطن في هذه الجمهورية التي لايمكن أن تكون!!

وأخيرًا.. وبرغم الانجاز، لأننا لا نقدم هنا دراسة عن الفلسفة الأفلاطونية، هذا هو أفلاطون، المثال الأفضل بين جميع فلاسفة اليونان في استخدام الفلسفة في أبحاثه بأقرب ماتصوره هذه الكلمة من معانيها، وحوافزها، وتطلعاتها، وراء المرئي والمسموع والمعلوم .. فهل كان يا ترى بهذه الجمهورية الشيوعية، القسرية النظام، العارية الحكام، المستبدة بطبقة الحاكمين فوق طبقة المحكومين، من الصناع والعاملين- هو الجد الأعلى في الفلسفة لكارل ماركس، وهو المصدر الفلسفي الخرافي لصورة الجنة الشيوعية، التي لازال يحلم بها الشيوعيون المعاصرون.. في المستقبل المجهول الذي لم يتحقق بعد.. لحفدة الشيوع والقسر والمتاع في فكر ذلك الأفلاطون!؟

أم كان أفلاطون في جمهوريته المشاعية هذه في النساء والأولاد والأموال، وبما تمادى به خياله من هذا الامتهان للمرأة اليونانية، ومن الإذلال لأنوثتها. ومن الابتذال لشرفها الفطري في أمومتها، وشرعية

أطفالها، هو المستجيب بالتصوير الفلسفي، اليوتوبي اللا مكاني، أي الذي لامكان له للتحقيق بشذوذه وجنونه فوق هذه الأرض.. لهذا الاعلا البذئ المماثل، الذي أعلنه خطيب اليونان «العظيم» ديموستين- كما جاء في كتاب ول ريورانت «حياة اليونان»- وهو يضع المرأة اليونانية في حجمها الضئيل والذليل- كما يتعامل معها أولئك الرجال الآلهة الفساق الحياة الآرية عند الهنود واليونان، وذلك حيث يقول:

«إننا نتخذ العاهرات» من النساء للذة، ونتخذ «الخليلات» للعناية بصحة أجسامنا، ونتخذ «الزوجات» ليلدنا لنا الأبناء الشرعيين»!!

وبذلك يكون أفلاطون أيضًا ومن الجانب اليوناني البحت، هو بهذه الجمهورية الخيالية المشاعية الجد الأعلى أيضًا لهؤلاء الشباب التعساء الممسوسين، الذين يقيمون في هذا العصر – منطلقين من قلب أمريكا وأوربا غربًا وشرقًا- جمهوريتهم المشاعية الخيالية اللا مكانية، أو جمهوريتهم التي أصبحت الأفضل مما حولهم – على أنقاض هذه الحضارة الأوربية الفلسفية، الصراعية بين علومها وفلسفتها، والاستمتعية النفعية في ضجيج آلاتها وصرخاتها.. هذه الحضارة التي أخذت تنهار من كل جوانبها أمام أعينهم، وهم هؤلاء الشباب الذين مضوا في يأسهم، ومن أجل إيجاد المعادلة النفسية والشعورية مع أحزانهم، يتعاطون المخدرات، ويبتلعون عقار الهلوسة، والذين قرروا بعقوبة المأساة، ودون لقاء بينهم، أو خطب او فلسفات عنهم، أن يهيموا على وجوههم في الأرض الواسعة، ليحققوا في «اللا مكان» المجهول أحلام سعادتهم الضائعة.. ليحققوا هذه الأحلام في الغيبوبة وليس العقل، وبعيدًا عن هذه الحياة، وليس في هذه الحياة، وحيث يعيشون جنتهم الموعودة لهم في ضباب هلوستهم . وملء حياتهم المشاعية، في هذه الجمهورية الوهمية وغير القسرية، بغي أموال أو ممتلكات، وبغير

زواج شرعي أو أبناء.. وكلما وجدوا في الأرض الواسعة شمسًا مشرقة، أو ماءً جاريًا، تعروا لها تمامًا، ونالوا من عطائهما.. ثم مضوا في سبيلهم. وكل ممتلكاتهم في حقيبة وراء ظهورهم... وكل الناس في بلادنا الطيبة، بلاد الدين الحق، والشمس المشرقة، والماء الجاري، يشيرون إليهم في رثاء.. وعطف.. وعجب.. ويقولون كلما سمعوا عنهم: هؤلاء هم «الهينر» المحزقين ..أو «البيتلز» الخنافس .. بينما هؤلاء يهيمون في «اللا مكان» ولا يتوقفون .. إعلانًا صامتًا يجوب الآفاق، وآية من اللهه عن شقاء حضارتهم الفلسفية العدوانية، وقد أخذت بضربات الله وأوزارها تتداعى.. وتتهار. وهؤلاء الشباب الضحايا هم هباؤها في الهواء..!!

والآن مع أي اختيار من هذين الاختبارين نصنف فلسفة أفلاطون، أفضل فلاسفة اليونان، في أفضل فلاسفة اليونان، في أفضل تفلسفاته في «الجمهورية الفاضلة»..؟!

هل يكون هو الجد الأعلى للجنة الشيوعية الخرافية التي لا بارقة أمل في مثلها للشيوعيين المعاصري؟. أو هو الجد الأعلى لهذه الجنة الموعودة الأخرى في أحلام وهلوسات شباب الغرب الذين أخذوا يهجرون المكان إلى اللا مكان في مشاعية حياة بغير أموال، وبغير زواج، وبغير فلسفة، وبغير انتماء، وبغير أمل، وبغير طريق..؟!

أم أنه –أي أفلاطون– أفضل الفلاسفة استخدامًا للفلسفه– في نظر «الموسوعة المختصرة للفلسفة» التي راجعها فيلسوفنا الدكتور زكي نجيب محمود.. هو الجد الأعلى لهاتين الجنتين الرافيتين معًا.. جنة الشرق الشيوعي.. وجنة الغرب الرأسمالي؟!

لعله من الذوق أن نشرك معنا في الرأى صديقنا الفيلسوف زكي نجيب محمود، الذي كره للعرب أن يرجعوا إلى أصالتهم، فيرجعوا بذلك

إلى اعتقاد ثابت غير فلسفي، وإلى الأمل في جنة من المحسات والملموسات التي لايحبها لهم، تمامًا كما لايحبها صديقه الفيلسوف اليوجي مصطفى محمود، الذي اعتذر عن رفضه «جنة المسلمين» كما يصفها القرآن الكريم بما فيها من أشياء عينية محددة بذاوتها، وملموسة بدلالتها، مثل أنهار الماء العذب، واللبن السائغ، والخمر التي لا تسكر، ومثل النخل والرمان، والياقوت والمرجان، لمن هم من المؤمنين على سرر متقابلين، وقد نزع الله ما في صدورهم من غل إخوانًا متحابين، وزوجهم بحور عين.. إنها جنة حقائق جلية.. بغير تفلسفات توهمية.. ولا شخوصات يوجية.. إن هذا عنده لا يطاق. أي أنه لا يطيق هذه الجنة.. لأنه بهذا الوهم الفلسفي لايحيها وبهذا الغياب اليوجي لا يحسن أن يرتقي إليها..!!

وحقًا – مرة أخرى- إنه لمن الذوق أن نشرك معنا الدكتور زكي نجيب محمود في الرأي حول أفلاطون. بعد أن وضحنا له بالحجة العلمية والإنسانية والتاريخية من هو هذا الأفلاطون، الذي هو مثله الأعلى لهذه الفلسفة التي يدعو إليها العرب بكل حماسته، وبكل العجلة من أمره، وقبل أن يتروى طويلًا في دعوتهم هذه إلى ما لا يستطيع الدفاع عنه في ضوء العقل والعلم، وعلى هدى ما تمخضت عنه «الفلسفة» من المآسي والأوهام، ومن الحرب على الإنسانية والأخلاق، واسلام والعدل، عبر كل مراحلها في التاريخ..!

ولعله من العجب العجاب أن يلح الدكتور زكي نجيب محمد على «العقل العربي» بالتفلسف، وهم لم يتبين بعد، وبأمانة العالم المنصف، ما لدى العرب في مقابل الفلسفة عند الهنود واليونان، من هذا اليقين بالحق، واليقين بالعلم، واليقين بالبرهان، في هذا الدين الحق الذي خصهم الله برسالاته منذ آدم ونوح، وحتى إبراهيم وإسماعيل، وموسى وعيسى

ومحمد.. هذا الدين الذي هم بمصادره الباقية إلى اليوم ملء تاريخهم، ومشرق أصالتهم، وفخر تراثهم.. هذا التراث الذي يعترف الدكتور زكي نجيب محمود صادقًا في كتبه أنه «لم ينتبه لدراسته إلا بعد أن فات أوانه، فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة يزدرد تراث آبائه ازدراد الملتفت العجلان»!! من مقدمة كتابه «تجديد الفكر العربي».

فكيف يحق للشيخ الفيلسوف زكي نجيب محمود أن يفتي للعقل العربي وهو الغريب عن تراثه؟ .. ثم كيف يفتي له بهذا الداء الذي أصيب به من هذه الفلسفة بعد أن تكيف بها عقله طيلة عمره، وقبل أن يملك من العلم بأصالته العربية ما يتيح له صحة الحكم على ما تردى بها فيه.. أي في هذه الفلسفة..!؟

ولكن أليست هذه هي الفلسفة.. يسقط في بحرانها من العرب من يستعجمون فلا يستبينون.. ومن يركضون بتساؤلاتهم عما وراء الطبيعة- بعيدًا عن الواقع وعن الحياة- فيذهلون عما حولهم وعما في أنفسهم، ويغرقون في الوهم بظاهرهم وباطنهم.. ومن أعماق الوهم ولججه يتقلبون ويصيحون.. ويكتبون ويتفلسفون!!



الفصل الخامس

وعندما أشرقت المسيحية على أوربا
حرمت الفلسفة لأنها ضد الواقع والحياة



ولما كان كل شئ من خطايا الفكر الفلسفي الأوربي المعاصر، اليوناني القديم، لايزال محوطاً بهذا التقديس الذي عرفته اوربا تجاه آلهتها وتماثيلها، عند هذه الفئة القليلة من المواطنين العرب الذين انعزلوا عن الحضارات الأوربية، الشرقية والغربية، من بواكير طفولتهم، فلم يعرفوا حنان الأمومة في تراثهم العربي الثري، ولم يرتشفوا رحيق الحياة العلمية الحرة من صدره، ولم ينشأوا النشأة السوية الثقافية على حجره- فقد رأينا أن نقدم لهؤلاء في كلمات لأحد الأوربيين المنصفين- على قلتهم- هذا الشاهد من تاريخ «المسيحية» عندما أشرقت لأول مرة من بلاد العرب، وبأقوال وأعمال دعاة مجاهدين مستشهدين من أبناء يعقوب، وآل عمران، وأبناء عم المسيح، على بلاد الفلسفة، وأرض الآلهة، ومنبت الطغاة الأوائل في اليونان، وإيطاليا، والإمبراطورية البيزنطية.. وكيف كان موقف هؤلاء العرب المؤمنين .. القديسين.. المبشرين بالمسيحية في أقرب حقائقها إلى دعوة المسيح- من الفلسفة والفلاسفة في أوربا.. أي في الأرض الزاخرة إلى اليوم.. بالفلسفة.. والإلحاد.. والطغيان.. أي.. بالفلاسفة.. والمتألهين.. والطغاة!

ومرة أخرى نعود إلى أقوال هذا المؤرخ الأوربي الهولندي: الدكتور هندريك فن لو، الذي توفرت له دوافع كثيرة للأنصاف في رؤيته لتاريخ الإنسان في كتابه «تاريخ الجنس البشري».. ففي هذا الكتاب وتحت عنوان «قيام الكنيسة» تناول في الجزء الأول من كتابه الذي أصدرته مطابع الشعب في سلسلة كتبها «كتاب الشعب» — تاريخ قيام الكنيسة الأوربية على أرض أوربا الغارقة في ظلمات أساطيرها وفلسفاتها، والممزقة الوجه والظهر تحت سياط آلهتها من البشر وقيا صرتها.. وننقل هنا الجانب الخاص بموقف المسيحية في أول شروقها على تلك الأرض المخضبة بدماء الضحايا، والغارقة بسمائها وأرضها في ظلمات الفلسفة والأساطير.. يقول

فان لون ابتداء من حديثه عن الإمبراطور البيزنطي الدموي الشهير قسطنطين:

«كان على عرش الإمبراطورية الرومانية «قسطنطين» الذي كان يطلق عليه أحيانًا -ولا ندري لذلك سببًا- اسم قسطنطين الأكبر، وكان وغدًا غليظ القلب لا يرحم. غير أن الناس الوادعين المسالمين لم يكن لهم فسحة من الأمل في البقاء في خضم ذلك العصر الحافل بالكفاح المرير.

وكابد قسطنطين مر الحياة وحلوها في عهده الطويل المتقلب. فقد فكر مرة عندما أوشك الأعداء أن يوقعوا به الهزيمة، أن يجرب سلطان هذا الدين «الآسيوي» الجديد، الذي كان حديث الناس أجمعين، ووعد بأن يعتنق المسيحية إذا انتصر في الحرب القادمة، فحالفه النصر، ومن ثم اقتنع بسلطان إلاه المسيحيين، وقبل أن يعمد. وقد اعترف رسميًا منذ ذلك الوقت بالكنيسة المسيحية، ودعم ذلك مركز الدين الجديد تدعيمًا».

ويمضي الدكتور هندريك فان لون في بيانه عن مرحلة المواجهة الأولى بين المسيحية في أوربا وبين الفلسفة الهندية، وآلهتها وأوثانها فيقول:

«على أن المسيحين ظلوا فئة قليلة من الشعب لا تزيد على 5٪ أو 6٪ من مجموعة، فلم يجدوا بدًا في سبيل النصر من رفض كل حل وسط، فقالوا بوجوب القضاء على الآلهة القدامى. وحاول الإمبراطور يوليان- وكان محبًا للفلسفة اليونانية- أن ينقذ الآلهة الوثنية إلى حين من أن تنزل بها شرور أخرى، ولكنه مات متأثرًا بجراحه في حملة فارس. وأعاد خليفته يوفيان الكنيسة إلى ما كان لها من مجد، فأخذت المعابد القديمة تقفل أبوابها الواحد بعد الآخر. واعتلى العرش بعد ذلك الإمبراطور بوستتيانوس

الذي ابتنى كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية، وقضى على مدرسة الفلسفة في أثينا، وهي المدرسة التي أسسها أفلاطون».

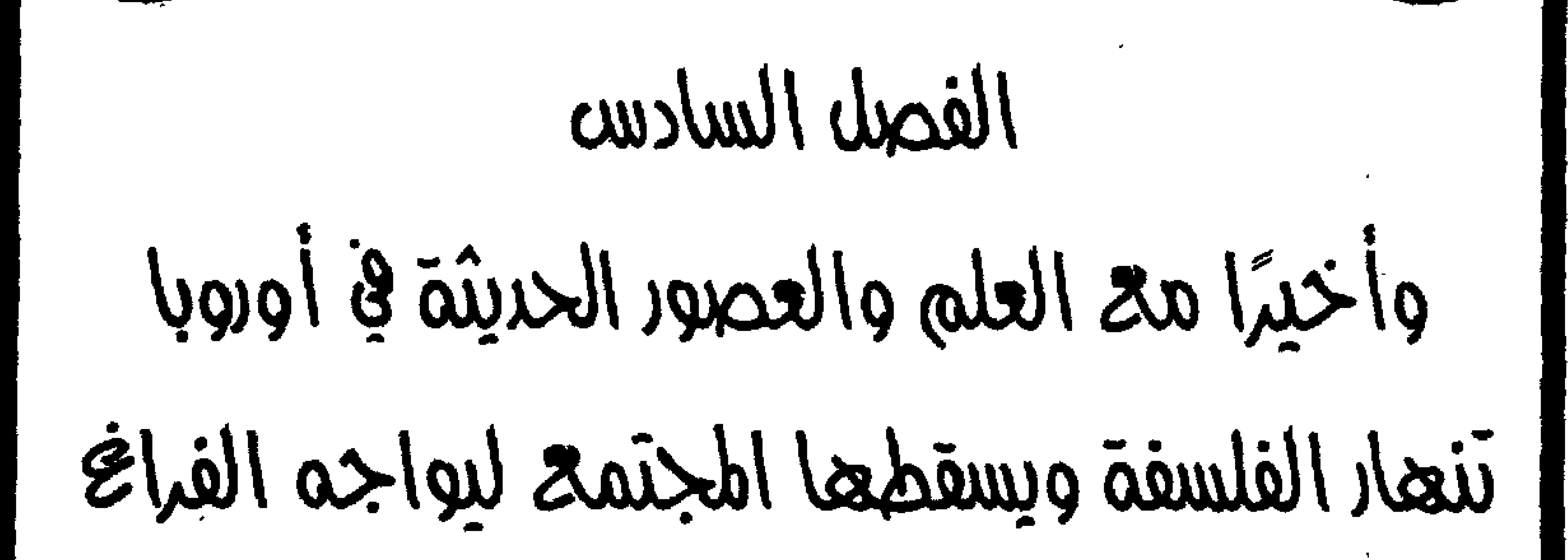
ثم يقول فان لون:

«وكان ذلك خاتمة العالم اليوناني القديم الذي أباح للناس أن يفكروا كما يشاءون، ويحلموا كما يحبون. وقد أثبتت التعاليم الخلقية للفلاسفة والتي يكتنفها شيء من الغموض، أنها لا تصلح لقيادة سفينة الحياة بعد ان ذهب طوفان الهمجية والجهالة بالوضع المقرر للأمور. وأصبحت الحاجة ماسة إلى شيء أقرب إلى الواقعية وأدنى إلى التحديد. وقد زودت الكنيسة الناس بهذا الشيء، فقد ظلت كالصخرة في عصر ساده الشك وتبلبلت فيه الأفكار، ولم تتراجع قط عن المبادئ التي آمنت بصحتها وقدسيتها».

ثم يقول أخيرًا في هذا المعنى:

«وقد أثارت هذه الشجاعة الراسخة إعجاب الجماهير، وقادت سفينة الكنيسة الرومانية بسلام في خضم الشدائد التي قضت على الدولة الرومانية»!





الفصل السادس

وأخيرًا مع العلم والعصور الحديثة في أوروبا تنهار الفلسفة ويسقطها المجتمع ليواجه الفراغ



بعد هذا البيان في الفصلين السابقين عن شهادة العالم القديم على الفلسفة اليونانية، ومنهجها غير العلمي إلى المعرفة، أي شهادة اليونان أنفسهم والناقلين عنهم على أنها أوهام لا ترقى إلى حقيقة يقينية، ولا تنتهي إلى معرفة تبني الحياة والإنسان، وتتسق مع العلم والواقع - يتأكد ضلال التوسل بهذا التفلسف الظني الذي لا ينبت في مجال المعرفة الإنسانية إلا ما هو من اللغو أشبه - كما قالوا - بالحرث في الرمال، أو النقش على الماء. ولقد قدمنا مثالا على هذا الواقع الخرافي الفلسفي صورة من أوزار التفلسف اليوناني كما قدمها أفلاطون في جمهوريته الهازلة غير الفاضلة، التي أقامها - وهو يهدم بهواه ونزواته إنسانية الإنسان، على هدم الأسرة، وإباحة الشيوعية في الجنس والأموال والأولاد بين الحكام والحاكمات العراة، من أجل أن يهيئ لطبقة من الحكام - أشباه ملوك اليونان القدماء - دولة لهم في عالم الخرافة التي لا يتسع بها أي مكان في الأرض، ليتعروا بشهواتهم وتظالمهم، وليسكروا ويفجروا، وهم يحتقرون العمل اليدوي، ويعجزون عن الفكر العلمي، والسلوك الأخلاقي، ويستبدلون بكل فئات العمال والعبيد.

ولكن: مع صحوة أوروبا في العصور الحديثة على تكبيرات الحق والصدق، وأضواء العلم والدين، من مصادرها القريبة إليها والبعيدة عنها للحضارة العربية الإسلامية، ومع امتداد ظلمات الفلسفة اليونانية إلى هذه العصور، بما حملته إليها في صور الفلسفات المتفرعة عليها من أوزار الاستعلاء العنصري، والقسر الطبقي، والولع الأسطوري، والشذوذ في إقامة الحضارة غير اليونانية على إدمان الخمر، وابتذال المرأة، والسخرة للعمال والملونين - بدأت بداية التململ من نير هذا الفكر الفلسفي الخرافي، وارتفعت الأصوات بدعوات التحرر من هذا الأفيون الفكري،

والسخرية من منهج للتفكير السري للمعرفة الظنية في وقت يتطلب فيه البشر في عصر انتشار العلوم الطبيعية بتطوراتها المذهلة وأدواتها الخطرة في مجال الحرب والرفاهية – منهجا جديدا للمعرفة اليقينية حول الأسئلة التي لم يستطع العلم الطبيعي أن يجيب عنها.. الأسئلة عن الإنسان، والحياة، وما بعد الحياة.. الأسئلة التي أجاب عنها الدين ولم تجب عنها الفلسفة.

نقد الفلسفة اليونانية:

في ضوء العلم العربي الذي استبان به لمفكري أوروبا مدى تخلفهم عن العرب، دعاة الدين والعلم معا، أخذ هؤلاء المفكرين يناشدون أقوامهم في الظلمات الأخيرة من عصورهم الوسطى، أن يسارعوا فيتحرروا من ضلالات وأوهام الفلسفة اليونانية، غير العلمية، وغير الواقعية، وأن يبحثوا عن نمط جديد من الفكر يستند إلى أساس علمي، ويستخلص الحقائق وليس الأوهام بالمنهج العلمي التجريبي العربي، كما جاء به العرب.

نذكر من هؤلاء المفكرين الأوربيين الذين نشطوا في ميدان نقد الفلسفة اليونانية فرنسيس بيكون الذي عاش فيما بين سنة 1561 وسنة 1626، والذي ولد في ظل البلاط الإنجليزي، والذي عاش يفكر متأثرا بمنهج وثمار العلم العربي، الذي طلعت شمسه على انجلترا أيضا قبل مولده بما يزيد على ثلاثة قرون، وذلك في عهد الملك جون الأول أخي الملك ريتشارد الذي قتل في الحروب الصليبية، وحيث انتقلت في عهده وفي نهاية هذه الحروب آثار ومؤثرات الحضارة العربية الإسلامية في أحاديث وتجارب الجنود والفرسان العائدين بهزيمتهم من أرض الحضارة والإنسانية، والدين والعلم، والشجاعة والعدل، وحيث أصدر الملك جون الماجناكرتا كوثيقة باتجاه العدل.

بدأ بيكون تفلسفه باتجاه العلم فنقد علة الجهل والظلمات والمآسي التي أطبقت على أوروبا طويلا في مصدرها الأساسي وهو الفلسفة اليونانية.. الفلسفة التي كانت تحمل دائما أسماء الفلاسفة الكبار فوق قاعدة أفكارهم الخرافية الضخمة وهم: سقراط وأفلاطون وأرسطو.

ومما جاء في كتاب «الموسوعة الفلسفية المختصرة» أيضا، وهي الموسوعة التي أشرنا مراراً إلى أن الدكتور زكي نجيب محمود قد راجعها وأقرها، وذلك في ترجمة لحياة فرنسيس بيكون «أن أهم ما أسهم به في الفلسفة كان في ميدان المنهج العلمي، فقد كان من أقوى المتمردين على التقاليد الأفلاطونية والأرسطية وأجلاهم بيانا».

ومما جاء فيها أيضا من أقوال بيكون عن فلسفة أرسطو: «إن المنطق الأرسطي غير مفيد بوصفه أداة للكشف، فهو يجبرنا بالتسليم بنتيجته ولكنه لا يكشف عن شيء جديد، وهو يجر التجربة من ورائه جرا كأنها الأسير»!

وواضح أن معنى ذلك في إشارته الصامتة إلى «المنهج التجريبي العربي» أن فلسفة أرسطو تقنع قارئها بما فيها من حيل جدلية سفسطائية، ولعب بالألفاظ، وبما تفرضه من مقدماتها التي لا أصل لها، ولكنها في النهاية، وبعيدا عن «التجربة الحسية»، التي هي أداة الكشف العلمي، فإنها لا تأتي بجديد، لأن ما فيها من الخرافات يملأ قبل ظهورها الأرض.

ثم يقول بيكون أيضا من نقده للفلسفة اليونانية بهذا المصدر، مندداً بعملية الاستبطان الفكري:

«إن هؤلاء الفلاسفة العقليين كالعناكب ينسجون الأفكار من تجاويف عقولهم. على أن التجريبيين الغلاظ ليسوا بأفضل من هؤلاء، لأنهم

كالنمل يجمعون المواد دون ما هدف. أما النحل فهو يقدم لنا النموذج الصحيح لحظة السير العلمية، فالنظام هو سر الأمر كله، فعلينا بتجميع الوقائع أو التاريخ الطبيعي، واختزانها، وتفسيرها بتبصر وفقا لقوانين محددة».

الفلسفة حيرات ذهنية:

ودون أن نمل من تصحيح موقف الدكتور زكي نجيب محمود من هذا التعلق الحماسي بالفلسفة اليونانية، ومن هذه الحماسة البحترية في دعوة العرب إلى التفلسف على غرارها، نقدم له رائدا من رواده في هذه الفلسفة الوضعية المنطقية التي يعتنقها، والتي قام بتدريسها فترة في الجامعات المصرية، ونعني به أحد الطلائع في ميدان هذه «الفلسفة الوضعية المنطقية» وهو اليهودي النمسوي المولد، لو دفيج يوسف يوحنا فتجنشتين والذي عاش بين سنة 1881 وسنة 1951.

إن فتجنشتين – الذي هو أستاذ زكي نجيب محمود في أخص ما يملكه من معرفة وهو الفلسفة الوضعية المنطقية، والذي راجع الدكتور زكي ترجمة حياته أيضا في كتاب «الموسوعة الفلسفية المختصرة» – قام بتصحيح رأيه في الفلسفة أكثر من مرة، وكتب من الفكر «المعقول» حول اللغة والمجال الصحيح لاستعمالها، وحول نقد استعمالها «الخرافي» في الفلسفة، ما نعيد عرضه على صديقنا الودود الدكتور زكي نجيب محمود.. يقول فتجنشتين في كتابه «رسالة منطقية فلسفية»:

«الاستعمال الوحيد للغة الذي يكون كامل الدلالة هو أن تصور الوقائع. وهناك بعد ذلك استعمال اشتقاقي للغة ولكنه استعمال مشروع، وهو الاستعمال الذي نصوغ به تحصيلات الحاصل».

ثم يقول في ربط استعمال اللغة بالواقع المحس وليس بما وراء الطبيعة:

«كل محاولة تبذل لاستخدام اللغة على صور أخرى لن تكون إلا هراء، وبصفة خاصة لن تكون جميع الأقوال الأخلاقية والميتافيزيقية إلا أشباه قضايا، أي أنها انتهاك خال من المعنى لاستعمال اللغة الصحيح، مادامت أقوالا لا هي بالتجريبية، ولا هي بتحصيلات الحاصل».

ثم يعود فتجنشتين فيطور من نظرته إلى اللغة وهو يتحدث عن مجالها في «لعبة الألفاظ الفلسفية» وما يراه من نقد عام للفلسفة بصورها السائدة منذ اليونان فهو يقول في كتابه: «البحوث الفلسفية» وبعد أن يصف الفلسفة بأنها «سقوط في حيرة ذهنية» لا خلاص منها إلا بالمنبهات «التي تنبهنا إلى استعمال اللغة استعمالها الصحيح».. إنه يقول:

«تضع الفلسفة أمامنا كل شيء ثم لا تزيد، دون أن تفسر شيئا، أو تستنبط شيئا.. فطالما أن كل شيء مطروح أمام العين فليس هناك شيء يحتاج إلى تفسير..!!»

ربما من أجل هذا التوقي اللازم من خطر بحران الفلسفة، التي تقول ولا تقول، كانت محاولات فتجنشتين الطويلة، وغير المجدية في عالمه بالطبع، من أجل أن يقيم «لغة مثالية لا يكون من شأنها إغراء أحد بأن يقول كلاما فارغا أبدا».. يريد أن يقول: «لغة مثالية لا تسمح له أبدا بأن يتفلسف».. فهل كان وهو العبري الأصل يحمل بمثل اللغة العربية.. الدينية!؟

علم بغير إيمان:

هذه البواكير من العلم العربي، وكما أضاءت ظلمات العصور الوسطى في أوروبا بما بلغ إليها من شمس الحضارة العربية الإسلامية، لم تكن كافية فيما قسمه الله للأوروبيين من حظوظهم بالتفلسف الذي

يتظالمون به، وبالتظالم الذي يتفلسفون من أجله، لكي يهتدوا مع أضواء هذا العلم العربي بالنور الذي حمل إليهم هذا العلم، وهو علم الإيمان الأبعد مدى، والأعمق أثرا، في حياة الإنسان، من حيث إنه العلم اليقيني الذي يهتدي به إلى كل ما عداه من علم، يفسر به حركة هذه الحياة، وسنن الله فيها، وفي الأشياء والإنسان.

لقد عجز الأوربيون في حصار فلسفاتهم، وتحت أطباق الظلمة والقسوة في نظم مجتمعاتهم، أن يجمعوا من عطاء الله – الذي لا ينطقون باسمه بعد أن نزلوا بالفلسفة عن مستوى رؤية الطريق إليه – وهو عطاؤه بهذا العلم الذي تغيرت به مصائرهم، فأثاروا الأرض، وفجروا مكنون معادنها، وسيطروا على ما بلغوا إليه من مصادر القوى الطبيعية بها، واخترعوا الأدوات والآلات، والأسلحة الحديثة والمتفجرات، وأقاموا المدن الكبيرة، وأضاءوها بالكهرباء، وربطوها ببعضها بشبكة من القطارات والسيارات والطائرات، وشبكة أخرى من مواصلات التخاطب السلكي واللاسلكي، وأججوا في كل مكان نيران المصانع، وضاعفوا من أحجام المصنوعات، وتمكنوا بتطوير أساطيل البحر سرعة وحجماً من السيطرة على تجارة العالم، ومن الاحتكار لكل منافع التجارة مع العالم.. ولكن..

ولكن هذه القوى العلمية الهائلة، والمذهلة، لم تقربهم شبرا أو إصبعا من علم الإيمان.. أي من علم العدل.. العدل في تصور الخلق متوازنا في حكمة الله، وسائرا إلى غاية بعيدة في حكم الله.. ولذلك فعلى كل إنسان في يقينه بهذا العدل الإلهي المحيط به، والمتمثل فيه، أن يعدل مع نفسه، ومع ذويه، ومع مواطنيه، ومع أهل الأرض جميعا.. أن يعدل بالقول والعمل.

أن يعدل بالحرية ويطلبها لنفسه وللجميع.. وبالحياة والأمن والرخاء، يعمل لها ويحميها لنفسه، كما يعمل لها ويحميها مع الجميع، ومن أجل الجميع.

لقد كان التظالم في حياة الشعوب الأوروبية، بما امتلأ به تاريخهم من الطبقية وجنونها، وفجورها ومذابحها، هو قدر هذه الشعوب.. قدرها الذي اقترن بالفلسفة.. لما كان غير الفلسفة، أي هذه «العلوم السرية الطبقية» التي يخدع بها الملوك والسادة عبيدهم، سلاحا وطريقا وجسرا إلى هذه الحياة السوداء، التي لا يزال يمارسها الأقوياء ضد الضعفاء، والسادة ضد العبيد، ولو باستخدام أرق الأسماء، وأكذب الشعارات.

في قبضة هذه الفلسفات الشرسة في أعماقها، والناعمة المخادعة السفسطائية في ألفاظها، ما كان أسرى هذه الحضارة الأوروبية الفلسفية الطبقية المخادعة ليجسروا على معارضتها، إلا داخل أنفاق وسراديب، والتواءات وانحناءات صنعها الأقوياء للضعفاء ليقطعوا فيها المسافات الطويلة نحو العدل الموهوم، والذل المحتوم، من باب العزاء لقلوبهم، والتشجيع لهم من آسريهم على مزيد من الجهد والصبر، لمزيد من خدمة وإمتاع السادة، حتى يهلكوا جهدا.. وجوعا.. وصبرا..!!

وما نحن هنا بحاجة إلى استعادة إشارتنا لتاريخ الاستعمار الأوروبي الذي كان بكل مظالمه البشعة خارج نطاق الحياة والأرض الأوروبية هو أسرع الأطماع الأوروبية العدوانية لهذه الوثبات الكبرى على طريق الحضارة الصناعية، والقوى الآلية والعلمية. ومع ذلك فإن الظلم النسبي في معاملة الطبقات الحاكمة في نظم أوروبا الاجتماعية والسياسية المعاصرة للطبقة المحكومة – لا يزال قائما برغم الثروات المنهوبة، والقدرات العلمية.. أي أنه هذه الطبقة العاملة من الفلاحين والحرفيين، لا تزال كما

كانت على نظرة اليونان الأوائل إليها من الامتهان، والحرمان، وتزييف الإرادة السياسية، في هذه النظم الفلسفية المعاصرة سواء أكانت شيوعية شرقية، أو رأسمالية غربية.

إنه بهذا العلم الناقص بغير إيمان.. أي بغير عدل ولا أمن.. وبغير أمل ولا هدف.. وبغير أسوة إلى تطهر أو خلق، وإلى محبة أو إيثار... بدأت ظواهر التمرد على هذه النظم الفلسفية «السرية والطبقية» برغم الادعاءات العريضة بجماهيريتها وسواسيتها في الشعارات وفي الكتب السياسية والاجتماعات، تتسع وتنتشر، دون أن يكون هذا التمرد عليها موضع نذير بحتمية تصحيح المسار عند أباطرة هذه النظم، الذين أنهكتهم الأطماع، وخدرتهم السلطة، وغرتهم الأماني.

لقد أخذت الثورة على هذه النظم المذهبية «الفلسفية» تتدافع في تياراتها المختلفة، في حين أن أصوات قعقعة هذا الانهيار لدعائم وعمد هذا البنيان غير الإنساني لحضارات «الفلسفة» – تصم الآذان – بالنسبة لمن يسمع – وسط الضجيج الفاجع الذي تختلط فيه قهقهات السكارى بصرخات المعذبين.. والذي يعلو فيه أمر الله في سننه التي لا تتبدل بتقويض كل حضارة ظالمة غاشمة، كما وقع ذلك مرارا لجميع حضارات العرب كلما تظالموا بعد العدل، ونسوا الله بعد الإيمان، وغرقوا في الترف بعد القصد في العيش، والمقاسمة في الأموال..!

الثورة على الفلسفة:

كانت بدايات الثورة على الفلسفة موجهة – في ضوء المفاجأة الأوروبية بالمنهج العلمي العربي – إلى نقد كل ركائز الظلم الطبقي الذي كان يسانده الملوك، الذين سخروا كل وسائل التمويه والتخييل ومنها الأوبرا لتأكيد الادعاء الوثني القديم بنسبتهم إلى الآلهة، بعد أن سخروا

الـدين لترويـج هـذا الادعـاء. ثـم لمـا لم تعـد هـذه المؤثرات التخييلية كافيـة حاولوا بالإنفاق على المسرح، الذي يعطي بـه العامـة ظهـورهم للواقـع المريـر، أن يجعلوا منه مخدرا لأية انفعالات تتوجه بالثورة على الظلم بين الجماهير، التي بدأت بتذكيرات قادتها بطلب الحرية بمفهوم المساواة، والـتي أخـذت في بواكير صحوة أوروبا العلمية تتجاوز هـذه الخـدع الملكيـة إلى أهـداف جديدة للفكر تسير وراءها باتجاه تغيير وتطوير العقلية الأوروبية نحـو مزيـد من الصدق العلمي في رصد حركة الواقع، وفي نفس الوقت نحو مزيـد مـن التحرر من أوهام الفلسفة في كل ركائزها وفنونها التمويهية الـتي كـان يرعاها ويبثها المستبدون مـن الملوك والأمـراء، والسـادة والحكـام، لترسيـخ نظمهم الاستبدادية والطبقية.

ومنـذ عهـد فرنسيس بيكـون الـذي أشـرنا إليـه كـان هـذا المفكـر الإنجليزي الطبقي، الذي ولد وعاش في ظل البلاط الإنجليزي – يعمـل ضـد طبقتـه باتجـاه المزيـد مـن العلـم لتحقيـق المزيـد مـن العـدل، وذلـك في تجربـة فكرية خصبة حاول فيها في ثورته على «الفلسفة» وأوهامها أن يضربها في الـصميم – لقـد كـان فرنـسيس بيكـون، تلميـذ المـنهج العلمـي العربـي المتفوق، يدرك تماما بتفحصه العميـق لمـا وراء المنهج العلمـي التجـريبي هـذا الـذي أضـاءت بـه حـضارة العـرب المسلمين مـن حقـائق أخلاقيـة، وركـائز اجتماعيـة، قامـت عليهـا هـذه الحـضارة زاكيـة وشـامخة في كـل مجـالات الحياة الإنسانية.. قامت بغير أوبـرا.. ولا مـسرح.. ولا فلسفة.. كمـا قامـت في نواهيها العظمى، وحصانتها الدائمة، بغير خمر.. ولا عهر.. ولا عدوان..!!

لـذلك فقـد أحـسن بيكـون أن يقـول في بعـض نـصائحه لأبنـاء وطنـه الإنجليـز، ولقـراء كتبـه مـن الأوروبيين، مـن ظـواهر هـذه الثـورة الأولى في

ضوء العلم – على الفلسفة، وهو يحذرهم من الاستكانة لعدد من الأوهام الخطرة التي عددها لهم بقوله:

«وهنالك أخيرا من هذه الأوهام «أوهام المسرح» التي تنشأ نتيجة للمذاهب الفلسفية، ولا يمكننا علاج هذه المعوقات بكشف ما يقوم به الآخرون من استدلالات فاسدة، ولكن ببسط منهج البحث الجديد على نحو واضح لكي يستخدمه الجميع».

على أن العصور الحديثة لم تكد تغمر كل شيء بضوضائها العلمية والعلمانية، وضجاتها المذهبية والصراعية، حتى ظهرت علامات هذا التمرد على أوهام الفلسفة واضحة في الكثير من أنشطة البشر المسحوقين، وصرخات المفكرين المحذرين والمنذرين.

أما هؤلاء العلماء الذين سبقوا إلى التحذير بأن «الانهيار» هو وحده النهاية الحتمية لمثل هذه الحضارة القائمة على وحدة المفهوم بين الاستبداد والفلسفة، فقد قدموا في الواقع، ومنذ وقت مبكر نسبيا، هذا المبرر لجميع الثائرين والمتردين على الفلسفات وأوهامها من كل نوع لكي يمضوا في طريقهم، ولو بعد فوات الوقت. نذكر من هؤلاء المؤرخ الألماني أوزوالد شبنجلر في كتابه «أفول الغرب»، ونذكر العالم الرياضي الإنجليزي برتراند راسل في كتابه «ألف باء النسبية»، كما نذكر المؤرخ الإنجليزي أرنولد توبيني الذي أفزعه في استقرائه للتاريخ مصير الحضارة الأوروبية «المسيحية» كما يتصورها، فكتب كتابه «العالم والغرب» يقدم فيه محاولته اليائسة لاستبقاء هذه الحضارة – برغم علامات وأصوات انهيارها المدوية – وذلك حيث يزعم أن اتجاه الغرب إلى نشر التقنية الحديثة بين الشعوب المتخلفة كفيل بأن ينشر معها «المسيحية» بمفاهيمها

الغربية، وبذلك يتحقق انتصار الغرب المسيحي في نظر توينبي على الإلحاد الشيوعي الذي لا يملك مع التقنية شيئا بقدمه.. غير الإلحاد!!

هكذا يفكر هذا المؤرخ الإنجليزي الغائب على الصواب، وقبل أن يسأل نفسه – إن كان هو المسيحي بحق: هل هذه الحضارة الأوروبية المثقلة أمام أعين العالم، بجرائم وموبقات الخمر والجنس والعنف، والمرض النفسي وهذا الذل الطبقي للمحكومين المسحوقين برغم ضحكاتهم المجنونة، بغير إنسان فيهم، أو أسرة لهم، أو أمل أمامهم، أو طريق تحت أقدامهم.. هل هذه هي «المسيحية» كما دعا إليها المسيح، وكما نزل بها الإنجيل، وكما لم تعرفها أوروبا في كل تاريخها المتناقض بقسوته وعدوانه مع المحبة والرحمة في المسيحية، وذلك منذ استشهاد القديس بولس في كورنثوس باليونان، والقديس بطرس في روما، والقديس مرقس في الإسكندرية، ثم آلاف الضحايا وملايين القتلى حربا على المسيحية، واضطهادا وثنيا أو مذهبيا لأهلها واستمساكا متجددا بتراث الطغيان الفلسفي.. أو فلسفة الطغيان.. منذ عصور اليونان..!!

مذهب المنفعة:

ولكن هل أفاد التحذير في ضوء العلم وأدواته الصاخبة والجارفة مع بزوغ القرن العشرين؟.. لقد مضت أوروبا فانجرفت بالمثل، وعلى الرغم من ظهور بوادر ثورة عدد من مفكريها العلميين على الفلسفة، وإن كان باستخدامات غامضة لاصطلاح الفلسفة – انجرفت بهذا العلم الأهوج الوليد الذي يتدفق في عروقها بغير إيمان كالإعصار، نحو ما يمكن تسميته بمذهب «المنفعة»، أو فلسفة الذرائع التي تترجم بلغة العصر وبصور عنيفة وغير أخلاقية تلك الفلسفة الميكافيلية التي كان يبرر بها الإيطالي ميكافيلي كل جرائم الأطماع والعدوان بوصيته المشهورة: «الغاية تبرر الوسيلة»!!

في سنة 1878 ابتكر الفيلسوف الأمريكي تشارلس ساندرز بيرس الذي عاش ما بين 1839 و1914 كلمة برجماتية Pragmatism على أنها تعني في تفكيره الرياضي الفلسفي قاعدة منطقية تقصد «إلى تحديد معنى الكلمات التي صاغها» وكان يصور هذه البرجماتية في آثارها العملية بقوله: «إن البرجماتية تعني أن الفكرة وهي الفحوى العقلي للكلمة إنما تنحصر فيما نتصوره لها من أثر على مسلك الحياة، إذ بديهي أن ما ليس ينتج عن التجربة يستحيل أن يكون له أثر على السلوك».

ولكن سرعان ما استعار فلاسفة آخرون كلمة «البرجماتية» وأعطوها معاني أخرى غامضة، مثل شيلروجون ديوي الذين اتجهوا بهذه الكلمة وجهة الإعلان على فلسفة مطابقة للعصر، فلسفة نفعية تجعل من مطلق المنفعة في أهواء أصحابها، أفرادًا أو حكومات، أساسًا للعلاقات بغير نظر للأعراف والأخلاق والمواثيق إلا بقدر ما تجره على أصحابها من منفعة في نتائجها العملية، وهكذا ظهرت في قلب أمريكا في أوائل القرن العشرين هذه الفلسفة البراجماتية التي تضع المذهب النفعي في القالب الفلسفي الذي يساعد في المناخ العقلي الأوروبي الأمريكي على سرعة انتشاره.

لقد ظهرت وانتشرت فلسفة جون ديوي الذي عاش ما بين 1859، 1952، وحيث وضع لعصره هذه الفلسفة النفعية التي كان لها تأثير واسع في مجال الشئون العملية، وقد انصبت فلسفته بكل دعائمها اللولبية على الدوران حول محور واضح، محدد في بيع الأخلاق بالمنفعة، وانتزاع المنفعة من أي اتحاد بينها وبين الأخلاق. هذا المحور هو شعاره العنيد في وجه تيار الحياة الأوروبية القاسية، التي يزلزلها العلم بغير إيمان، وذلك حيث يقول وكأنه يكشف عن قانون علمي لعلاقات وتعاملات عصره:

«إن كل ما له قيمة، أو ما هو نافع، هو صادق»!!

ثم يختصر هذا الشعار مرة أخرى مع المحافظة على شدة مرارته، وشدة خطورته فيقول: «الصادق هو ما يفيد»[1].

وتحت هذا الشعار انفتح الطريق أمام جون ديوي ليستعجل مأساة الأجيال الجديدة فيما بقي من عمر هذه الحضارة الأوروبية الفلسفية المنهارة، فأخذ يهاجم «الغيبيات» وعلى رأسها «الدين» الذي لا يعي من أمره الحق شيئًا، أي يهاجم هذا التراث الضخم من أوزار من حاربوا المسيحية السمحة باسم المسيحية، ممن باعوا صكوك الغفران، وشاركوا في جرائم الاستعمار، ونفثوا الأحقاد في تأجيج الحرب الدينية المذهبية بين أتباع المسيحية بطول أوروبا وعرضها، وخاصة في فرنسا، وحتى اليوم في إيرلندة.

وكذلك هاجم جون ديوي الغيبيات الفلسفية من خلال مهاجمته لمحنة الشخوص بالفكر إلى ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا.. وإن كان لم يجد مناصًا من أن «يتفلسف» بهذه الفلسفة النفعية التي أوقد بها النار في كل من الفلسفة.. والأخلاق!!

فهل كان جون ديوي شيطانًا مخادعًا بهذا المذهب الذي رفع أركانه اللولبية أمام مواطنيه، ليكون صنمًا معبودًا للمنفعة بكل المقاييس، ومبررًا للسقوط في هاوية الغواية بهذه المنافع الصغيرة أو الكبيرة بكل مستوياتها، والدوران الأعمى وراءها..!؟

هل جون ديوي مسئول مثلا عن سياسة الحكومات الأمريكية التي قامت بعد ظهور فلسفته، والتي اجتهدت في صياغة عقل الشاه الإيراني،

---

(1) راجع ترجمة حياة جون ديوي وفلسفته في «الموسوعة المختصرة للفلسفة».

وصياغة نظام وأهداف حكومته، ليكون عبر المذابح، والحكم التسلطي الفردي، والهوان والجوع للشعب الإيراني، هو أداة تحقيق «المنفعة» للسياسة الأمريكية الطائشة في مخططات استعمارها المتستر الجديد للمنطقة العربية.. فلما أن سقط الشاه بعد نحو نصف قرن من المظالم والمفاسد والأهواء، وكان سقوطه بثورة شعبية ساحقة لنظامه، ومستعينة باسم الدين وسلطانه وعدالته عليه.. أدارت الحكومة الأمريكية وجهها بغير تردد عن الشاه المذبوح والمنفي والهارب من القصاص.. الشاه الذي هو صنيعتها بقوة غوايتها لغروره، وغبائه وتسلطه.. وذلك باسم «المنفعة».. ووراء «المنفعة».. لكي تدور بوجهها نحو الحكومة الثورية الإيرانية الجديدة.. تحاول استرضاءها، وتقوية علاقتها بها، واصطناع سياسة جديدة لتحقيق «المنافع» معها.. برغم شطط القيادة الدينية الإيرانية الحالية في كثير من مواقفها عن كثير مما كانت تتوقعه من حكومة إيرانية حلت محل الشاه تجاه أمريكا.. وحتى بعد أن طردت الشاه من حق اللجوء إليها.. قربانًا لهذه المنفعة.. في مجالها السياسي، والفلسفي، وغير الأخلاقي أيضًا، في مذهب جون ديوي..!؟

وكذلك حول ما انحدرت إليه الحضارة الأوروبية الفلسفية على مزالق هذا المذهب النفعي الذي يجعل «الصدق» في معادلة مع «المنفعة»، كما جعل مفهوم الحق من قبل في معادلة خاسرة مع القوة.. نعم.. إننا فوق هذا المنزلق في السياسات الأوروبية المعاصرة نحو «الفلسفة النفعية» في قسوة ومرارة وبشاعة ثمراتها، وذلك تحت تأثير حياة علمية آلية معقدة غير متوازنة ولا موجهة بقوة وعدل وأمانة وصدق الإيمان — إننا نتساءل عن الموقف «النفعي» الذي ستنتهي إليه السياسة الأمريكية الراهنة تجاه تعنت إسرائيل، التوسعية والعنصرية، ضد التسليم الصريح والأمين بشروط

معاهدة السلام مع مصر، أي تجاه هذا التصلب الغبائي والاستعلائي برفض التسليم بحقوق الشعب الفلسطيني في وطن قومي للفلسطينيين، وحكومة حرة لهم في الضفة الغربية وقطاع غزة، وتجاه عودة القدس الشرقية العربية إلى أصحابها العرب والمسلمين باعتبارها جزءًا من الضفة الغربية.

إننا نتساءل عن موقف أمريكا «النفعي» أو «الودي» تجاه العرب والمسلمين في العالم، وبخاصة بعد أن تحطم الوفاق بينها وبين الاتحاد السوفييتي باغتيال الزوس السافر لاستقلال وحرية شعب أفغانستان المسلم، وبعد ، رفعت أمريكا صوتها بالوقوف إلى جانب المسلمين في باكستان بالمال والسلاح، وبالقوة العسكرية إذا لزم الأمر.

إننا نتساءل عن هذا الموقف الذي سيخرج — مع تسارع الأحداث المعقدة في العالم اليوم في لهب الصراع «النفعي» — سيخرج بالوضوح من ظلمات التمويهات والمسكنات الطويلة.. هل ستقف أمريكا مع المنفعة «المشروعة» و«الأخلاقية» و«الدينية»، فتعجل بالحق الفلسطيني إلى أصحابه، وهم العرب المسلمون الذين طال العهد عليهم تحت مظالم، ونير، ومذابح الصهيونية العالمية، أم أنها ستظل بمفهوم المنفعة «الفلسفية» لجون ديوي هي الحامية لأطماع إسرائيل، حتى ولو شبت الحرب العالمية الأخيرة؟

لا شك أنه بعد حوادث أفغانستان وما بعدها، وبعد هذه اليد البيضاء التي قدمتها مصر قبل ذلك لإسرائيل، والتي فتحت بها باب الأمن والوفاق والحياة الطبيعية بينها وبين جيرانها العرب لأمد طويل، لا يزال العالم يوالي بكل ظواهر الانزعاج والقلق هذا الصراع الظاهر والخفي بين «منافع» السياسة الأمريكية كما تحصل عليها من يهود أمريكا وأوروبا في مقابل دعم إسرائيل، وإطلاق العنان لها حتى في رفض الشرط الصريحة التي

قامت عليها معاهدة السلام في مصر.. وبين هذه «المنافع» الأبقى، والتي يمكن أن تكتشفها سياسة أمريكية أكثر تبصرا لمصالحها إذا ما رفعت يدها عن حماية العدوان والابتزاز والغرور الإسرائيلي، فرجعت الأرض والحقوق العربية المغتصبة بإسرائيل إلى أصحابها.. وكسبت أمريكا صداقة العرب.. وحافظت على «منافعها» الأكثر دعمًا لاقتصادها ورخائها.. بصداقة هؤلاء العرب..! ومعها صداقة المسلمين.. وفي مقدمتها صداقة شعب مصر..!

نحو الصدق العلمي:

من هذه المرحلة، مرحلة المذهب النفعي، الذي قاد إلى تيار العلم ثمرة للحضارة العربية، ولكن بغير إيمان يتوازن بجذوره مع هذا العلم، اتجهت الحضارة الأوروبية الفلسفية في انتفاضاتها الفكرية العنيفة بهذا العلم الذي لا إيمان فيه، إلى مرحلة أخرى على طريق التمرد على الفلسفة.. انتقلت في محاولة نحو الصدق العلمي، أن تجعل لهذا التمرد ضد الخرافة، وأوهام الصور والمثل وماء وراء الطبيعة، صوتًا مسموعًا في مجتمع الحضارة الذي ساده في سياساته، وعلاقاته، وموازينه، هذا المذهب النفعي كما صوره جون ديوي بقوله «الصادق هو ما يفيد»..!

فطالما أن العلم بمعنى «القوانين الطبيعية» في كل مجال كان ولا يزال هو نقطة اللقاء الوحيدة على فضيلة «الصدق» بين شعوب العالم، وفي كل عصور البشر، فإن أعظم ظواهر التحرر من أوهام الفلسفة، ومن ارتباطاتها الوثيقة بالمفهوم الاستبدادي والسري والإباحي للمعرفة، كما ساد هذا المفهوم في عهد الصفوة الأرستقراطية من الكهنة الأوائل لهذه «المعرفة السرية» وهم: سقراط وأفلاطون وأرسطو — إن أعظم ظواهر التحرر من أوهام هذه الفلسفة الكهنوتية الطبقية تبدأ ولا شك — كما

حدث تمامًا خلال هذا العصر – من بداية تمرد العلوم الإنسانية في مناهج أبحاثها، وطرق استدلالها، ووسائل جمع المعلومات الإحصائية لخدمتها – على الأشكال والصيغ الفلسفية القديمة التي ظهرت في ضهابها، وهامت وراء أهدافها العملية في متاهاتها.

ولقد كان علم النفس وعلوم الاجتماع في المجالات المختلفة في مقدمة هذه العلوم الإنسانية التي سارع علماؤها إلى هذه المواجهة العلمية لخطر «التفلسف» في محاولة لبناء وتجديد وتنمية هذه العلوم على ركائز ثابتة من الصدق العلمي، وذلك باتباع أمين وإنساني للمنهج العلمي، كما تلقته أوروبا عن العرب، وحتى تتخلص من آثار التدمير للنسق العلمي، والإطار الأخلاقي، لهذه الفلسفة العدوانية على كل البشر كما خرج بها في مجال العلوم النفسانية، التحليلية والتقريرية والعلاجية، العالم الأسطوري التلفيقي المصاب بالعصاب وبارانويا العظمة والاضطهاد بلغته: «سيجموند فرويد»..!!

ولكن مع كل هذا التمرد على فلسفة «المعرفة السرية الطبقية» في كثير من العلوم الحديثة، وباتجاه جديد يمكن أن يسمى بالطريق الواسع نحو «علمنة» الفلسفة، أي إخضاع العقل الأوروبي، الذي لا يزال «فلسفيًا» بحكم نظمه الطبقية في الشرق الشيوعي، أو الغرب الرأسمالي، وبحكم طريقة «الاستبطان» والشخوص السائدة على منهج التفكير الأوروبي من ميراثه الهندي، وبحكم مناخه الجليدي وواقعه الجغرافي – هل يمكن لعلم بغير دين، ولحضارة علمية قائمة على نظم طبقية طاغوتية بغير عقيدة دينية صحيحة، تهدي إلى الله، وإلى طهارة السلوك، وإلى العدل، وإلى السواسية، وإلى الإيثار، وإلى الآخرة.. هل يمكن لهذا العلم في مثل صرخات تمرده الأخير، تحت القباب والركائز المتداعية للانهيار في هذه

الحضارة.. أن يمنع انهيارها.. وأن يمنع قوافل اليائسين منها، في لحظاتها الأخيرة، من أن يشقوا طرقهم العفوية، والذهولية، للخروج منها..!؟

هل يكفي مثلا أن يقف أحد علماء هذه الحضارة الطبقية غير الدينية وغير الأخلاقية، وهو يتمرد على أكاذيب عقلها المنحل، وعلى أوهام منهجها التفكيري المختل، متوجهًا بنذيره إلى مواطنيه الأوروبيين ليحذرهم من خطر التفكير الخيالي، ومن النزوع في تربية الأطفال هذا المنزع الأسطوري، كما فعل العالم النفساني «بول باوزفيلد»[1] في كتابه «مبادئ التحليل النفسي».. لكي يوقف انهيار هذه الحضارة!؟

يقول بول باوزفيلد في كتابه العلمي القيم هذا، وكأنه يؤبن بهذا القدر من الصدق العلمي، هذه الحضارة الخيالية الأسطورية في لحظاتها الأخيرة، وإن كان في موقف التحذير.. والأمل لمن يسمع.. وحيث لا يوجد من يسمع.. إنه يقول في أن خطر التفكير الخيالي مثل خطر المخدرات:

«جميع من يكتبون القصة – بمفهومها الخيالي الأوروبي – هم من ذوي التفكير الخيالي. والتفكير الخيالي تفكير غير موجه، والخطر في الإفراط فيه يشبه خطر إدمان المورفين. كما أن فيه كل مساوئ وأضرار العادات، لأن هذا التفكير لا يمكن أن يظهر في نفس الوقت مع التفكير الموجه، أو التفكير الحقيقي، وينبغي أن نتبين أن التفكير الحقيقي هو الأصل في تكوين الأخلاق، وفي التقدم الجوهري للعالم».

ثم يقول من خطر مرض القصص غير الحقيقية على الشعوب وإصابتها بالأمراض العصبية:

---

(1) راجع كتاب «قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح» للمؤلف صفحة 343 إصدار دار الجيل.

«إننا هن يجب أن نذكر أن الاضطرابات العصبية قد لا تصيب الأفراد فقط، بل إنها غالبا ما تكون مرضا يصيب الشعوب! وفي ضوء ما سبق نعلم أن الصحة العقلية للأفراد والشعوب يمكن أن تصان إذا احتفظ الفرد، أو الشعب، في الوعي بحقائق الحياة اليومية سواء أكانت هذه الحقائق سارة أم مؤلمة»!

ثم يقول في بداية التحصين للشعوب من خطر الانحلال العقلي بسبب النشأة على الأساطير:

«ويمكن منع هذه الحالة الخطرة، أو على العكس يمكن تشجيعها في الطفولة، حيث إن القصص الخيالية تعد في «حياتنا الأوروبية» من امتيازات الطفولة، ولكنها في الواقع، وبرغم الفكرة الزائفة عنها هي آفة الطفولة المهلكة»!!

ثم يقول: «وقد يسأل الإنسان الأوروبي نفسه ماذا عسى أن يكون من أمر الطفل الصغير لولا القصص الخيالية؟ وإن أمه «الأوروبية» لتقص عليه واحدة منها كل مساء، فأجيبه هنا بأن الأم في كل مساء تربي في ابنها المسكين عادة تجنب الحقائق، وتشجعه على الاستعاضة عنها بخيالات قد تعرضه في المستقبل للكثير من المصائب والآلام»!!

ثم يقول: «إن هذه القصص.. الخيالية – برغم ما فيها من إشباع رغبة التمتع عند الطفل لا تؤدي إلى شيء غير الانحلال العقلي»!!

فيا ترى.. هذا التأبين للعقل الأوروبي الذي تفاقم انحلاله في السنوات الأخيرة، ومع استمرار هذا التفكير الخيالي بتربية الأجيال الأوروبية المتعاقبة على أساطير ومخدرات قصص من نوع: سندرلا.. والطحان والقزم، وذات الحذاء الأحمر – بعيدًا عن التفكير الحقيقي الموجه.. التفكير

المستقر على الصدق العلمي، والصدق الأخلاقي.. هل يكفي هذا التأبين المتأخر لحضارة «المعرفة السرية الطبقية» والفلسفة الاستبدادية الإباحية غير العلمية.. هل يكفي هذا الصوت الموجه بالفكر الحقيقي لكي يصل بأوروبا وأمريكا وحضارتهما الأسطورية إلى منفذ للنجاة.. وإلى اكتشاف أن العلم لا يكون أساسًا لتقدم الأمم، وبناء أزهى وأقوى وأنفع الحضارات، إلا إذا كان هذا العلم توءمًا مع الدين الحق.. بل إذا كانت ركيزة هذا العلم هي الإيمان، وشرائعه، وأخلاقه، التي تقود بالعلم، وباستثمار قوانينه تقنيًا وصناعيًا، إلى عمران باذخ بالعدل، ومشرق بالسواسية، وعزيز بالحق، ومزدهر بالسلام..!؟

نعم.. هل تفيد هذه الكلمات العلمية الصادقة في مواجهة علة العلل في هذا الانحلال الفلسفي الطويل للعقل الأوروبي، وفي إنقاذ هذه الحضارة الأوروبية من أعراض وظواهر انهيارها..!؟

كيف..؟.. وقد أخذت قوافل الهاربين من خطر تداعيها فوق رءوسهم، تتزايد وتتتابع.. على طرق النجاة منها.. متحركين وحقائبهم وراء ظهورهم نحو المجهول.. ذاهلين بغير هدف.. وبغير أمل.. وبغير طريق!؟

تعليم العقل.. ثم العودة للإيمان:

لقد كان لهذا الانحلال العقلي الذي تابعت به الشعوب الأوروبية والأمريكية مسارها المحتوم نحو انهيارها أثره في تنشيط هذه الظواهر السلوكية العفوية التي تدل على بدء الشعور الجماعي بحقيقة هذا الانحلال العقلي، فلقد سقطت تمامًا – وبرغم أماني الدكتور زكي نجيب محمود – دولة الفلسفات التي تقوم عليها نظم الحكم الجائر، والمتخبط، والنفعي غير الأخلاقي، في كل من نظم الدولتين الأوربيتين العظميين: روسيا وأمريكا.. لقد سقطت هذه النظم الفلسفية الطبقية

المستبدة أمام أعين المتعبين والمنسحقين من رعاياها، ومن كل شعوب العالم.. وظهر الطريق إلى نهاية الصدام المدمر، ونحو دمار كل العالم.. مفتوحًا وجليًا.

بل لقد سقطت هذه النظم الفلسفية الجائرة، وسقط معها في وعي الإنسان المعاصر - وفي سكرات النهاية لهذا العالم - كل تعلق سابق بجذور هذه الفلسفة الطاغية في مراحلها اليونانية الأولى، حيث كان من العسير أن يحس الملوك الطغاة، مثل فيليب والإسكندر، وكهنتهم الفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو، بهذا «الانحلال العقلي» الذي غرقوا في أوزاره، وتدثروا بمرقعاته، وتعاظموا بهلوساته.. والذي انتهى من بعدهم، وحتى في عصر العلم المستعار بغير إيمان، إلى هذه المأساة.

لقد سقط وتناثر كالرميم في أكفانه كل هذا التراث الفلسفي الذي حمل في عبث غير العقلاء بالطبيعة، والمجانين بالقوة، اسم «المعرفة السرية للصفوة»، وحيث ارتعد الإسكندر المتجبر والمغتر والمداهن عندما سمع في رحلة عدوانه وغزواته على أرض العرب، وباتجاه الهند، وكما يروي ذلك المؤرخ الإغريقي بلوتارخ - أن أستاذه وكاهنه أرسطو قد أباح إطلاع بعض أحرار اليونان من السادة على بعض هذه المعرفة السرية الخاصة بالملوك وبطانتهم من السادة والقادة، فكتب إليه الإسكندر من موقعه من الأراضي التي يغزوها، ويسفك دماء أهلها، ليسرق خيراتها - يقول من قمة الطغيان: وهاوية الهذيان:

«لقد ارتكبت خطأ بنشرك الأجزاء الباطنة من العلم، وإلا فكيف يبقى اختلافنا عن الناس إذا جعلت «المعرفة العليا» التي اكتسبناها منك مشاعة في العالم أجمع»..!!

فرد أرسطو على الإسكندر بقوله الفلسفي الكهنوتي:

«لقد نشرناها ولم ننشرها.. ولن يصل إلى فهمها إلا من درس علينا مثلك»..!!

وهكذا.. من ميراث الانحلال العقلي القديم، وحيث كان الملوك الطغاة طبقة.. وحيث كان كهانهم وفلاسفتهم طبقة.. وحيث كانت «المعرفة العليا» نفسها طبقة.. سقطت الأقنعة عن كل أكاذيب الفلسفة، القديمة والمعاصرة.. سقطت بأوهامها.. وأسرارها.. وأساطيرها.. ومخدراتها.. لقد سقطت دولتها تماما منذ عهد اليونان الأوائل.. وحتى اليوم.. وحيث ظهرت في شمس المنهج العلمي المستعار من حضارة العقل والإيمان.. من حضارة العرب.. حقيقة هذا الانحلال العقلي في تتابع مراحل الحضارة الأوروبية.. هذه الحقيقة التي نثرت في الفضاء.. وبقوة التمرد العلمي في ضوء العلم، وتحت أعباء الظلم.. هباء هذا الرميم الفلسفي.. الذي أغلق الطريق المفتوح بين الأوروبيين وبين الله.. حتى بعد أن بلغ إليهم، وسار فوق أرضهم، من دعاهم إليه من المؤمنين العرب.. من مؤمني المسلمين، والمسيحيين، واليهود..!.

من أجل ذلك، وبعد مرحلة التمرد بالعلم على دولة الفلسفة، وبعد صحوة الشعور بين المسحوقين من رعايا وضحايا النظم الفلسفية الأوروبية المعاصرة بواقع «الانحلال العقلي» الذي قادهم في مراحل تفلسفهم إلى حافة هذه الهاوية التي تفتح فمها، بأنيابها الهيدروجينية، لابتلاع العالم – نحكي للقارئ العربي، وللدكتور زكي نجيب محمود بالضرورة، ما غاب عن علم «معرفته الفلسفية العليا» بعض القليل مما نعرفه وما في الإمكان معرفة الأشد إيلاما منه، من معاناة الشعب الأمريكي المعاصر، قمة الفكر والفلسفة والحضارة الواجبة الإتباع من العرب في نظر

الفيلسوف الشيخ، ونظر رفاقه المتهجمين على العقل العربي، والمطالبين بتفلسفه، وإغماض عينيه، وإغلاق عقله!!

لقد انفجر نتيجة فقدان التوازن المستحيل بين العلم والعلمانية كل ما في الأنفس الممزقة تحت وطأة الحضارة الأمريكية الفلسفية والنفعية من علل وأمراض.. لقد انفجر صبر فاقدي الأمن النفسي.. الذين فرض عليهم العجز الطبيعي عن الإيمان أن يموتوا قبل الموت.. أن يجفا بجفاف قلوبهم.. أن يحطموا مصباح الخلد داخل صدروهم.. أن يرتدوا بشرا عدوانيين.. مروضين أو منفلتين.. ليسقطوا في صراع كل يوم بين أنفسهم وأجسامهم.. وبين أجسامهم وحواسهم.. وبين حواسهم وبقايا عقولهم.. وبين بقايا عقولهم ومصائرهم..!!

لذلك فقد أخذت شمس الولايات المتحدة تشرق – مثالا ناطقًا عن غيرها – على صور هذا التدافع الأخير بين الحقيقة والشعوذة.. فبينما أخذ ماك جوجال[1] الذي يلقبونه بأنه أبو علم النفس في القرن العشرين يتاجر في مصائب قومه فيزعم – مع الإقرار بغيبة العقل.. وبالحاجة بعد خيبة الفلسفة إلى العقل – بأنه من الممكن «تعليم العقل».. ثم يمضي ماك دوجال في شعوذته التي لقيت رواجًا في مناخ الشعور أمام النذر الجائمة بالحاجة إلى أي عزاء.. وأي عزاء بعد انهيار الفلسفة إلا في العقل.. ولكن أين العقل بعد الغيبة الفلسفية الطويلة لهذا العقل.. الحل عند ماك دوجال هو تعليم العقل: مثل: تعليم العبقرية.. أو تعليم الذكاء.. أو تعليم الجمال.. أو تعليم الانتماء إلى جنس آخر.. وأصالة أخرى.. وخصائص سلالية ولغوية مختلفة!!

---

(1) أقرأ التفاصيل عن هذا الموضوع في كتاب «لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب» للمؤلف – دار الجيل.

وهكذا يتسلم آخرون هذا الخيط من الشعوذة العقلية، وبصورة من الدروشة الصوفية الهندية الغريبة على المزاج الأوروبي الأمريكي، فيقدمون لملايين من يواجهون صحوة النهاية، وتبلج الحقيقة في سكرة الاحتضار – هذه «الأوراد» التي يتساقط لعابها من الشعوذة أو الهذيان.. أوراد تعليم العقل، بل تيسير الحصول على «كل المطلوب» بمجرد تكرار الورد.. كما جاء مثيلها فيما قدمه شارل هانل لمواطنيه الأمريكيين في كتابه المشهور في أمريكا واسمه «ماستر – كي» أي «المفتاح الذي يفتح كل باب»، وهو الكتاب الذي يعلم العقل بالدروشة الهندية والأوراد، ليحقق «الحكمة» و«السعادة» و«الأمن النفسي» و«الغنى» وتحقيق «المنفعة» من كل وجوهها.. مجانًا.. ومهما كان الفرد محرومًا من كل القدرات التي تؤهله لذلك.. فقط عليه أن يقرأ الأوراد.. وأن يثق فيها بعقله.. أو بغير عقله.. وعند ذلك سيجد ما يسره تمامًا.. كما وجد قراؤه جميعًا ما يسرهم.. وهو دعوة الإيمان.. ثم اليأس.. ثم الهيمان على الوجوه والضرب في الأرض.. نحو الحق المجهول.

يقول شارل هانل في دروشته وفي أوراده، التي لعلها تكون سببًا في تذكير الدكتور زكي نجيب محمود بحقائق يتخلى بها تماما عن الفلسفة.. أو يتخلى مشكورًا عن زرايته بالعقل العربي.. نعم.. يقول شارل هانل في تعليم ما يغني عن العقل:

«* كيف يربح الإنسان عشرة أضعاف ربحه الحالي!؟..

* كيف يتغلب المرء على الصعوبات، ويتجنب اصطدامه بالأعداء!؟

* كيف يزيد الأبله الجاهل من قوة عقله، ويوقظ النشاط النائم في نفسه!؟

* كيف يتخلق المذنب من آثار الماضي السيئة، ويدخل في تفكير جديد نظيف؟!»..

وفي كتاب هانل بالطبع - لمن يقروه - شرح هذه الطرق «غير المعقولة» للوصول إلى هذه الأهداف غير الممكنة.. والتي لم يصل إليها بغير وسائلها حد..!

وحتى يؤكد هانل قوة المصدر الذي استقى منه هذه الشعوذة التي انتشرت في طول وعرض الولايات المتحدة، يعلن في وضوح عن مصدرها الهندي، وبنفس المفهوم عند الدراويش والمتصوفة في الشرق قديما وحديثا، وذلك حيث يقول في الجزم بالحلول الصوفي:

«إن الإنسان جزء من الإلاه، وفي استطاعته لذلك أن يصنع كل شيء»!!

ولم يكن باقيًا بعد ذلك إلا الانفجار الأخير في سلسلة هذه الانفجارات المتتابعة على المنزلق نحو الهاوية المفتوحة لهذه الحضارة العلمية بغير إيمان، والفلسفية بغير إنابة أو رجعة.. هذا الانفجار كان في صرخات هؤلاء المرعوبين بكل ما أشرنا إليه من حقائق.. صرخاتهم من أجل المفقود في غيبة العقل المنشود.. صخراتهم من أجل الإيمان.. الإيمان بالحق العقلي، والحق العلمي، والحق الأخلاقي، الذي لم يخطر على بال الإسكندر ولا أفلاطون، ولم يهتز له شعور نيرون أو قيصر، ولا دقلديانوس أو هرقل.. ولم يمر بخيال أولئك الإنجليز الذين قتلوا واغتصبوا عشرات الملايين من الأفارقة الزنوج الذين باعوهم عبيدًا في أسواق أمريكا، ولا أولئك الأوروبيين الذين قتلوا واغتصبوا عشرات الملايين من الهنود الحمر، ومن الزنوج المسخرين في زراعة أرضهم أيضًا، لتخلو للأوروبي الأبيض، الهندي، الفلسفي، الطبقي، العنصري.. كل موارد أمريكا..!!

لقد ارتفعت نحو «الإيمان» في لحظات للنهاية لهذه الحضارة الفلسفية الغاشمة هذه الأصوات التي لم يسمعها الدكتور زكي نجيب محمود، الفيلسوف الذي يكتب وقلما يقرأ، ويسمع وقلما يقتنع.. مثل صوت العالم النفسي الأمريكي الدكتور هنري لنك الذي أصدر كتابه «العودة إلى الإيمان» والذي جاء فيه بعد عودته هو إلى الإيمان، وبعد أن ذكر الكثير عن حقيقة هذا الإيمان البعيدة عن الخرافة والتحريف والغلو:

«إن كل من يعتنق دينًا، أو يتردد على دار للعبادة، يتمتع بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له، أو ممن لا يزاول أية عبادة».

ثم بعد هذه الدعوة المبكرة للإيمان، والتي مضت بانفجاراتها حتى بلغت في السنوات الأخيرة – وكما سمعت من بعض العرب العائدين من الدراسة بأمريكا – حد الهستريا، فانتشر هنا وهناك أصحاب الفرق الدينية والمشعوذين، من أمثال الدجال المكسيكي الذي نصب نفسه أخيرا إلاهًا على أتباعه، ثم بداله فقضى عليهم في «المذبحة الانتحارية» حين أمرهم بالموت في طاعته.. لقد تفاقم الأمر فأصبح لكل ولاية إنجيل خاص بها، كما أصبح لكل إنجيل من هذه الأناجيل المتعددة بعدد الولايات تفسير خاص للمسيحية، وفهم مختلف للإيمان.. وهكذا.. حتى انتهى الأمر بخروج قوافل الهيبيز.. والبيتلز.. أو دراويش الحضارة المعاصرة، الفلسفية والعلمية بغير إيمان.. الدراويش المفترى عليهم.. ومتصوفة أوروبا الغرباء.. الذين بدءوا رحلة هذا التصوف. الذي لفظته في أغرب الظواهر ضجات الآلات، وقساوة الفلسفات. بغير أئمة مستورين.. وبغير كشف ولا حلول.. وبغير ادعاء لخوارق وعجائبيات!

هؤلاء الشباب الأبرياء من أسباب مأساتهم، والمفترى عليهم في نظر من يجهلون أمرهم، ويسخرون منهم، فيصفونهم بصفة الهيبز أي

«المحزقين»، والبيتلز أي «الخنافس».. هؤلاء الشباب الذين خرجوا - كما أشرنا إلى ذلك في الحديث عن الأوهام الطغيانية وغير الأخلاقية لأفلاطون في «جمهوريته الفاضلة» - يبحثون عن إيجاد هذه المعادلة النفسية مع بأسهم وضياعهم، وبعد أن غرقوا عبثًا في تعاطي المخدرات وعقار الهلوسة.. فساروا هائمين على وجوههم في الأرض الواسعة، ليحققوا أحلامهم في اللامكان المجهول، وهم يردون ردًا عمليًا، عفويًا، مأساويًا، على خرافة أفلاطون المشاعية عن جنته الموعودة، والكاذبة، في اليوتوبيا، أي اللامكان..!..

لقد كان متصوفة الشرق من قبلهم، وبعد أن تفلسفوا على أيدي أئمتهم وأقباطهم على الطريق الهندية، حتى بعد أن اعتنقوا الإسلام، يرون في معنى الكلمة التي تعمموا بها، واختاروها الشعار عليهم وحدها، وهي كلمة «المتصوفة» وليس كلمة المسلمين، أو الحنفاء - أنها الصلة الوثيقة بينهم وبين «الفلسفة»، فالصوفية - وبرغم ادعائهم للتستر أنها من الصفو أو الصفاء، مأخوذة من صوفي Sophy التي تعني مع السفسطة أنها «المعرفة السرية العليا للصفوة».. تمامًا مثل جميع فرق هؤلاء المتفلسفة شرقًا وغربًا.. وفي الهند وأوروبا.

ولكن هؤلاء المتصوفة الذين تسربلوا على فلسفاتهم، ومعرفتهم السرية الحلولية الخاصة بالصفوة، والبعيدة تمامًا عن أي صفو أو صفاء مع العقيدة الإسلامية السمحة، أو مع محكمات القرآن ظاهرة وباطنة، قد أفادوا باستمرار تكيفهم من عطاء الإسلام الوافر، فعرفوا - برغم عجمتهم ما قد يعطيهم العذر في ظواهر جنوحهم، وعودتهم إلى المعتقدات السابقة لهم قبل الإسلام في تراثهم. ومن ذلك هذا الشعار الذكي والجذاب الذي رفعوه على طرق دراويشهم، الإيقاظ منهم والرقود.. الواعين منهم أو المغيبين، وهو «الرحلة على الله»..!.

وهكذا مضت قوافل هؤلاء المتحللين من كل قيد، والمتظاهرين – إلا قليلا منهم – تجاه هذه الدنيا بالانقطاع والزهد، هائمين على وجوههم تحت عنوان «الرحلة على الله».. مستمتعين فوق هذه الأرض العربية الغنية بمواردها، والودود بشمسها ونجومها وكواكبها، وبسماحة ومكارم شعوبها وأبنائها.. وقد حفظ لهم تشبثهم باسم الله، كما عرفته لغة العرب وكما أعلن عنه وحي الله في رسالاته إلى العرب بلغة العرب.. وهو غير أسماء الآلهة في معتقداتهم الدينية الأعجمية قبل الإسلام.. لقد حفظ لهم تشبثهم. باسم «الله» الرحمن الرحيم، وفوق أرض العرب، وبالعيش المهادن مع العرب، نعمة الأمن السابغ.. أمن الغاية.. وأمن الأمل.. وأمن الطريق.. الطريق الرحب، والواسع، والمشرق بأشعة الشمس، والمنير بأنوار النجوم، في رحلتهم التي وضعوا لها شعارها الذكي.. الرحلة على الله..!.

أما هؤلاء الشباب الغرباء من متصوفة الغرب.. الذين لفظهم الشوط الأخير على منزلق النهاية المحتومة لحضارة الفلسفة الطبقية، والانحلالات العقلية.. فهم على عكس متصوفة الشرق لا يعرفون باطنًا لظاهرهم.. ولا إمامًا مستورًا لطريقتهم.. وهم لا يداورون ولا يخادعون.. كما أنهم لا يتمخرقون ولا يتذاهلون.. وهم في هيامهم على وجوههم في اللامكان لا يعلنون التفلسف بشيء، فهم ضحايا التفلسف الطويل، وقد استدبروا برحلتهم إلى «الحق المجهول» أي تفلسف في أي شيء..!!.

ولئن كان هؤلاء المتصوفة الغربيون، المتدافعون على الطرق، انطلاقا من أمريكا وأوروبا نحو اللامكان.. وجنة الحق المجهول.. البعيدة المنال.. لأنها في غير مكان.. لئن كان هؤلاء الشباب الضائعون – بخلاف دراويش الشرق الهائمين بالرحلة على الله – لا يدعون خلقًا كريمًا.. ولا يعرفون دينًا حقًا.. فهم يعيشون في رحلتهم نحو الحق المجهول في حياة

مشاعية بغير أموال، وبغير زواج شرعي، وبغير أولاد.. إلا أنهم لا يأثمون في شيء في حدود ما هو ظاهر من سلوكهم، ومن هذا اليتم العالمي في مأساتهم. وهم في انطلاقهم الصامت نحو الحق المجهول منهم، والمنشود في أعمق أعماق وجدانهم، يعلنون بهذا الصمت، وبهذا التجوال المشاعي الرخيص والحزين، وحقائبهم بكل ما يمتلكون وراء ظهورهم، وأيديهم عندما ينامون تحت خدودهم – أنهم عاشوا طويلا تحت مستوى هذا الحق الذي خرجوا إليه.. في أقرب ما يظنون أنه يشرق منه.. وهو اللامكان.. واللازمان أيضًا.. هذا الحق الذي يهدي إليه العقل السليم، واللسان المبين، حين يهدي إلى الدين الحق.. وإلى الله الحق.. وإلى الصراط المستقيم.

هؤلاء الهائمون الغرباء من متصوفة الغرب.. وواحدة من آيات الله في هذا العصر.. نراهم كثيرًا في بلادنا العربية.. ونراهم أكثر في مصر المضيافة بطبيعتها ومناخها وشعبها.. نراهم في تجوالهم الهائم نحو الحق المجهول.. والجنة الموعودة.. في غير مكان معلوم.. أو زمان محدد.. يسيرون متواضعين في خطاهم.. وبحياتهم الملخصة في حقائبهم.. واللاشعورية أحيانا في شبه التعري لفتياتهم.. نراهم يطلبون في مصر شمسها قبل كل شيء.. لأنها الرمز لإشراق هذا الحق المجهول.. حتى إذا ما وجدوا الشمس بحثوا عن أقرب الطرق وأنسبها ليتعروا بأجسامهم لعطائها.. ثم استلقوا لها على العشب الأخضر ظهرًا وبطنًا، مغمضي الأعين والحواس.. لا يأبهون لشيء حولهم، إلا هذه الشمس التي يسألونها في الصمت عطاءها للمحروم، وسرها للمضيع.. سرها عن هذه البشاشة في أهلها.. وعن هذا الأمن في أعينهم.. وعن هذه النغمة بالمحبة في أصواتهم.. وهذا البذل من غير سؤال للغرباء عنهم..!

ثـم يـنهض هـؤلاء المتـصوفة القـادمون مـن الغـرب، والهـائمون علـى وجـوههم نحـو الحـق المجهـول.. ينهـضون مـن صـلاتهم العاريـة تحـت أضـواء الـشمس الهادية.. ينهـضون ليجـدوا نـورًا في أبـدانهم.. وحزنًـا وصـمتًا وإبهامًـا فيمـا بقـى لهـم مـن شـعورهم وإدراكهـم.. ومـن ثـم يـضعون حقـائبهم وراء ظهورهم.. اثنين اثنين.. بغير أموال.. وبغير زواج.. ردًا صامتًا بليغًا على «يوتوبيا أفلاطون» واختلاط عقله، وعلى فلسفته وسقوط خلقه..!!

إن الرد البليـغ أمـام مـن يتفـكـرون في خلـق الله، ويتـدبرون آياتـه.. إنـه واحدة من آيات الله بهذا العصر يراها العرب.. ليتعظوا ويعتبروا.. ويعتصموا بما اصطفاهم الله له من حق معلوم، ومحكم ظاهر، وتنزيل حكيم.. وهم يـرون في قوافـل هـؤلاء الـشباب الأبريـاء حجـة هـذه الحـضارة الفلـسفية الأوروبية على نفسها.. بعد أن انعتقوا في حالة الذهول بمأساة النهاية لهذه الحاضـرة مـن قيـود العلاقـة بهـذه الفلـسفة، مـن جـذورها الأولى، وحتـى مرارات ثمارها الأخيرة.. فخرجوا نحو غير المكان وغير الزمان.. رهبانًا بغير صلبان.. ومتـورعين بغـير إيمـان.. يطلبـون هـذا الحـق المجهـول، والفـردوس المنشود.. بعد أن فقدوا في أوطانهم وهي تحترق.. كل شيء.. فقدوا الغاية ... وفقدوا الأمل ... وفقدوا الطريق!!!



القسم الخامس

المتفلسفون باسم الإسلام أدعياء على الإسلام



الفصل الأول

اليقين العلمي في دعوة القرآن الكريم

ينقض نسبة التفلسف إلى الإسلام

هل كانت هناك حقًا «فلسفة» يمكن أن ننسبها إلى الإسلام، وأن نعطيها ونحن جادون صفة «الفلسفة الإسلامية» من هذه المذاهب الفلسفية المنحرفة عن الإسلام باسم الإسلام؟

وبعبارة أخرى هل يمكن لهؤلاء المفكرين - في عصر الشيوع والصراع الشعوبي ضد الحكم العربي - من الذين اتخذوا من المنطق اليوناني، والهوى الفارسي، منهجًا للتفكير، وآلة للجدل، وطريقًا لمحاربة العرب، أن يسيروا بتفلسفهم على طريق مستقيم مع مصادر الإسلام ومحكماته في القرآن وأسوة الرسول؟

الجواب الواضح هو نفي أي تشابه، أو تقارب، بين «اليقين العلمي» في دعوة القرآن الكريم إلى الدين الحق، والإسلام الخاص، وبين «الظن الفلسفي» الذي هو بداية ونهاية أي «عمل فكري» لهؤلاء المتفلسفين، في أي عصر، ونحو أي اتجاه، كما قدمنا الأدلة العلمية، والعقلية، والتاريخية، على ذلك فيما سبق. ونبدأ هنا تقديم الحجة على صحة الجواب برفض هذا الادعاء الباطل باحتمال وجود أية «فلسفة» يصح انتسابها في الماضي، أو في الحاضر، أو في المستقبل، للإسلام، مستعرضين في هذه البداية، وبإيجاز نشأة «علم الكلام» المقابل للمنطق بمفهوم الاصطلاح الفلسفي اليوناني، وهو أول ما تردى المعتزلة في متاهاته، وفي اختلاس سفسطته، منزلقين على منحدره إلى هاوية المحنة التي تورطوا وغرقوا فيها، وهي الزعم الذي أصروا عليه آثمين، ومدلسين، ومتفلسفين، على أيام المأمون، والمعتصم والواثق، بأن «القرآن مخلوق»!!

يقول المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة القاهرة في كتابه «المذاهب الإسلامية» وهو يتحدث عن

جذور التفلسف الغريب عن مصادر الدين، والمتناقض مع منهج الإسلام وفكر المسلمين:

«في آخر العصر الأموي والعصر العباسي[1] توردت على العقل العربي: الفلسفة الهندية، والفلسفة اليونانية عن طريق الفرس، لأن الثقافة الفارسية قبل الإسلام كانت متأثرة بالفلسفة اليونانية، كما جاءت عن طريق السريان لأنهم قد ورثوا الفلسفة اليونانية وألبسوها لبوسهم الديني ومسوحهم اللاهوتي وعن طريق اليونان أنفسهم، لأن بعض الموالي المسلمين كان يجيد اليونانية. وقد تأثر المعتزلة بهذه الفلسفة في آرائهم، وأخذوا عنها كثيرًا في استدلالهم، فظهرت في أدلتهم وأقيستهم».

ثم يقول الشيخ أبو زهرة:

«ظهر المعتزلة في العصر الأموي فلم يجدوا من الأمويين معارضة لهم، لأنهم لم يثيروا شغبًا عليهم ولا حربًا.. ولما جاءت الدولة العباسية وقد طم سيل الإلحاد والزندقة وجد خلفاؤها في «المعتزلة» سيفًا مسلولا على الزنادقة فلم يفلوه، بل شجعوهم على الاستمرار في نهجهم، فلما جاء المأمون، وقد كان يعتبر نفسه من علماء المعتزلة، شايعهم وقربهم وأدناهم، وجعل منهم حجابه ووزراءه» [2]

ثم يقول على نفس الطريق الذي يؤرخ للتردي الذي سقط به المعتزلة وراء ظنون وخيلاء التفلسف:

«وقد شن الفقهاء والمحدثون الغارة على المعتزلة، فكانوا بين عدوين كلاهما قوي: الزنادقة والمشبهة والمجسمة من على شاكلتهم، ثم الفقهاء

---

(1) «المذاهب الإسلامية» للدكتور الشيخ محمد أبو زهرة صفحة 217.

(2) صفحة 219 نفس المصدر.

والمحدثون من ناحية أخرى، وإنك لترى في مجادلات الفقهاء والمحدثين تشنيعًا على المعتزلة كلما لاحت لهم بارقة. وإذا سمعت «الشافعي» و«ابن حنبل» يذمان «علم الكلام» ومن يأخذ العلم على طريقة «المتكلمين» فإنما «المعتزلة» وطريقتهم أرادوا بذمهما»[1].

ثم يقول كاشفًا عن هاوية الخلاف بين السلف والمعتزلة حول تفلسفهم في فهم الدين:

«ولكن ما السر في كراهية الفقهاء والمحدثين لهم حتى قبل المحنة التي أنزلها المأمون تأييدًا لآرائهم؟.. بعض هذه الأسئلة أن المعتزلة خالفوا طريقة السلف في فهم العقائد. لقد كان القرآن الكريم هو الورد المورود عند السلف، يلجأ إليه وإلى السنة كل من يريد معرفة ما يجب الإيمان به، لا يصدرون عن غيره، ولا يطمئنون لسواه، كانوا يفهمون العقائد من آيات الكتاب، وهي بينات، وما اشتبه عليهم حاولوا فهمه بأساليب اللغة وهم بها خبراء، وإن تعذر عليهم توقفوا، وفوضوا الأمور لله غير مبتغين فتنة، ولا راغبين في زيغ، وكان ذلك ملائمًا للعرب لأنهم في أصالتهم ليسوا أهل منطق ولا فلسفة، فلما اتسعت علوم الفلسفة جاء المعتزلة وخالفوا ذلك النهج».

ويصل الشيخ أبو زهرة بعد إسهاب في تاريخ المعتزلة إلى بداية محنتهم بالتفلسف في فتنتهم بالزعم بخلق القرآن فيقول:

«وقد اقترنت مسألة «خلق القرآن» بتاريخ المعتزلة، فما ذكروا إلا سبقت إلى الذهن تلك المسألة، لأنهم أثاروها في العصر العباسي، وبرأيهم حاول الخليفة العباسي حمل الفقهاء والمحدثين على القول بها، ونزل ببعض

---

(1) صفحة 221 نفس المصدر.

أولئك الفقهاء ما نزل من شدائد. وقد شغلت أفكار الناس في عصور ثلاثة من خلفاء بني العباس، المأمون والمعتصم والواثق، اضطربت فيها النفوس، وأزهقت فيها حرية العقيدة، وأوذي المتورعون في ألفاظهم، المتوقفون في علمهم عند حدود النصوص إيذاء شديدًا، ولا ذنب لهم إلا العكوف على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم خشية أن يضلوا في نزعات الفكر، وزيغ العقول..».

ثم يقول الشيخ أبو زهرة[1]:

«وكان ابتداء الخوض الشديد في هذه المسألة في عهد الرشيد، ولم يكن ممن يشجعون الخوض في العقائد والجدل فيها على ضوء أقوال الفلاسفة، بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين في العقائد ومنهم «المعتزلة» ولذلك لم يشجع الكلام في شأن القرآن: أهو مخلوق أم غير مخلوق..».

ثم يقول بعد أن تناول أسباب تقريب المأمون للمعتزلة وهو بعجمته من زعمائهم:

«ولكن في سنة 218 هجرية وهي السنة التي توفى فيها بدا له بوسوسة أهل الاعتزال[2] أن يدعو الناس بقوة السلطان إلى اعتناق القول بخلق القرآن، بل أراد أن يحملهم على ذلك قهرًا وغلبة..».

ثم يقول عن إيقاع هذا الجور بأئمة الفقهاء الذين أبوا على قدر جهدهم أن ينزلقوا إلى محنة فهم الدين، وتدبر القرآن المبين، بالتفلسف:

---

(1) صفحة 248 من نفس المصدر.

(2) صفحة 251 من نفس المصدر.

«ولكن أربعة ربط الله على قلوبهم، واطمأنوا إلى حكم الله في أمرهم، فأصروا على موقفهم إصرارًا جريئًا، وهم أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح والقواويري، وسجادة، فشدوا في الوثاق، وكبلوا بالحديد، وباتوا ليلهم مصفدين في الأغلال.. وقد استمر في البلاء أحمد بن حنبل، ومزق جسمه بالسياط، وهو راض بالبلاء، غير مستهين بعقيدته، واستمر في الحبس نحو ثمانية عشر شهرًا، حتى استيأسوا منه وعلموا أنه لا يجيب..»».

ثم يمضي الشيخ أبو زهرة في قصة المحنة بالتفلسف باسم الإسلام إلى غايتها فيقول:

«ولم تكن الفتنة في عهد الواثق – بعد المأمون والمعتصم – مقصورة على الإمام أحمد، بل تجاوزته إلى غيره. فقد كان فقهاء الأمصار يساقون إلى بغداد ليختبروا في هذه المسألة، ويفتش عن خبايا قلوبهم، وكان منهم يوسف بن يحيى البويطي الفقيه المصري صاحب الإمام الشافعي، فقد دعى إلى القول بما يقولون فامتنع، فحمل مقيدًا مغلولا حتى مات في اصفاده، محتسبا ذلك عند ربه»».

ثم يقول الشيخ أبو زهرة – رحمه الله – أخيرًا:

«في هذه الفتنة الصماء، التي خفت فيها صوت الحكمة، وفي هذه الشدة التي سكت فيها صوت الرحمة، عاش العلماء سنين. وكان التورع عن الخوض إثمًا كبيرًا لا يعذر فيه مؤمن لسابق عمل أو إصلاح.. وقد تفاقم الخطب، واستمرت البلوى، حتى سئم الناس هذا الحال، بل حتى سئمها القائمون بها، وحتى صارت هزلا لدى بعض الناس، فإنه يروى أنه دخل على «الواثق» مضحك له اسمه (عبادة) فقال: «يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن!» فقال الواثق: «ويلك.. القرآن يموت؟!».. قال مضحكه: «يا أمير المؤمنين كل «مخلوق» يموت.. بالله يا أمير المؤمنين من

يصل بالناس التراويح إذا مات القرآن؟!» فضحك «الواثق» وقال: «قاتلك الله.. أمسك!»».

وهذا هو وجه واحد من وجود «الاعتزال» عن الحق بالتفلسف فيه، عرضناه مع الإيجاز صورة لما هو أدهى منه في تفلسف المذاهب التي انحرفت عن الإسلام على جملة وجوه من الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية والصهيونية تحت أمثال ما شاع من مللها ونحلها في «البابكية» و«الإسماعيلية» و«السبئية»، و«الكيمانية» و«الإمامية» و(الاثنى عشرية» و«الجبرية».

ثم نقول: إن البلاء الذي علق بالأمة العربية، بعد هذا الفصام الحادث عليها في هويتها، وحقيقتها، بينها وبين لسانها العربي، وعقلها العربي، لا يزال يهددها بالفناء، لولا هذا القرآن الكريم، الحافظ لمقوماتها، وفي اليقين بقرب استعادتها صحوتها، وصحة عقيدتها، وقوة وحدتها. إن هذا البلاء لم يعلق بها، ولم ينشب أظفاره وأنيابه في مقومات حياتها، وإلا بتسرب هذه الوساوس الفلسفية إلى ألسنتها، ومفهوماتها، والعادات المطبقة بأثقال أعدائها على صدرها، حتى أصبح القرآن.. مع ارتفاع صورته في أرجائها، ودلالات نوره على وجوهها، مهجورًا منها في التدبر، وفي صحة الإيمان، وفي الالتزام بالشرع، وفي التمكن بذخائره من حقائق الإيمان والعلم على صهوة الاجتهاد، سباقًا وسبقًا بالدين الحق فوق تحديات العصر، ونحو آماله ودون الانحراف عن مشرق مبادئها وغاياتها به، وفيه..

ويكفي للدلالة على هذا البلاء الناخر وراء العديد والواهن من الفلسفات الغابرة أو المعاصرة، باسم الإسلام، أو حربًا صريحة على الإسلام، أن هذه الفتنة التي التصقت بتاريخ المعتزلة في تفلسفهم بادعاء «خلق القرآن» لم تجد حتى اليوم ردًا إسلاميًا عقليًا وجليًا لدحض هذا الادعاء، دحضًا يقوم برهانه العلمي اليقيني والديني على بينات القرآن الكريم في آياته ومحكماته. فالموقف السائد إلى اليوم بين المسلمين المتمسكين بالكتاب والسنة، والمتنزهين عن التفلسف العليل، وفتنة التأويل، لا يزال هو وقف «التورع عن الخوض»

حقا.. لقد تورع المسلمون الأوائل عن الخوض في المتشابه، كما أمرهم الله – تنزهًا عن الفتنة، وحذرًا من التردي فيها بالتأويل، ولكن لو تصورنا – ما لم يقع – وهو أن مفتونًا من أمثال المعتزلة قد لقى جمعًا من هؤلاء الراشدين الأوائل، المستبينين للمحكم من كتاب الله، والملتزمين به، والمتورعين عن الخوض في غيره، فطرح عليهم فتنته بالسؤال عن القرآن الكريم «أمخلوق هو.. أم غير مخلوق؟».. فهل يكون جوابه الصمت.. أو إعلان التورع عن الخوض في هذا التشابه، أو المبادرة – وهم أهل العلم واليقين إلى برهان الله إليهم ليدحضوا به وساوس هذه الفتنة، ويردوها على أصحابها بالإحباط والقمع؟

لا نعتقد إلا أنهم كانوا – كما فعلوا في مواجهة المرتدين والمتنبئين في خلافة أبي بكر، وبعد وفاة الرسول التي استغلتها القوى المعادية للإسلام من الفرس.. سيبادرون إلى قمع هذه الفتنة الفلسفية بما بين أيديهم من حجة الله وآياته وبيناته إليهم في القرآن الكريم.

على أن أحمد بن حنبل الذي احتمل صابرًا أذى الخلفاء العباسيين المارقين عن الصراط المستقيم، وأذى كهانهم من المعتزلة والحاشية، تدبر قبل موته جوابًا شافيًا يواجه به المؤمن هذه الفتنة بالفلسفة فيقمعها بالبرهان من علم الدين ونسوق هنا ما ورد من رأيه هذا في الحلقة الأخيرة من سيرته كما كتبها عبد الرحمن الشرقاوي في جريدة الأهرام في الثاني عشر من ذي الحجة سنة 1399 الموافق 2 من نوفمبر سنة 1979.. وذلك حيث يقول:

«على أن الإمام أحمد بن حنبل تدبر قبل موته رأيه في خلق القرآن، فذهب إلى أن من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر، ومن زعم أنه غير مخلوق فهو مبتدع. فالقرآن بحروفه ومعانيه هو كلام الله غير مخلوق، وهو من علم الله، وعلمه غير خلقه. فالقرآن غير مخلوق، ولكنه حادث بحدوث التكلم عن الله».

وهذا الجواب من الفقيه المجاهد أحمد بن حنبل يقترب من الصواب ولكنه لا يجليه، ولا يبلغ القول الفصل فيه، ولولا أن الجواب عن هذه «الشبهة» وهي واحدة من آلاف الشبهات التي افتعلها أعداء الإسلام والمتفلسفين فيه لشغل وتفريق المسلمين – ليس من أهداف هذا الكتاب، الذي نتعرض به في مستهل صحوة المسلمين إلى التذكير وشد الأواصر إلى

المقومات والأصول الإسلامية، وليس الجدل المتفرع عن هذه الأصول.. لولا هذا لكتبنا فصلا قائمًا بذاته لاختراق وساوس هذا التحدي الفلسفي بالتنوير على جميع الجوانب التي تنتشر منها ظلال باطله، ليبطل هذا الكيد، ويزهق هذا الباطل.

ونكتفي هنا بإيجاز أساس النظرة الصحيحة لتطويق هذه الشبهة، وتحديد وجهة الجواب الكاشف لها ببرهان علم الدين، بما يفتح الطريق بغير تأويل، وبغير تفلسف، إلى مزيد من العلم بهذا الفضل العظيم لله حين تنزل وحيه بهذا الكتاب - الذي أنبأ عن حفظه - على رسول الله هو أفضل الرسل وخاتمهم، وبلسان هو أفضل الألسنة وأبقاها، وذلك حتى يبقى ذكر الله الواحد به، ويبقى نوره، ومعها برهان الدين الحق، والإسلام الخالص، ما بقيت الحياة.

البداية في هذا الجواب الموجز أننا عندما نصف القرآن الكريم بوجه عام من جهة أنه كلام الله الذي ينطق به الإنسان نقول إنه «كلام الخالق بلسان المخلوق».. فهل معنى هذا كما قصد المعتزلة بتفلسفهم وقصور إدراكهم، وعجمتهم، أنه «كلام الله الخالق خلقه بلسان المخلوق حتى ينطق به»؟

إن المعنى الواضح، والميسر لذوي العقول، ينقض هذا الفهم المبتذل، كما ينقض أن يتصور أحد الحمقى أن العصا المخلوقة بيد موسى هي مصدر الآيات التي أيده الله بها وليست «قدرة الله» التي هي صفة من صفات ذاته الخالقة، المسيطرة على العصا المخلوقة، وكما ينقض أن

يتصور أحمق آخر أن يد المسيح المخلوق وكلماته هي التي أحيت الموتى، وصنع الآيات، وليست «قدرة الله» الذي هو وحده المحيي، وإن كان من طريق رسول الله مخلوق من عباده هو المسيح عليه السلام.

فكلام الله في القرآن الكريم هو من علم الله الأزلي الذي لا يعرض له الخلق، وقد أنزله بالآية الكبرى من آياته على خاتم رسله بمشيئته، أي بأمره الذي هو من صفات ذاته كذلك فلا يعرض لها الخلق، وقد أنزل سبحانه هذا العلم، بهذه المشيئة، بلسان الإنسان الذي قضى أن يهديه إليه، حتى يهتدي به، دون أن يكون هو كلام الإنسان، وإن أخذ هيأته وصوته، بل هو كلام الله.

يقول الله في بيان هذا الحق: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ «أول سورة الرحمن»

معنى «علم القرآن» أن هذا الكتاب من علم الله الأزلي، وأنه سابق لخلق الإنسان في ترتيب هذه الآيات، وأن الله عندما قضى وساء أن يخلق الإنسان قضى وشاء

ومرة أخرى نقول إن نزول هذا القرآن بلسان البشر بلسان عربي مبين ليهتدوا به لا يعني أبدًا أن الله «خلق علمه» بلسان المخلوق، فكان هذا القرآن «المخلوق» بلسان عربي مبين، نشير إلى ما هو معلوم من أن الله الرحمن أنزل هذا القرآن علمًا من علمه، ونورًا من نوره، وبمشيئته وأمره،

فوق مستوى أن يأتي الخلق بمثله – إنسًا أو جنًا – مهما كان بيانهم، ومهما كان اللسان لسانهم، وقد كان هذا النور الباهر لتجلي علم الله ونوره ورحمته في القرآن هو أول ما أضاءت به عقول أئمة البيان العربي «المخلوق» من شيوخ قريش، الذين غمرهم وهم يرهفون السمع إليه، إشراق الله عليهم فيه، على آفاق حروفه، ومثانيه، وكلماته، بغير حدود لعلمه، ولا توقف لمشيئته، ولا أفوق لنوره.

إذن فكلام الله في القرآن الكريم كما يتجلى الله به فيه ليس «مخلوقا»، وإن ظهر بهيئة أصوات المخلوقين، كما أن إحياء الموتى بكلمات عيسى ابن مريم كان بقدرة الله المحيي، وإن ظهر في أعقاب كلمات المسيح. وفي بيان هذا المعنى وتأكيده، وهو أن الله يتجلى بعلمه ومشيئته في القرآن الكريم من خلال أصوات وكلمات ينطق بمثلها بعض البشر يقول تعالى عن تأثير هذا القرآن بتجلي الله في على قلوب المؤمنين المقتربين إليه باللسان العربي المبين:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: آية 21]

﴿قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف:143]

ويقول الله تعالى أيضًا وهو يصف كلامه في القرآن الكريم بما لا يكون إلى من تجليه بصفاته فيه، حتى وإن كان منطوقًا بلسان المخلوقين:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر:23].

فكيف يكون هذا القرآن أن يستمع المتدبرون له وكأن الله يتجلى من خلاله عليهم، فتسجد قلوبهم للذكر، وتقشعر جلودهم من خشية غضبه.. كيف يكون كلامًا مخلوقا، حتى وإن نطقوا به بألسنتهم؟!

من أجل ذلك علم الله البيان لهذه الأمة من العرب، مصطفيا إياهم في حياتهم القاسية بجزيرتهم لهذه النعمة الوافرة، وهي نعمة البيان التي لا يضلون بها التمييز بين كلامهم المخلوق دون كلام الله، وبين كلام الله الأزلي بعلمه، ومن علمه، وبمشيئته، حتى وإن نطقوا بلسانهم به أو بعبارة أدق: حتى وإن عبروا من هيئة كلامهم المخلوق إلى علم الله وأمره ونوره في «كلام الله» وهو يتجلى عليهم به في كتابه.

نعم.. ومن أجل ذلك أيضا، وبعد حياة إبراهيم وإسماعيل وإقامة بيت الله في مكة، نزل هذا القرآن على خاتم النبيين والمرسلين، إلى هؤلاء الذين أقام الله لهم المسجد الحرام في مركز القلب السليم النابض في قلب العالم، ليكون المنارة المرفوعة للبشر بالدعوة للهدى في قلب جزيرة العرب، بعد أن بسط لهم من الرزق المقترن بالحركة الدائبة في الرعي والتجارة، بما جمع لهم به من تكامل الحق والعلم في لغة الدنيا والدين. وهم يعقلون بها البرهان على رب العالمين، واليقين يوم الحساب والدين.

لقد أنزل الله هذا القرآن وهو من علمه الذي لا ينتهي، ومن نوره الذي لا يأفل، على هؤلاء المعربين المستبينين، الذين قضوا حول بيت الله بعد إبراهيم وإسماعيل نحو خمسة وعشرين قرنًا، ينمون البيان في

ألسنتهم، ويصححون العقل في عقولهم، باتساق المرئي والمسموع في رؤيتهم، وتكامل الدلالة على الدنيوي والأخروي معًا في معانيهم، وبذلك صحت لهم هذه النعم التي لم تصح لغيرهم، والتي تمت بها نعمة اصطفائهم لأمانة هذا الدين والدعوة له على من سواهم.

لقد صحت لهم أولا نعمة «الحرية».. حرية الإرادة وحرية التعبير.. وإلا فبغير هذه الحرية كيف يؤمن بالله، ليكون عبدًا صالحًا لله، من سبقت عليه العبودية لسواه؟!

ولقد صحت لهم بهذه الحرية ثانيًا نعمة «الحركة في هذا البداء المضيء» الذي فتحه الله بسماواته وآفاقه ليسيروا فيه وراء الماء والرعي، ومع الطرق والتجارة، ويتفكروا، وليعقلوا هذا الاتساق في الخلق بغير تفاوت أو فطور.. وينتبهوا.

ولقد صحت لهم بنعمة هذه الحركة الحرة، ومع طول التفكير في خلق السماوات والأرض، نعمة هذا البرهان المشرق على الله الواحد الأحد، الرحمن الرحيم الذي عرفوه فوق معرفة غيرهم، وقبل معرفة غيرهم، باسمه وصفاته، بعد أن صحت فطرتهم السوية بكل هذه النعم إليه، فآمن المهتدون برسله، وسجدوا له.

وعندما تكاملت لهم مع هذه النعم نعمة البيان العربي السوي في مشرق بعثة النبي الكريم، خاتم النبيين، وأفضل المرسلين، وتم أمر الله الرحمن بأن «يعلم البيان» لهم بعد أن قضى بأن «يعلم القرآن» للإنسان، نزل الوحي بكلام الله على رسول الله، بهذا اللسان العربي المبين، على هؤلاء الذين تكاملت فيهم نعمه، وعلى رأسها بيانهم عنه، وبرهانهم عليه، وحبهم وعبوديتهم له، فأقبلوا على الله بإقبالهم على كلامه، يستمعون إليه وهو على هيئة كلامهم، ولكنه ليس من كلامهم، ليعبروا من هيئة

كلامهم القابل للتغير إلى ما يتجلى الله به في كلامه – الذي ليس من كلامهم – من علمه ونوره، ومن نذيره وبشيره، حاملا في ترتيله وتفصيله مالا يتغير من صفات الله، ومالا شبيه له في خلق الله، وما لا قدرة على مثله لأحد سواه.. وبذلك سجد له المؤمنون الذين تدبروا كلامه باللسان العربي المبين، خاشعين مخبتين، وأخبتوا له صادقين مصدقين، وهم يعبرون من كلامهم إلى كلامه بهذا المدخل الكريم الذي فتحه الله بينهم وبين آيته العظمى وهو «بسم الله الرحمن الرحيم» أي إنه ما من مؤمن متدبر خاضع مستبين ينطق بكلام الله إلا مأذونًا بهذا النطق «باسم الله» لأن كلامه في القرآن الكريم ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام الله، الذي يتجلى الله فيه بعلمه وأزليته، وبنوره ورحمته، وبمشيئته وصفاته، على المؤمنين المبينين من عباده.

فأين هذه النعم من الحرية والحركة، ومن العقل والبرهان، ومن البيان والإيمان، كما أتم الله بها نعمته بتمام نزول القرآن على قوم الرسول، وما كان بعدها من خروجهم بهذه النعمة على الناس، إشراقًا بالحق المبين، ورحمة للعالمين.. أين هذه النعم من مذلات.. ومهانات.. وفلسفات المعتزلة وأشباههم، حتى يقولوا في القرآن الكريم بالقول الحق، بعد أن أهلكتهم العجمة، وأثقلتهم الخطايا، ومسختهم العبوديات لغير الله، فأتموا هذا الإثم الذي لحقوا فيه باليهود عندما تفلسفوا فحرقوا فيما نزل من الله إليهم: وعندما تفلسف الكافرون منهم في «المدينة» فلغوا في القرآن الذي أبطل الله كيدهم به، وأخزى باطلهم من بعده.

كذلك فقد لحق بالمعتزلة وفتنتهم الأعجمية، وبالمارقين من اليهود وفتنتهم العنصرية الصهيونية، كثيرون ممن لعبت بأمانيهم الأهواء، وسيطرت على أهوائهم الجهالات والعداوات، فقالوا في القرآن الكريم –

حتى بين متفلسفة المسلمين – ما مسخهم الله به، بعد أن أغراهم عليه طول تخلف المسلمين وتفرقهم من حوله، وبعد أن نشطت في هذا العصر – ومعها أدوات تدميرها وتدمير العالم – هذه الفلسفات المذهبية من الشيوعية الإلحادية إلى الرأسمالية اللادينية، وطمعها في القضاء المبرم على الإسلام والمسلمين، ابتداء من العرب وقرآن الله المبين، فلغوا بمستشرقيهم في هذا الكتاب الكريم.

ولكن ليتهم يعلمون حين يصحو المسلمون – وقد صحوا – إلى هذا القرآن المبين.. أن أعداء القرآن والإسلام والدين في الأذلين.. وأن هؤلاء وقد ظلموا سيرون عاجلا أي منقلب ينقلبون، بينما يبلغ المسلمون بصحوتهم علم اليقين، وحق اليقين، وأمن المؤمنين، ونصر المجاهدين، إن شاء الله رب العالمين، إذا ما ذكروا لسانهم العربي المبين، الذي يتدبرون به القرآن، ويقبلون معه على الإيمان كما جاء في قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:193- 195].

نعم.. بلسان عربي مبين.. حيث يتجلى الله من آفاق كمال حروفه وكلماته هدى للمؤمنين، ورحمة للعالمين.



الفصل الثاني

الإمام الشافعي والمنهج القرآني

وأضواء على العجمة والشتات الغنوصي



في هذا الفصل نعود فنشير مرة أخرى إلى ما سبق أن ذكرناه في الفصل الخامس من القسم الثاني عن العلم في لغة القرآن فنقول إن الإنسان منذ أظهره الله على هذه الأرض يتحرك باتجاه المجهول المعلوم على طريقين: الصحيح والفطري منهما وهو الاستهداء إلى الله الحق بالبرهان الحسي عليه دون الإحاطة به، والباطل منهما وهو الفتنة بإمكان الإحاطة بغيب الخالق، وتصور القدرة على استحضاره بذاته وإزالة كل الحجب عنه.

أما أهل الفطرة السوية، والدين الحق، الذين يتحركون بعقلهم المفتوح ليتدبروا آيات الله في الواقع الحي، والمضيء، والمتحرك من حولهم، وهو الواقع الذي يشهد باتساق متغيراته، وتكامل إيقاعه، على وحدانية الخالق المدبر، والحكيم العليم، فهؤلاء قد عقلوا أن العلم الكاشف للحقيقة، والمضيء لما وراء الغيب؛ هو علم يبقى محدودًا بما ينفع الإنسان في حدود قدرته على تخطي عقبات ابتلائه بأمانة الدين فوق هذه الأرض. إنه علم ينفع الله المؤمنين به، وقد أتاحه سبحانه لكل البشر ليظهر لهم وراء تطلع حواسهم وعقولهم حاملا إليهم حكمة الله في خلقهم، **واضحة وجلية لعقولهم في دلالتين:**

* الأولى حين يظهر هذا العلم بالمشهود من الخلق مرتبطًا بما يصلح الإنسان في سعيه وعيشه، وتثبيت رؤيته، ودعم أمنه وسلامه بدنًا وعقلا. وذلك حيث تظهر هذه الأرض وما عليها وما حولها مسخرة برحمة الله للإنسان، ليهتدي بها إليه، ولتكون موضع امتحانه في دنياه بعمله.

** وأما الدلالة الأخرى فتتجرد بها الحقيقة العلمية من ظروف الإنسان الموجبة لأمنه واستقراره لتتحرك معبرة له عن حركة الخلق المحيط به في مجموعه وإلى غايته، منبئة بقدر ما يدرك من قوانينها عن بعض ما

يتبدى له من حكمة الله بهذا الخلق، وهو ينطلق إلى غايته في علم الله.. ومعه الإنسان.

إن العلم بما وراء هذه الحقيقة المشهودة، وهو العلم المحدود بقدرة الإنسان المخلوق تجاه الله الخالق، يجمع بهاتين الدلالتين طرفي الحقيقة العلمية المتاحة له في صدق دلالتها على الله الحق، وهما الطرفان المتكاملان في إشارتهما الدائمة إلى الزائل والدائم، والدنيوي والأخروي، والبشري والإلهي.. في حياة الإنسان.

وهكذا.. بهاتين الدلالتين معًا تكلم القرآن الكريم إلى الإنسان عن الأرض التي بسطها الله له، وجعلها بالهدوء والسكون الظاهرين له - فوق غيب حركتها ودورانها حول الشمس - قرارًا مستقرًا لحركته ودورانه.. كما تكلم القرآن إليه مرة أخرى عن هذه الدلالة الأخرى على العلم، وهو يبين له من قدرة الله وحكمته البعيدة في الخلق، كيف جعل الأرض كروية، ومتحركة، وهي تسبح في فلكها مع الشمس والقمر إلى مستقر لها وغاية محققة في حكمة الله.

يقول الله سبحانه للإنسان وهو يجعل مدخل علمه به أن يدرك بعقله وفطرته مدى رحمته به:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: 19].

ويقول تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: 18].

ويقول سبحانه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾[الحجر: 19].

فصورة الأرض المبسوطة، والممتدة، والمفروشة الممهدة، والمستقرة بالرواسي فهي غير مهتزة ولا قلقة، هي حقيقة علمية نسبية، يرى بها

الإنسان نفسه بمشيئة الله ورحمته، أنه يتحرك بحواسه المطمئنة فوق الممتد الساكن والمنبسط أمامه من هذه الأرض، بما يصلح قرارًا لعيشه وسعيه وأمنه ولو أن هذا الإنسان رأى هذه الأرض – منذ كان إلى اليوم – كرة دائرة، يتسلق جوانبها وهي تسرع به راكضة في الفضاء. في حين تثقب أذنيه، وتروع قلبه، زلزلة هذه الانفجارات البركانية في باطن الأرض، والهيدروجينية في أعماق الشمس، إذا لم يكن الخالق الحكيم الرحيم قد ضبط قدرة سمعه، وامتداد رؤيته، حتى لا يبلغ إلى حواسه ما يروعه من تحت أقدامه، أو من فوق رأسه – فكيف كان من المحتمل أن يكون هذا الإنسان إنسانًا يعيش، ويأنس بمن معه، ويعمر لنفسه ولمن يجيئ من بعده؟.. كيف.. لو أنه وجد نفسه في غير هذه الحصانة من دلالات علم الرحمة به، يحاول تثبيت أقدامه على هذه القذيفة الكوكبية الوعرة، التي تدور به حول الشمس، في حين هما يدوران معًا، مع عدد كبير من الكواكب والشموس حول مركز ثابت في مجرة، تدور بدورها في نظام وإلى غاية مع عدد لا حصر له من المجرات!؟

يقول الله سبحانه بعد نعمته ببسط الأرض مذكرًا لهذا الإنسان بنعمته الأخرى في كروية الأرض وحركتها، ليمد بصره وسمعه وعقله إلى الغاية من حكم خلقه، وإلى الحياة الأخرى بعد موته:

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: 30].

ويقول سبحانه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: 5] ومعنى هذا أن الأرض لو كانت مبسوطة – في غير علم الرحمة بالإنسان – لسقطت أشعة الشمس عليها مرة واحدة في نهار واحد لا يطاق بغير ليل يسكن فيه، وينشط إلى نشور السعي من بعده.

ويقول سبحانه في حركة هذه الأرض: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النمل: 15].. وكيف تميد الأرض إن لم تكن تتحرك، بل وتسرع في الحركة؟!

ويقول سبحانه في دوران الأرض في فلك مع الشمس والقمر: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40].

ويقول سبحانه عن حركة الشمس وما حولها إلى مستقر لها بعد غاية بعيدة: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38].

كيف إذن بغير هذا التكامل بين طرفي الدنيوي والأخروي، والزائل والدائم، يتاح للإنسان – إلا في عالم الوهم الباطني، والتفلسف الظني، والتغالب الجدلي السفسطي، والبيات العقلي والفطري – أني يرى الله الحق، والبرهان عليه بعلم الدين الحق، ظاهرًا وجليًا وراء المرئي والمسموع بين آفاق هذا الخلق؟

الشافعي والمنهج العلمي:

على أن الوقت لم يطل بعد مشرق عصر الرسول، ونور القرآن، والأسوة الحسنة، حتى أشرق امتداداً من هذا النور عصر مواجهة الفلسفة التي تسربت من مظانها لتغزو فكر المسلمين السوي، ومنهجهم العقلي والعلمي السليم، وذلك حين ظهر الإمام الفقيه محمد بن إدريس الشافعي القرشي المولود سنة 150 هجرية، والمتوفى سنة 240، ليقنن ويسجل في «رسالته» أول الأسس لمنهج الأصوليين الذي يهدم بأصوله العلمية كل تجريدات ومتاهات المنطق الفلسفي الأرسطاليسي، مع الكشف عن هذه

المناقضة العقلية التي تسببت في هذا التناقض بين اليقين العلمي بالمنهج الإسلامي، وبين التيه الظني في المنطق اليوناني، وبذلك دبت حياة جديدة للعلم والصدق في حياة المسلمين باتجاه العالم، لتأكيد وحدتهم، وألفة قلوبهم وعقولهم، حول مصادر عقيدتهم الصحيحة في القرآن والسنة.

لقد بدأ الشافعي في رفض الفكر اليوناني الفلسفي لأنه يعتمد أساسًا على خصائص اللغة اليونانية، التي تختلف كثيرًا – وبالتناقض في الغايات الحيوية والسلوك الأخلاقي – مع خصائص اللغة العربية واتجاه معانيها الحيوي والأخلاقي، فكان لابد وأن يكون منهج التفكير الصادر عن إحداهما مخالفًا ومتعارضًا مع المنهج الصادر عن اللغة الأخرى.

وهكذا كان علم الأصول الذي أعاد الشافعي صياغته وتقنينه في منهج عام، هو الموقف الذي يتجاوز في منهج العقل العربي الإسلامي، عتبة الرفض للباطل الفلسفي اليوناني، وغيره، إلى الرحبة الواسعة التي تقوم على أرضها قواعد المنهج القرآني العلمي في التفكير، وهو المنهج الذي تعلمت منه أوروبا نفسها في فجر خروجها من ظلمات عصور جاهليتها الفلسفية التجريدية، الميتافيزيقية، لتتعلم منه طرق البحث التفصيلية، ومناهج العلم الدقيقة، ووسائل جمع المعرفة ببراهينها المحسة، وطرقها التجريبية، كما طلعت عليها الحضارة العربية الإسلامية بهذا الفجر، لتنهض أمام الإشعاع الباهر لهذه الحضارة العلمية والأخلاقية في كتبها العربية، وفي أخبارها وعلومها التي وصلت إليها عبر الأندلس، وقبرص، وجنوب إيطاليا، ومن ألمانيا وبولندا وانجلترا.

المنطق الأرسطي:

عاش الشافعي وهو يكتب ويعلم ويكشف عن زيغ المنطق الأرسطاليسي الفلسفي عن الواقع، ويهاجمه إلى حد التحريم، وهو يعلل

ذلك كما ذكرنا بهذا التناقض في التكوين اللغوي بين اللغة اليونانية في تراكيبها الغروية الجامدة وبين خصائص اللغة العربية الحية بإيقاعها واشتقاقاتها، مما يؤدي في حال تطبيق المنطق الفلسفي اليوناني على معاني واتجاهات وغايات اللغة العربية إلى الكثير من التناقض كما حدث فيما بعد.

يقول الدكتور علي سامي النشار في كتابه: «مناهج البحث عند مفكري الإسلام»:

«بدأ مزج المنطق الأرسطي بعلم الكلام والعلوم الإسلامية على العموم في أواخر القرن الخامس الهجري على أيدي المتأخرين من المتكلمين، غير أنه ينبغي أن نلاحظ أن هذا المزج لم يحدث على يد مفكر من المعتزلة، بل بواسطة متكلم أهل السنة المشهور أبي حامد الغزالي»!

ثم يقول: «والعلة التي دفعت المتكلمين إلى عدم قبول المنطق الأرسطي هي أنهم لم يقبلوا ميتافيزيقا أرسطو فكان من البديهي ألا يقبلوا منهاج البحث الذي استندت إليه هذه الميتافيزيقا».

ثم يقول في نفس المصدر عن منهج الأصوليين كما قننه الشافعي:

«هو في الحقيقة منهج من مناهج البحث العلمي الذي وضعه الأصوليون لكي يسيروا عليه في أبحاثهم، وكانت أميز صفاته خلوه من مباحث الميتافيزيقا – أي مباحث ما وراء الطبيعة – التي جعلت فكر أرسطو هو علم الفكرة المجردة، وبذلك أصبح المنطق الأصولي منطقًا عمليًا يتفق مع الحاجة الإنسانية العملية، وينقسم إلى مبحثين: الأول مبحث الحد، والآخر مبحث الاستدلالات».

ثم يقول: «إن الأصوليين اعتبروا قياس الغائب على الشاهد موصلا إلى اليقين، بينما لا يفيد التمثيل الأرسطي إلا الظن»!

ثم يقول: «وهكذا استقام المنهج العلمي الإسلامي عند الأصوليين على نوع من الاستقراء العلمي على قانونين: الأول – لكل معلوم علة، والثاني قانون الاطراد في وقوع الحوادث».. أي أن تعميم الظواهر في وقوع الحوادث يجعل من اطرادها بغير استثناء قانونًا علميًا..».

وأخيرًا يمكن تلخيص أساس هذا المنهج الأصولي الإسلامي في قول الشافعي – الذي كان يعرف إلى العربية الفصحى لسان اليونان- : «ما جهل الناس واختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو».. فكأن الشافعي هنا يكشف عن العلاقة العضوية بين اللغة ومنهج التفكير..

ويعلق السيوطي على قول الشافعي بمشاركته هذا الرأي حيث يقول – كما ورد من الاستشهاد به في كتاب الدكتور علي سامي النشار الذي ننقل عنه هذه الشواهد:

«إن فتنة خلق القرآن سببها الجهل بالعربية، وبالبلاغة الموضوعية فيها، من المعاني والبيان البديع، والجامع لجميع ذلك لسان العرب الجاري عليه نصوص القرآن والسنة».

أهلكتهم العجمة:

هذا البعد والتباعد من العرب عن لسانهم، مع تطاول العصور عليهم بمتغيرات الزمن، ومع تعاقب القصور عن رعاية لغتهم إذ هم في قبضة الضعف، وتفرق الكلمة.. هذا البعد عن اللغة الفصحى بالعجمة الطارئة على العرب، والناشئة من غير العرب – هو الذي اختلطت واستعجمت بسببه

المعاني والركائز الصحيحة لحقائق الإسلام، وتدبر القرآن، مما انتقضت بسببه أواصر الألفة على الحق، ووشائج الوحدة به، بين عامة المسلمين، حتى أصبحوا فرقًا وشيعًا، أقرب إلى الهوى وأدنى إلى الابتداع، مما أسلس قيادهم إلى هوى أنفسهم، وإلى عدوهم المستهين بهم من حولهم.

ولقد انتبه عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى بداية مخاطر العجمة والاستعجام على العرب من أهل الفصحى والتقوى في مطلع خروجهم بالإسلام وأسوته إلى الأمصار المحيطة بهم، والتي استعجمت مع أصولها العربية تحت الحكم الطويل للأكاسرة والقياصرة، فكان من أول ما كتبه من وصاياه إلى أمراء الأمصار عندما تولى أمر الخلافة بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هذه الوصية التي يحذرهم فيها من خطر تسرب العجمة بلسانهم، ومنهج تفكيرها وسلوكها وابتداعها إلى ألسنة العرب، داعيًا إلى مواجهة هذا الخطر على المسلمين ودعوتهم قبل أن يعم، وذلك كما جاء في كتاب «تاريخ الأمم الإسلامية» للشيخ العالم محمد الحضري أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية، في محاضرته عن حياة الخليفة الثالث عثمان:

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه في كتابه إلى أمراء الأمصار:

«أما بعد فإنما بلغتم بالاقتداء والإتباع، فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم، تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا، أو ابتدعوا».

وهكذا عندما قرأ الأعراب القرآن والتزموا به، ابتدعوا برأيهم أن يفرضوا ما فهموه على الناس بقوة السيف، وليس كما أمر الله، وكما

كان عليه رسوله، من الدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن هذا الابتداع كانت فتنة الخوارج التي اهتز بها صرح المسلمين.

وعندما قرأ الأعاجم القرآن فاستبهم محكمه عليهم، وارتفع برهانه عن ألسنتهم، تكلفوا الفهم، فلما لم يطيقوه ابتدعوا، فكان التأويل والتعطيل، والظاهر والباطن.

ولقد ظل هذا الاستعجام بوجهيه بين العرب والأعاجم ينخر في أساس معتقدات المسلمين، ودعائم صرحهم الحضاري الإنساني، دون أن ينال الباطل بالعجمة من الحق بالفصحى، طالما بقيت في حكمة الله وحفظه حجة هذا القرآن الكريم، في نوره الخاتم الدائم، ولسانه العربي المبين. وطالما - كما نشهد على مر العصور بعد مشرق الإسلام في آفاق الجزيرة العربية - كتب الله النجاة لمن يتدبرون القرآن بلسانه، ومن يهتدون إلى صالح العمل والجهاد به، كما جعل الفرقة والتهلكة لمن تخلوا عن بيانه فاستعجموا، وابتدعوا، وفي هذا المعنى - كما جاء في حديث الرسول الكريم - يقرر الفقيه البار الحسن البصري، المتوفى سنة 110 هجرية قبل مولد الشافعي - عن مثل هؤلاء الهالكين قوله: «إنما أهلكتهم العجمة».. وهو مما أخرجه البخاري في تاريخه الكبير عن الحسن البصري.

الغزالي وابن عربي:

ودون أن نناقش آراء الغزالي، أو ابن عربي، سنكتفي بوضعهما تحت المظلة الواقية لهما من تحمل مسئولية الشطح في أقوالهما الغريبة في الدين، ومع تأكيد فاعلية هذه العوامل التي ساقتهما - ومن على شاكلتهما - نحو هذه الأخطاء والشطحات في تيه الابتداع العفوي، ونحو السراب الفلسفي، وهي عوامل العجمة الثلاثية الأبعاد: عجمة الانتماء.. والعجمة بالدراسة.. والعجمة في مناخ المجتمع الذي عاصروه.

أما عن الغزالي من جهة أثر الفلسفة والمنطق الأرسطي عليه فيقول عنه الفقيه أبو عبد الله المازري: «قرأ الغزالي علم الفلسفة قبل استبحاره في علم الأصول، فأكسبته قراءة الفلسفة جراءة على المعاني. وتسهيلا للهجوم على الحقائق، لأن الفلاسفة تمر مع خواطرها، وليس لها حكم شرع يزعها، ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها».

كذلك أشار المازري إلى ضعف أكثر ما في كتاب (الإحياء» للغزالي من الأحاديث النبوية وقال في ذلك: «عادة المتورعين أن لا يقولوا: قال مالك، وقال الشافعي، فيما لم يثبت عندهم» ثم أشار المازري إلى أن الغزالي كان يستحين أشياء فيبنها على ما لا حقيقة له.

أما من جهة أثر العجمة وضعف اللغة العربية في شتات أكثر الأعمال الفكرية في حياة الغزالي وكتبه، فقد ثبت أن معاصري الغزالي عابوا عليه أخطاءه اللغوية والنحوية، وأرجعوا ذلك إلى انتمائه الأعجمي الذي جعل من المشقة عليه أن يلم بدقائق اللغة والنحو. وقد كان الغزالي والموالون له يعرفون هذا القصور الظاهر في كتبه فدافعوا عنه بالدفاع الفلسفي الذي لا يحسنون سواه وهو قولهم إنه كان يحفل بالمعنى ولا يبالي باللفظ!

وهكذا – بغير علم – فصل محبوه بين اللفظ والمعنى، والعضو والوظيفة وهكذا بقيت فلسفة الغزالي على أنها شطحات، وإن برئ الغزالي على الأغلب من سوء القصد، أو افتعال القصور، في الوقت الذي ألهمته فطرته – دون أن يدري – أن يعيب تهافته بهذه الشطحات الفلسفية المستعجمة، فكتب وكأنما يدين نفسه، وشطحات عجمته – كتابه المعروف «تهافت الفلاسفة» الذي كان يرد به على شطحات فيلسوف آخر في أقصى الغرب هو «ابن رشد»..!!

كذلك فإن الغزالي، الذي عانى ولا شك من دوران الكثير من الآراء والمناهج المتناقضة في فكره، وفي كتبه، قد رد على نفسه مرة أخرى في كتابه الشهير «فضائح الباطنية» وقد أراد به كما جاء في مقدمة هذا الكتاب للدكتور عبد الرحمن بدوي: مواجهة استفحال الدعوى الباطنية، وتكاثر الدعاة الإسماعيلية إلى الفاطميين، وخطر ذلك على العقيدة الإسلامية، كما أنه أراد به بيان فضائل الخليفة العباسي المستظهر بالله، الذي كتب الغزالي هذا الكتاب بدعوة منه.

وأخيرًا – عن الغزالي المولود سنة 480 هجرية – فإن الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة والعميد السابق لدار العلوم يقدم هذا التصور عن «الحيرات الذهنية» في رأس الفيلسوف الفارسي أبو حامد الغزالي فيقول عنه في رسالة له عنه باسمه أصدرها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ما يأتي:

«أحيانًا نجد الغزالي محقرًا لشأن العقل، مفضلا للذوق الصوفي، وأحيانًا نراه يقسو في مهاجمة التقليد والمقلدين على اختلاف طوائفهم، أو يحتكم إلى العقل حتى في شدة حماسته لأهل التصوف، وقد نجده معرضًا عن الذوق الصوفي والعقل معًا ليمجد نوعًا خاصًا من التقليد..!!

وأما عن ابن عربي الذي برز بين طوفان الجماعات الباطنية – التي كشف الغزالي بعض أمرها – وهي تتدفق من المشرق إلى المغرب العربي، والذي لزم الباطنية في صباه تحت هذا العنوان المباح «التصوف» فإنه في تجواله غير المحدد ما بين أشبيلية التي تعلم بها، ومراكش وفارس، وتونس ومكة، وبغداد والموصل، وفي مصر أيضًا، لم يسلم من استنكار أكثر هذه الأمصار لهذه الجرأة – غير الواعية – على كتاب الله، وعلى ما زعمه من منهجه البالغ الابتداع والتهوس في تفسيره. وفي مصر اتهمه أهل السنة

بها بالزندقة، فلم يملك الحاكم الفاطمي – مع مشاركته في الهوى الباطني – إلا أن يحبسه فترة لإرضاء المصريين، ثم عاد فأطلق سراحه، حيث انتقل خلال هذا التجوال المريب العجيب – فيما بين القرن السادس الهجري وبداية القرن السابع – إلى قونية وأرمينية، ثم إلى دمشق حيث استقر به المقام..!

ونكتفي هنا دون التأثم بمتابعة هذا الشطح في مستغلقات «ابن عربي» الذي تتكر على ابتداعه الأعجمي بهذا الاسم العربي الذي لم يخدع به غير من هم في مثل قيود عقله، وأوزار خياله، واستعجام رؤيته – نكتفي بما أوجزه الدكتور محمود قاسم في كتابه «دراسات في الفلسفة الإسلامية» عن الرأي فيما زخرت به كتابات ابن عربي من فنون التعمية وأعراض الألغاز:

«وتمتاز كتابات ابن عربي بالألغاز والتعمية إلى أكبر حد، ومهما يكن من أمر الدوافع التي أملت عليه هذا الكتمان الشديد، فإن للمرء أن يتساءل: وما عسى أن ينتهي إليه الأمر إذا فتح باب التأويل للقرآن والكتب السماوية الأخرى على مصراعيه، بحيث يكون للتأويل تأويل، وهكذا دواليك، كما يشير ابن عربي في مواطن متفرقة من كتبه! وربما جال بخاطر المرء أن هذا التعليم «الإلهي» الذي اختص به الحق العارفين من عباده، قد يشعر بأن الوحي لم ينقطع بموت الرسول، بل لا يزال مستمرًا، وبأن الإلهام الصوفي لا يخضع لقاعدة دقيقة من الآيات الظاهرة التي لا تحتمل تأويلا. ومما يبرر هذا الخاطر أن ابن عربي يؤكد لنا أن كل آية من آيات الكتاب العزيز لها وجهان! أي أن القرآن بأسره هو موضوع للتأويل لدى أهل العرفان!!..».

الشتات الغنوصي:

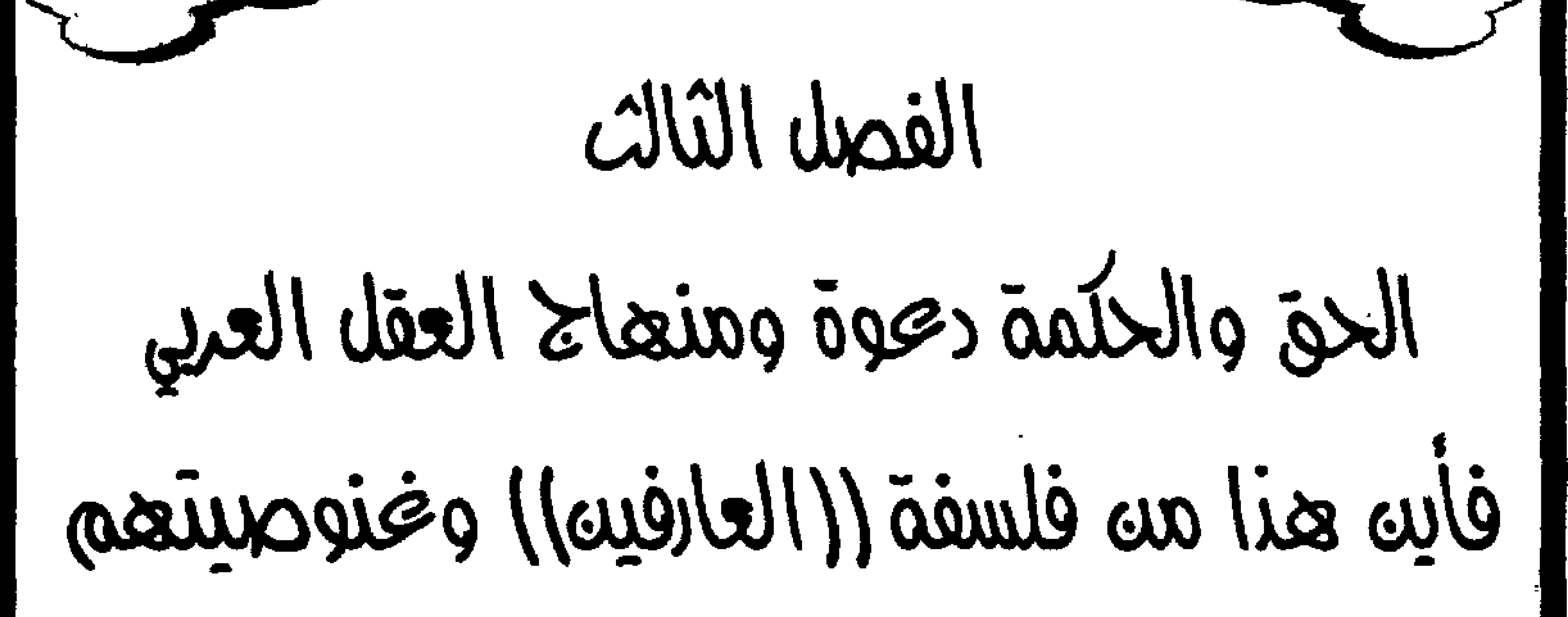
وهكذا امتد الشتات بالعجمة في كل اتجاه، ومع كل سراب، بعيدًا عن الدين الحق، وعن منابع الحكمة في هذا الدين الحق وشرعته ومنهاجه. وبدأ مع هذا الشتات بروز هذه الأنصاب للعلوم السرية والفلسفية في الدين تحمل بأسمائها الغريبة عن الإسلام واللغة العربية، أقنعتها التي لا تكاد تخفي جذورها في الفلسفات اليونانية، واللغات الأوروبية، مثل كلمة «الصوفية» التي لا تزال تعني عند المتصوفة معناها في اللفظ اليوناني القديم وهو Theosophia وفي الإنجليزية المعاصرة وهو Theosophy، أي المعرفة السرية والخاصة التي يتم بها الكشف عن ذات الله، وشهوده، والحلول أو توهم الفناء فيه. وهذه الكلمة كما ترى مركبة من كلمتين: Theo بمعنى إلهي عندهم نسبة إلى زيوس، وSophy بمعنى: معارف سرية باطنية. ومن هاتين اللكلمتين المركبتين معًا يأتي معنى كلمة ثيوصوفي أو ثيوصوفيا وهو كما تشرحه المعاجم الإنجليزية المعاصرة والمعتمدة مثل معجم أوكسفورد أو ملخصه: أن هذه الثيوصوفية إنما تعني: أية فلسفات قديمة أو حديثة تزعم الوصول إلى العلم الإلهي – نسبة إلى «ثيو» وليس الله الحق – أو المعرفة الإلهية، سواء أكان ذلك بالاستغراق الباطني الروحي، أو بالشهود والتلقي المباشر، أو بوسائل اتصال ذاتية خاصة»!!

استشرى إذن مرض حب «الثيوصوفية» بين جماعات من المسلمين في عصور التخلف، أي حب «المعارف السرية باتجاه توهم شهود الإلاه» تحت اسم «الصوفية) أو «التصوف»، حتى أصبح هذا الاسم الشائع شعارًا للخارجين تحته بالقديم والمستحدث من الفلسفات عن جادة الفهم السليم، والصراط المستقيم، في طاعة الله الحق بهدى المحكم من كتابه الكريم.

ثم لم تلبث هذه الفلسفات الثيوصوفية أو «التصوفية» وهي تمزق بشتات فهمها، وغرائب شطحاتها، وحدة المسلمين في بداية اختلاط الأمر عليهم، وتسرب العجمة بظنونها وأهوائها إلى مشاعرهم ومدركاتهم – لم تلبث أن بلغت حدًا من التعقيد، والتركيب، والغموض، والخفاء، وتعدد الأهداف أصبحت فيه لونًا جديدًا من التطرف والاستهتار ضد جميع الأديان، وبخاصة ضد المسلمين والمسيحيين. وكان من الضروري لها أن تلمس لها شعارًا فلسفيًا لقبابها السوداء، داخل قلاعها السرية المغلقة، تنتسب به إلى جدودها الخرافيين من فلاسفة اليونان، وبلغة ورموز وثنية اليونان. فكان اختيارهم هو للكلمة اليونانية Gnosis الدالة في نفس عالم الشطح المنفصم عن الحق والحكمة والواقع الحي – على «المعرفة الروحية السرية» ومن هذه الكلمة أخذوا اسم مذهبهم البالغ أقصى حدود التطرف بمعارفه السرية الشذوذية المغلقة ضد جميع الأديان السماوية وهو «الغنوضية» أو Gnosticism.

وهكذا بدأت أخطر مراحل الفرقة في الرأي، والتطرف مع الهوى، والطمس للعلم، والتستر على تنظيمات التفلسف والانشقاق والابتداع، حيث بدأ ظهور القلاع السرية لهؤلاء الغنوصيين Gnostics على مشارف الحدود بين الوطن العربي وبلاد فارس والروم، في مدن مثل جنديسابور في فارس، ومثل نصيبين والرها والرقة شمالي العراق وسورية، وحيث بدأ مع ظهور هذه المدن في أسوأ عصور الانقسام بين المسلمين في نهايات العصر العباسي الفارسي – تغلغل هذا النشاط الخطر والسري لهؤلاء «الغنوصيين» في تخليق وقيادة المذاهب الباطنية كالإسماعيلية والقرامطة والإمامية

وغيرها ، وبنفس النشاط عملوا على بث الفرقة والخلافات الهرطقية بين المسيحيين.. مستحلين ذلك وراء قناع الادعاء بأنهم «الغنوصيون».. هذا القناع الذي زعموا به أنهم «العارفون».. كما وصفوا أنفسهم بالصورة التي أغلقوها على كل ما يتناقض مع المعرفة والعلم.. وما لا يلتقي قط مع الحكمة والحق..!



الفصل الثالث

الحق والحكمة دعوة ومنهاج العقل العربي

فأين هذا من فلسفة ((العارفين)) وغنوصيتهم



العقل والحق:

في ضوء ما أوضحناه من قبل بالحجة والبرهان والشاهد من هذه الرابطة الإنسانية والعضوية والمعنوية والعلمية بين العقل والإيمان، نستكمل هذا الوضوح هنا بعرض هذه الرابطة المماثلة بين العقل العربي والحق، أي وإدراك الحق، وبين العقل العربي والحكمة، أي وبلوغ الحكمة والبلاغ عنها.. هذه الحكمة التي ظلموها، فزعموا أنها المقابل في العربية لكلمة «الفلسفة» في لغات الأوروبيين ومذاهبهم..!

في لغة العرب، وفي بين القرآن المبين، ما هو الحق.. وما هي الحكمة، حتى نرى كيف يمتد الفارق بينهما وبين الفلسفة إلى مثل ما بين الحياة والموت، وما بين النور والظلام.

الحق في اللغة العربي من أسماء الله تعالى. والحق القرآن. والحق ضد الباطل لأنه من عند الله، ولذلك فإن الحق يمضي بسلطان الله فوق كل العوائق والحجب وينتصر، بينما ينهار الباطل في كل مواجهة بينهما ويبطل.. كأن لم يكن.

والحق في اللغة العربية أيضًا هو الأمر المقضي، وهو الإسلام، والصدق والعدل. والحاقة هي النازلة التي تنزل وتقع على من حق ذلك عليهم بسبب مخالفتهم للحق، وتأكيدًا لما قضى الله به دائمًا من إزهاق الباطل.

والحق من معانيه كذلك اليقين. ومن ذلك فإن: تحقق تعني تيقن، وأحققت الأمر: أوجبته، وهو حقيق بهذا الأمر أي جدير به. والحقيقة ضد المجاز، والمحق ضد المبطل.

وأما هم شواهد هذه المعاني التي ترتبط كلها بالإيمان في رؤية العقل العربي وبيانه ودعوته فإننا نجد منها في القرآن الكريم ما يلي:

يأتي الحق في كتاب الله للدلالة على الله في قوله تعالى:

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [يونس: 32].

وتأتي كلمة الحق بمعنى القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[يونس: 94].

وتأتي كلمة الحق بمعنى الإسلام والدعوة إليه في مثل قوله تعالى:

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [التوبة: 29].

وتأتي كلمة الحق بمعنى الصدق في مثل قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: 144].

وفي مثل قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [آل عمران: 3].

وتأتي كلمة الحق بمعنى الأمر المقضي من الله في مثل قوله تعالى:

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 118].

وتأتي كلمة الحق بمعنى اليقين الذي تتلاشى في نوره متاهات الفلسفات الظنية، ومذاهبها الوضعية، في مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: 36].

هذا عن الحق في لغة الدين الحق، والعلم والصدق.. أي في لغة العقل العربي، ورؤيته، ودعوته وإدراكه.. فماذا عن الحكمة كما يبلغ إليها هذا العقل الذي حمل بمشيئة الله أمانة الدين، فلم يشغله بها الزائل عن الباقي، ولا الدنيوي عن الأخروي..؟

العقل والحكمة:

عن هذه الرابطة الإنسانية والعضوية، والمعنوية، والعلمية، بين العقل العربي والحكمة، أي بينه وبين بلوغها والبلاغ عنها، بمثل ما رأينا من ارتباطه بالحق وإدراكه، ورؤيته، نقول إن «الحكمة» تعني من معاني الحق، والدين الحق، في هذه اللغة العربية لسان القرآن المبين، أنها: العدل والعلم، والحلم، والنبوة، والقرآن والإنجيل.

ومن حيث أن «الحلم» معناه في اللغة: العقل مع الأناة به، والرجحان له، فإن الحكمة ومن معانيها «الحلم» تصبح هي العقل في أفضل حالاته وأقربها إلى الحق والدين.

والحكمة أيضا هي الحق الدائم الذي لا ينسخ، وهي الحجة القاطعة بهذا الحق وفصل الخطاب فيه.

و«الحكم» بالمصطلح الديني هو سلطان العقل المؤمن، المانع من التوهم والفساد، والناهي عنهما، وبذلك فهو فيما وهبه الله لأنبيائه ورسله قد انتهى بهم إلى الصلاح والحق، والسداد والرشد، في نور العقل والحكمة، وهدى الحق والإيمان.

ونأتي إلى شواهد القرآن الكريم على هذه المعاني الدقيقة للحكمة في اللغة العربية، فنذكر من قول الله تعالى عن الحكمة ما جاء من دعاء إبراهيم وإسماعيل برسول من ذريتهما ينزل عليه الكتاب والحكمة فنزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 129].

ويقول سبحانه عن الحكمة بمعنى الإنجيل إلى المسيح عليه السلام:

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: 110].

ويقول سبحانه عن الحكمة بمعنى العدل وهو يذكر نعمته على داود في طاعته وإنابته له:

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: 20].

ويقول سبحانه عن الحكمة بمعنى العلم والحكم وهما دلالتان على العقل في صحة الإيمان:

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269].

ويقول أيضًا:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125].

الحكمة غير الفلسفه:

بهذا البيان الجلي نقطع بأن الحكمة التي هي توءم الحق بمفهوم الدين الحق ليست هي بأي وجه من وجوهها هذه الفلسفة في أي مذهب من مذاهبها، وفي أي عصر من عصورها، كما تطاول الزعم بذلك منذ وجده المنشقون عن الدين الحق على طريق السراب والتيه بعجمة ألسنتهم مسرحًا لظنونهم وأوهامهم وأهوائهم في هذا «التفلسف» بأشكاله، سواء بمعنى Philosophy أي حب المعرفة السرية، أو بمعنى Theosophy أي المعرفة اللاهوتية السرية، أو Gnosticism بمعنى «المعرفة الروحية السرية».

وسواء أكان التضليل أو الضلال عن الصواب في نسبة هذه المذاهب الفلسفية بأنواعها إلى ما يقابل معاني كلمة «الحكمة» في اللغة العربية، وفي بيان القرآن الكريم، مما يرجع إلى محاولة التستر على خطايا الفلسفة وأوزارها بين من اقتحموا بها حرم الفكر الإسلامي، أو كان لاعتقاد هؤلاء المتفلسفين باللسان العربي، في عتام عجمة المعاني في ألسنتهم، أن هذه الفلسفة برغم كل عيوبها ونقائصها وتناقضاتها هي عندهم: الحكمة.. والطريق إلى الحق والدين – فلقد ثبت – وسيظل ثابتًا – بشهادة التاريخ والواقع، أن التخلف قرين التفلسف، من حيث أن جميع المذاهب الفلسفية لم تحقق منذ اليونان الأوائل أدنى قدر من العدل الاجتماعي، والتكافل الاقتصادي، والأمن النفسي لمن انقسموا وتصارعوا وتظالموا تحت شعاراتها، وتمويهاتها، وعدوانياتها، في غيبة الدين الحق، وانهيار مقوماته من اللغة والأخلاق ومنهج التفكير العلمي.

«الفلسفة الغنوسية» من الغنوسية ومعناها «المعرفة» واسمها مأخوذ من الكلمة اليونانية «جنوسس» وقد ميز (الغنوسيون» أنفسهم بهذا الاسم عن «المؤمنين»، وغالوا في رفع قيمة «المعرفة» والحط من قيمة (الإيمان». بأن وضعوا العقل فوق الإيمان، والفلسفة فوق الدين، وجعلوا الفكر الخالص رقيبا على الوحي، يستطيع أن يرفض منه بعض المعتقدات، وينكر المعجزات والأشياء الخارقة للطبيعة. واعتقدوا أن الإنسان يتكون من ثلاثة عناصر: روح ونفس وجسد، وقسموا الناس بحسب العنصر السائد فيهم إلى ثلاث طبقات:

(أ) الروحيين وهم الغنوسيون الذين رفعتهم المعرفة إلى مستوى عال فوق المادة والحس، ويسودهم العنصر الإلهي..

(ب) الجسدانيين وهم العوام الخاضعون لتأثير المادة والحس..

(ج) النفسانيين وهم متوسطون بين الاثنين، يمكن أن ترفعهم المعرفة إلى درجة الغنوسيين الروحيين، ويمكن أن تحدر بهم المادة إلى درجة الجسدانيين.

«وهكذا نرى أنهم حسبوا أنفسهم أرستقراطية عقلية قريبة من الله، وحطوا من قيمة المادة جسدًا واعتبروها شرًا، فسلك بعضهم طريقة صوفية تحاول السمو عن المادة والحس، كما انحدر بعضهم إلى الدعارة، زاعمين الانتصار على الحس بالانهماك فيه. وكان الغنوسيون في مصر من النوع الأول الناسك»..!! نقلا عن «تاريخ الحضارة المصرية» الجزء الثاني تأليف أمين الخولي وحسين مؤنس وغيرهما.

ونمضي قليلا في الاستدلال على تناقضات هذه الفلسفة الغنوصية السرية مع حقائق الدين الحق في القرآن والإنجيل والقرآن، وهي الفلسفة المدمرة التي انتهت إلى تقويض الدولة العباسية فلم تتركها بكل أوهامها وزعاماتها الفارسية ومخططاتها إلا حطاما تحت أقدام المغول – فنذكر من أنواع هذه الفلسفات السرية الهاذية فلسفة «إخوان الصفا»، الذين كان من روادهم الفيلسوف أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي اليهودي الأصل.

ونذكر من هؤلاء الغنوصيين من «إخوان الصفا» الذين ظهروا ما بين القرن الثالث الهجري والقرن الرابع – فيلسوفهم الشهير الفارابي الذي عاش في بلاط سيف الدولة في حلب، وهو من عائلة تركية مما وراء النهر، وقد تلقى علومه في بغداد في لحظات أفولها واحتضارها، ويرى الفارابي في واحدة من تناقضاته وهذياناته «أن القرآن صحيح... وأن الفلسفة صحيحة أيضا»!!

التناقضات الغنوصية مع الإسلام والمسيحية:

بمثل هذا التوهم في رفع الفلسفات من هاويتها المظلمة لتقابل «الحكمة» فوق قممها المنيرة، نشطت مزاعم الغنوصيين على أرض العرب والمسلمين في أشد العصور ظلامًا وتمزقًا، مستندين في ذلك التوهم إلى هذا اللبس اللغوي عند فرض مصطلحات اللغات الأوروبية على محكمات اللغة العربية الدينية.

ولقد رأينا فيما سبقت الإشارة إليه أن كلمة «المعرفة» في دلالة كلمات Sophos وPhilosophy وTheosophy لا تعني مقابلها في اللغة العربية من العلم الصادق المنشور والمتاح للجميع، وإنما تعني «العلوم السرية» بأشكالها المختلفة، ورموزها البعيدة عن الوضوح، والمتناقضة مع العلم، والموجهة ضد الحق والعدل. وكذلك فإنه بالنسبة لهذه «الغنوصية» التي عاش المسلمون أهوال الانقسام منذ دبت بينهم، وتسربت في خفائها إلى مواطن التأثير عليهم، والهدم لوحدتهم، فإنها تبدأ في اللغة اليونانية القديمة من كلمتين Yuis وGewise، ومنها كان تركيب هذه الكلمة اليونانية Gnosis والتي تعني في المعاجم وكتب الفلسفة: «المعرفة الروحية السرية» والتي تتفق مع مقابلتها في الإنجليزية والمأخوذة من نفس جذورها اليونانية وهي Wisdom من كلمة Wise، أي تتفق في دلالتها على «المعرفة الروحية السرية» بكل ما تعنين من خفاء وترصد وتناقض مع العقل أو الحكمة وإن أشاع مبتدعوها بين المسلمين أنها – كما يرونها بأعين الابتداع والضياع – هي عين العقل والحكمة.

والآن ماذا في باطن هذه الفلسفة الغنوصية، التي شنت حربها على الإسلام والمسيحية بمؤثرات فارسية ويونانية وصيهونية، من حصونها

وقلاعها السرية في مثل جنديسابور ونصيبين والرها والرقة على أطراف الأرض العربية الإسلامية..؟

لقد نقلنا من المجلد الثاني من كتاب «تاريخ الحضارة المصرية» الذي أصدرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي لنخبه من علماء التاريخ للعصر اليوناني والروماني والإسلامي في مصر – هذه الشهادة العلمية والتاريخية عن مفهوم واتجاهات هذه الفلسفة الغنوصية في حربها وتناقضاتها مع المسيحية، وقد جاء نص هذه الشهادة في الصفحة 234 من هذا الكتاب.

والفارابي بين المسلمين هو المؤسسي الظاهر لهذه الحركة الغنوصية الخطرة، التي استهدفت تحت هذا الاسم المتناقض مع أهدافها وهو «إخوان الصفا» أن تقضي على وحدة العرب، وأن تدمر مقومات الإسلام. ولا شك أنه قد استوعب تمامًا معنى الاسم الفارسي لمدينة بغداد كما اختاره لها الفرس من غير علم الخلفاء الأوائل للدولة العباسية وهو «باغ داد» و«باغ» معناها «الروح المقدس الذي يحل في الإمام العارف» عند الفرس، كما جاء في كتاب المستشرق أوليرى: «علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب».

ومن فلاسفة «إخوان الصفا» أيضًا ابن سينا الذي اشتهر بشطحاته غير العلمية عن النفس البشرية، وابن حيان الكيمائي الذي عاش في حلم عابد الذهب يعمل على استخراج معبوده عبثًا من التراب!!.

يقول أوليرى في كتابه السابق عن «إخوان الصفا» وهو يتناول تفسيرهم الباطني للقرآن الكريم:

«أما القرآن الكريم فيفسره إخوان الصفا تفسيرًا باطنيًا. وفي الرسائل التي كتبوها إشارات إلى الكتب المقدسة المسيحية واليهودية، وهي تفسر أيضًا تفسيرًا باطنيًا. وهذا النوع يدل على اتجاهات شيعية، أو لعلها إسماعيلية. ولكن اللغة التي كتبت بها الرسائل لغة معقدة وغامضة. وهذه الحركة الباطنية ترجع إلى أصول من الفكر سابقة للإسلام»!.

ثم يقول أوليرى في نفس كتابه عن فلسفتهم الغنوصية وعن رسائلهم:

«والمذهب الفلسفي لغالب هذه الرسائل هو مذهب تلفيقي. فالكون عندهم منبثق من الله، والروح الإنسانية من مصدر إلهي. وهي تجاهد للرجوع إلى الله وتتلاشى فيه، وهي النهاية التي تصل إليها عن طريق الحكمة، وهي «المعرفة» عند الكتاب الغنوصيين، والأفلاطونيين المحدثين».

وبعد.. فهذا قليل من كثير من أخبار هؤلاء الفلاسفة الغنوصيين، كما ظهروا بهذا النوع من «الحكمة الغنوصية» التلفيقية بمفهوم «المعارف السرية الهدامة»، والتعالي نحو هاوية الرمز وظلماته وتناقضاته في وجه كتب الله ورسالاته، والحق الذي نزل من عنده.. ومن هؤلاء الفلاسفة من عادوا إلى صداقة بعض فلاسفة هذا العصر، كهذه الصداقة التي جمعت بين الدكتور زكي نجيب وابن حيان الذي أصدر عنه كتابًا حاول أن يلتقي معه في حول مفهوم «الفلسفة الوضعية المنطقية» في مجال اللغة..!

ومع كل هذا الحفيف في الظل.. والرمز بالسر.. في تغنوص العارفين.. وتهجم المتفلسفين.. فإن سنن الله التي لا تتبدل تقضي بأن يحق الحق أبدًا.. وبأن يزهق الباطل كمدًا.. وهاهي ذي كل الدلالات والبشريات تعلن عن صحوة العرب والمسلمين المعاصرة، في مسيرة لا تتوقف نحو ألفتهم، ووحدتهم، وقوتهم، مع مشرق الإسلام الحق عليهم مرة أخرى، عائدين به إلى القرآن الكريم، ولسانه العربي المبين، ليكون في حياتهم اليومية هداية إلى العلم المثمر، والعمل الصالح، والقول الحق.. ونورًا من الله لايحتجبون معه عن جادة الطريق، ولا عن مسابقة العصر، ولا عن شرف الغاية .. إن شاء الله.

الفصل الرابع

والآن يا دعاة العرب للتفلسف

ماذا غير الحق تريدون وتنتظرون؟!



نعم والآن، ونحن بهذا الكتاب نخاطب العرب في صحوتهم نحو الألفة على الدين الحق، والجهد الصادق في سباق العصر، فوق كل العقبات، ونحو كل الآمال – نحسب أننا قد واجهنا بالحجة البالغة دعوة الداعين إلى «التفلسف» بين العرب، وباتجاه المذاهب الأوروبية في الشرق والغرب، وأننا برغم الإيجاز في الكلام عما يملكه الشعب العربي المؤمن في تراثه الحاضر بين يديه من اللغة والدين، والكتاب المبين، قد مررنا بأصنام الفلسفة المتعددة، وتماثيلها وأنصابها، وأشهر مذاهبها، لندمغها بتناقضها مع العلم، وشتاتها عن الواقع، وسرابها نحو الحقيقة، وأنها في شواهد التاريخ، وبشهادة أهلها في الماضي والحاضر، ليست هي الطريق إلى المعرفة الصحيح، ولا إلى اليقين المنشود، ولا إلى الصرح الاجتماعي المتكامل على دعائمه من العلم والعدل، والإخاء والسلام.

ولقد قدمنا في سبيل التأكيد على سلامة هذه المواجهة في حياة الأمة العربية المؤمنة المعاصرة بين العقل بمفهومه في لغة العرب وبين الفلسفة بتصوراتها وتجريداتها بين الأوروبيين، وهي هذه المواجهة التي ينهض بها الإيمان في مواجهة الإلحاد بكل صوره، وأشكاله، ومذاهبه – مثالا مما عانته الأمة العربية وهي تتمزق تحت أقدام أعدائها، بنفثات «معارفهم السرية» وشطحاتهم التفلسفية التلفيقية، على عهد فريق من «الغنوصيين» مثل «إخوان الصفا» الذين تجاوزا أقصى الشطط فيما نفثوه من سموم «معارفهم» الوهمية، وما ذلك إلا لنلقى الضوء الكاشف على عتام هذه الدعوة الظاهرة والباطنة إلى تفلسف العرب في هذا العصر، ابتداء من الطعن في قدرات «العقل العربي» ووصفه بكل نقائص العجز في مجال النظر والتفكير، وانتهاء إلى التمويه عليه بأن «الخلاص» الموعود له من قيوده الفكرية «التراثية والدينية واللغوية» هو في هذه «الشمس» الفلسفية

التي زعموا في وجه الواقع الحي بين السماوات والأرض منذ ملايين السنين.. أنها تشرق من الغرب..!!

إن التاريخ يحدثنا أنه بعد سقوط الدولة الأموية بسبب الترف والغفلة عن المقومات، والصراع حول الحكم الذي أصبح ملكًا بعد أن كان خلافة – قامت الدولة العباسية – بتعاون مع الشعوب غير العربية – أملا في تحقيق العدل المفقود، والإخاء المنشود، بين الحاكمين والمحكومين، كما هو أمر الله في كتابه المبين. ولكن الذي حدث، وكما جاء في كتاب عن أحد هؤلاء الفلاسفة من إخوان الصفا هو «ابن سينا.. بين الدين والفلسفة» والذي أصدره مجمع البحوث الإسلامية بجامعة الأزهر سنة 1392 هجرية وسنة 1972 ميلادية ما يأتي عن هذه الحقبة بعد الدولة الأموية، أي الحقبة التي ظهرت فيها تحت أعلام الدولة العباسية ووزرائها من الفرس وغيرهم أعراض التفلسف، والباطنية الغنوصية، وتناقضات المعارف السرية التلفيقية في أفكار وكتابات إخوان الصفا.. لقد جاء في هذا الكتاب من التفسير الصحيح لظهور إخوان الصفا ومن بينهم ابن سينا.. ما يأتي:

«في ذلك الوقت – وكان التفكير إلى ذلك الحين يكاد يكون عربيًا محضًا، أو بعبارة أخرى محليًا – ابتدأت الأجناس الأخرى تحاول في قوة أن ترفع رأسها من جديد، وأن تزج بثقافتها في ذلك التيار الفكري. وأخيرًا تم لها ما أرادت وسقطت دولة بني أمية سنة 132 هجرية وهي دولة العرب والعربية، واضطر العرب أن يتنازلوا عن السيادة، وأن يندفعوا في غمار الصناع والعامة، وأن يقبلوا على الجدل مع هذه الشعوب التي كانت تحمل بين قلوبها أشد الأحقاد عليهم، وابتدأت الثنوية من الفرس والسبئية التي أثارت الشك في «المعرفة»، وكثير غيرها من هذه الفرق، وكذلك

الدهرية التي لا تؤمن بخالق تعمل جميعًا على الكيد للإسلام وطمس معالمه، ولعها كانت تجد من الفرس المسلمين الذين سيطروا على الدولة في ذلك العهد إغضاء عن هذا الذي يريدون تحت ضغط الرغبة في الانتقام من العرب وانتقاص مكانتهم»!!

هذه الصورة التي تقدم مشهدًا من واقع ذلك العصر المنتكس، والتي تصور ما بدأ يصيب العرب فوق أرضهم العربية في العراق والشام، بعد أن غفلوا عن مقوماتهم، واتجهوا مع الترف المدمر إلى متابعة شهواتهم، والصراع على ما بقي في أيديهم، والعجز عن مواجهة خصومهم المتربصين بهم منذ أزالوا عن أرضيهم المستباحة، وعن وطنهم القديم، سلطان كسرى وقيصر – هذه الصورة التي تعددت الآراء والأقلام في عرضها وتفسير دلالاتها، بعد هذا السقوط المدوى للدولة العباسية، والأفول الأليم للحضارة العربية الإسلامية، وكما لا يزال المؤرخون في أنحاء العالم – عربًا وأوروبيين وشرقيين – يتابعون بالتحليل والتأويل هذه الصورة الحافلة بالعبر والعظات والحقائق – تذكرنا اليوم أمام مشهد المخاطر المروعة التي يتعرض لها المسلمون والعرب اليوم – بعد اجتياح القوات السوفيتية لأرض أفغانستان، وتنكيلها بشعبها المسلم – بحقيقة هذا الصراع الذي أصبح سافرًا بين الشرق والغرب، وبين القوى المدمرة للعملاقين، وبخاصة بعد تفاقم أزمة النفط وأكبر مصادره عند العرب – للقضاء على الشعوب الإسلامية والعربية. الواحد بعد الآخر، برغم هذه الصحوة التي قاربت بينهم في هذا العصر، وجمعت كلمتهم على شعارات الوحدة والتضامن، والإيمان والعلم، حتى ،وإن اختلفوا على مواقف ليس بينهم فيها خلاف جذري، ولن يلبث هذا الانقسام أن يزول باتجاه أفضل نحو المستقبل.

تغيير الجنسية:

والآن مرة أخرى.. وبعد أن مضى أكثر من عامين على ما كتبه الدكتور زكي نجيب محمود في مجلة روز اليوسف عن رأيه في أن «العقل العربي يتدهور» وأن العلاج الذي يقترحه مع غيره من زملائه المتفلسفين هو أن «يتفلسف» هذا العربي برغم عقله، وأن يتبع بذلك فكر الغرب حتى وإن شقى هذا الغرب – شرقًا وغربًا – بتفلسفه.. الآن بدأ الدكتور زكي نجيب محمود يتراجع عن رأيه الأول خطوة وراء أخرى، بينما هو يداور في تراجعه جامعًا بين الحقائق والشبهات، وبين الإقبال والإدبار، أو بين هز الرأس عجبا.. أو أدبا.. أو تشددًا..!

ففي مقال ينشره بالأهرام بتاريخ 28 سبتمبر سنة 1979 تحت عنوان «العروبة ثقافة لا سياسة» نجده في دعوته إلى محاكاة الغرب في التفلسف معه، والسير بنظمه، يرى أنه لا بأس علينا من ذلك مادام الغرب ينشد «السعادة» لمجتمعاته ويحققها، حتى ولو «أخضعوا القيم الأخلاقية عندهم لمنطق العقل «النابع من الأرض» وليس «الهابط من السماء» ماداموا يقصدون منفعة الإنسان وسعادته».

وفي سياق هذا الكلام المداور المتشابه نجده يتبسط بتجاعيد فلسفته، ليقول في فلته علمية من بين غضون كلامه:

«لا.. ليست عروبة العربي قميصًا يلبسه إذا شاء، ويخلعه إذا شاء.. بل هي «خصائص» توشك أن تبلغ منه ما يبلغه لون الجلد والعينين.. فهي مجموعة من القيم والعادات، وطرائق النظر، يتداخل بعضها في بعض تداخل الخيوط في قطعة النسيج»..!!

ونسأل أنفسنا مستبشرين بقرب إنابة صديقنا الدكتور زكي نجيب محمود إلى الحق والصواب في قضية «العقل العربي» ومنهجه الفكري «الديني».. إننا نسأله، وبخاصة بعد أن تجاوز خط الحرج فأعلن توبته بعد هذا المقال عن كثير مما تهجم عليه من حقائق وركائز ومقومات التراث.. إننا نسأل أنفسنا: لماذا لا يمضي الدكتور زكي على هذا النهج العلمي في نظر هذه القضية التي تعثرت فيها من قبل فلسفته الوضعية المنطقية؟.. نعم.. لماذا - إذا كان يرى ما هو الحق من أن للإنسان العربي في مصر، وفي غير مصر، هذه «الخصائص» القومية والإنسانية التي تشكل سمات فكره، وحركة سلوكه، واتجاه إرادته، ومعالم اعتقاده، وغاية حياته.. لماذا لا يمضي بعربية أفكاره فيدرج بها - من غير تفلسف - على هذا الطريق الرحب المضيء، من حيث إن هذه الحقيقة التي أدركها آخر الأمر عن «خصائص» عروبة العربي، تنطبق تمامًا على هذه الخصائص المتنوعة بين البشر في يونانية اليوناني، وفرنسية الفرنسي، وأمريكية الأمريكي.. ومن حيث إنه حين يتكلم عن «الخصائص» في ثباتها، وفي مجال القدرة المتاحة لتنقيتها، وتنميتها، وتصحيح اتجاهها، تتفتح أمامه الطرق الصحيحة لكي يقول ما عنده في هذا المجال من الصحيح.. مجددًا.. أو مضيفًا.. أو مبتكرًا..!؟

أوليس من الحق العلمي الذي لا يجادل عالم فيه، سواء أكان من علماء العلوم الإنسانية، النفسية والاجتماعية، أو من علماء العلوم الطبيعية، الكونية الفلكية، وسواء أكان مؤمنًا أو ملحدًا، ويقينيًا أم متفلسفًا - أن خصائص كل شعب، وهي تتميز داخل الأجناس المختلفة، توشك أن تبلغ منه ما يبلغه لون الجلد والشعر والعينين؟..

أوليس من الثوابت العلمية، التي سبق للقرآن الكريم أو صحيح الحكمة المروية عن الرسول، أن كشفا عنها لتسير الحياة السليمة بالمسلمين على هداها، أن للبيئة الجغرافية والمناخية أثرها في تكوين «خصائص» الشعوب، كما أن للجينات، أي حاملات الصفات الوراثية في الإنسان والكائنات الحية، قدرتها من خلال التزاوج، واصطفاء الخصائص دون تهجينها، على تنمية خصائص الأفراد، وخصائص الشعوب، توجها بالفطرة نحو تحقيق هذا الاتساق الدائم بين خصائص الإنسان وبين بيئته ومناخه، وتراثه التاريخي وعصره..؟!

فإذا كان ذلك صحيحًا، وهو صحيح بكل ما تنبهت إليه العلوم الإنسانية الحديثة في العصر الحديث، فكيف نعمل إذن – تحت أي شعار – على أن نستنبت «الفلسفة» في أرض «الدين»، وأن ننشر سلوك الإباحيين – بحجة نقل ما عندهم من العلم والتكنولوجيا – إلى أرض الأخلاقيين المتطهرين، في حين أن العلم بكل أسراره وألوان تطبيقاته «محايد» بين البشر، يتنقل بينهم بغير انتماء يعوق حركته، أو يمنع سيادة القوانين المتكاملة فيه؟!

نعم.. كيف نعمل – مهما كان الإغراء والوهم – على أن يتحول الشعب العربي الديني المشمس الأسمر إلى شعب أوروبي فلسفي جليدي أبيض، بمجرد عمليات عدوانية – إغوائية أو قسرية – غير مجدية، وغير عملية.. بل كيف نتصور – حتى مع شطح الخيال – احتمال أن يفقد هذا الشعب العربي خصائصه التاريخية، القومية والإنسانية – ولو بالقسر – داخل زيجات طويلة مع شعوب أوروبية بيضاء، ليصبح في النهاية شعبًا أشقر الشعر، أبيض الجلد، أزرق العينين.. قد أمكن «تخليقه» معمليًا، وهو يرسف في القيود أجيالا طويلة.. متفلسفًا.. عدوانيًا.. مشتتًا.. قبل أن يعود مرة

أخرى إلى عقله.. ولغته.. ودينه!؟.. نعم.. بحجة العلم.. وليس بظنون الفلسفة.. كيف؟!!

مصر العربية:

ثم.. وبعد.. نصل من هذا الكتاب إلى الخطوة قبل الأخيرة، ونحن نواجه في حسابنا العقلي، وعتابنا العلمي، محاولات الدكتور زكي نجيب في دعوته، وهو يدعو أبناء وطنه المؤمنين إلى التفلسف الأوروبي، كيفما انتهى بهم هذا التفلسف.

إننا نسأله كيف ينسى.. ولماذا ينسى.. أن المصريين عرب.. كيف ينسى.. حتى وإن لم يكن له حظ من العلم الواسع بالتراث – بحسب اعترافه في كتبه – أن هؤلاء المصريين الذي ينتمي إليه، ويتحدث بكل حريته إليهم، هم عرب مؤمنون بالله والدين، منذ بجر حضاراتهم على هذا الوطن منذ أكثر من سبعة آلاف سنة.. وأن واجب كل العلماء أن يعملوا في هذا العصر – بعد أن فشلت كل القوى الاستعمارية والشيوعية والصهيونية في محاولات تنحيتهم عن «دين الوحي» و«أخلاق الشرع» و«منهج العقل المؤمن» – من أجل تنشيط صحوتهم، وتعزيز إفاقتهم إلى مقوماتهم، حتى يقيموا دولة «العلم والإيمان» على قواعدها الراسخة، والنامية، باتجاه الرخاء، والعدل، والسلام.

كيف ينسى الدكتور زكي نجيب محمود، المصري العربي، أن الحضارة العربية منذ ازدهرت في فجر التاريخ البشري في قلب هذا الوطن العربي، هي بكل مقوماتها وتوجهاتها «حضارة علمية دينية» تؤمن بالله، حتى مع بعض الغفلات عنه، وبعض الشرك به، كما كان ذلك واضحًا وجليًا في الحضارة المصرية القديمة، وحيث لا تزال تشهد الآثار والأخبار والكتب إلى اليوم أن أقدم الآلهة عند هؤلاء المصريين العرب القدماء كان

اسمه «فتاح» وهو من أسماء الله الحسنى، كما كان من أسماء آلهتهم «آمون» من الأمن والإيمان، و«رع» من الرعاية والحفظ.. فكيف وهم يستقيمون بعد ذلك على طريق الإيمان الخالص، والدين الحق، مع رسالات الرسل حتى ظهور القرآن الكريم، نطلب إليهم – وقد أحاط بهم أعداؤهم، وأعداء أشقائهم من العرب والمسلمين – أن «يتفلسفوا» بدلا من أن «يؤمنوا».. ويزدادوا إيمانًا.. وأن يضلوا بدلا من أن يهتدوا.. وأن «يرطنوا» بدلا من أن يبينوا..!؟

كيف؟.. كيف؟.. ثم كيف!!؟.. أيها الفيلسوف العنيد.. الدكتور زكي نجيب محمود!!؟

سورية والعراق:

وأخيرًا.. أخيرًا.. وفي هذه الملاحظة الأخيرة على دعوة «التفلسف» للدكتور زكي نجيب محمود، ونحن نمسح بيد النصح الخالص جهامة وجهه، ونزيل بإشراقة البرهان الزاجر تغضنات فكره، ومداورات تفلسفه – نضع صديقنا الفيلسوف وجهًا لوجه أمام مسئوليته الوطنية الكبرى، بينما نؤاخذه بهذه المسئولية أمام مواطنيه العرب في مصر وغير مصر، عما غاب عنه فكره من أن هذه الدعوة للتفلسف قد سبق إليها تحت القسر والإكراه شعبان شقيقان في أمتنا العربية هي سورية، والعراق، عندما اشترك أمشاج من المثقفين السوريين، المتعددي الانتماءات الطبقية، والمذهبية، والشيوعية، والاستعمارية، في إنشاء ذلك الحزب الفلسفي الأوروبي، المتقنع بقناع عربي على أهداف غير عربية.. أهداف علوية وتكريتية، ليس لمعالمها وضوح، ولا لمطامعها حد..!

إنه منذ سنة 1938، أي قبل إعلان ظهور هذا الحزب الفلسفي على قناع عربي سنة 1941، كان «زكي الأرسوزي» من غلاة العلويين، وهو

معلم حاصل على ليسانس الآداب من باريس، قد توصل إلى محور نظريته الفلسفية العلوية لصالح نحو 200.000 من العلويين في جبلهم بسورية، ولقهر نحو ثمانية ملايين من السوريين المسلمين، من طريق التطبيق العملي الشرس لهذه «النظرية» في شكل من أشكالها الغنوصية النشطة، والمدوية.. هذا المحور يقوم على قطبين متكاملين بمجرد التلفيق الفلسفي بينهما وهما:

1- إن عبقرية الأمة العربية في لسانها ولغتها، فهي إذن ليست في حاجة إلى عبقرية أخرى تحقق وحدتها وقوتها في العالم المعاصر مثل الإسلام الذي لم يكن بحضارته إلا أثرًا عابرًا من آثار هذه العبقرية العربية في اللغة واللسان..!

2- من أجل ذلك فإن التمسك بالدين، وبخاصة في هذا العصر المتميز بعلوم أوروبا و«فلسفاتها» يعتبر رجعية تجب مقاومتها، والقضاء عليها، في كل صور الحياة، وبكل الوسائل، مع فتح الطريق «للفلسفة الأوروبية» من كل اتجاه..!

ونتيجة لتطبيق هذه النظرية بعد الإعلان عن ظهور هذا الحزب «الفلسفي» الإلحادي في سنة 1941، وبعد أن تجمعت حول زكي الأرسوزي مجموعة من المغامرين والمفتونين مثل ميشيل عفلق، معلم، وليسانس تاريخ من باريس، وصلاح البيطار مدرس طبيعة بالتعليم الثانوي، ومثل عدنان الآتاسي دكتور حقوق، وأستاذ في الجامعة، وابن رئيس الجمهورية آنذاك هاشم الآتاسي، وكان عضوًا مع الأرسوزي في «عصبة العمل القومي» ومثال للمغامر المخلص لطبقته وأسرته، ومثل نظيم الموصلي دكتور في الجغرافيا ومعلم ثانوي، وصورة من صور الضياع والتمزق

الفكري لفئة من الشباب العرب داخل حركات شيوعية ترفع شعارات وطنية!!

وحتى نزيد الدكتور زكي وضوحًا لطبيعة هذا التطابق الغريب في المقدمة والنتيجة بين دعوته مع رفاقه في مصر إلى التفلسف الأوروبي، المستوجب بمفهوم الفلسفة الوضعية المنطقية وغيرها إلى طرح الدين، وبين الدعوة السابقة في سورية، ثم في العراق، لنشأة هذا الحزب العلوي الفلسفي الإلحادي على يد فلاسفته ومؤسسيه. فإننا نسجل هنا هذه الشهادة الصادقة لعالم سوري عاصر نشأة هذا الحزب، وعرف ما يجرى في ظواهره وبواطنه، وأعلن انتقاده للكثير من أوزاره، وهو العالم المؤرخ الأستاذ جلال السيد الذي نلخص هنا شهادته في فقرات ناطقة من حديثه المسهب عن حزب البعث في كتابه الموسوعي، والجدير بإطلاع كل عربي، وهو «حقيقة الأمة العربية وعوامل حفظها وتمزقها».. إنه في صفحة 383 من هذا الكتاب يقول:

«كان جمهور البعثيين من نوعية الكثرة التي تنتمي للشيوعية، أو قل إنها هي النوعية ذاتها. ولذلك كان بين الحزبين الشيوعي والبعثي النقاء، وكان بينهما ميدان مشترك، والفرق بين الحزبين يتجلى في أمرين لا ثالث لهما: أولهما – أن البعث فئة عربية قد شقت طريقها نحو هذه الغاية، ولم تلتفت إلى العراقيل التي تقيمها الأكثرية من الحزبين في هذا الطريق، بينما لا توجد مثل هذه الفئة في الحزب الشيوعي. وثانيهما – أن الشيوعيين كانوا في سلوكهم يستعملون «التقية» والتقية هي الاختفاء عندما يحيق الخطر، والظهور عندما يزول الخطر، بينما البعثيون لا يفعلون مثل هذا السلوك. ويتفرع عن هذا أن الغاية عند الشيوعيين تبرر الواسطة. والبعثيون لا يعترفون إلا أن الوسيلة جزء من الغاية، ويجب أن تكون شريعة

كالغاية نفسها. وهذا الوصف يصدق على البعثيين أول ما تأسس الحزب، ومن قبل أن ينغمس في معترك السياسة. لكنه قد غير هذه القواعد إلى حد كبير، وسرت إليه العدوى من الحزب الشيوعي من طول ما عمل الحزبان معًا، فتخلق الكثير من البعثيين بالأخلاق الشيوعية، وكان عدد كبير منهم كما أسلفنا من نوعية الشيوعيين، فسيطر هذا التيار على مجموعة السلوك الحزب، وأدخل الحزب في ميدان جديد، كما أنه خلق له مفاهيم جديدة، ومصطلحات جديدة، بحجة مراعاة الظروف، والحرص على الصالح العام. وعندما وصل إلى مستواه الجديد وجد نفسه على صعيد واحد مع حزب يشبهه في شعاراته اسمه «الحزب العربي الاشتراكي» فتداغما واندمجا في حزب واحد..».

ثم يقول من نشاط حزب البث بعد ابتلاع الأثر الشيوعي إلى إعلان فلسفته العلوية المماثلة نحو تهديم الدين:

«وإذا كان هذا الحزب البعثى يلتقي مع الشيوعيين في نزعة التهديم، فإن دوافع التهديم ليست واحدة عند الحزبين. لقد تعدت هذه النزعة المعترك السياسي إلى أمور خطيرة وجوهرية. إذ أن التهديم اتسع حتى شمل كل شيء، ففي نظر البعثيين لم يكن في العهود العربية القدية «بطل» يستحق الثناء إلا تجوزًا وتعصبًا، كما أن «الدين» عند بعضهم قد أصبح حدثًا تاريخيًا، وأن النقيد بتعاليمه ضرب من الرجعية، بينما «العلمانية» هي المذهب المفضل، لأنها تنبئ عن تفكير حديث وتقدمية ورقي في نظرهم. وكان الواعون في القيادة يتعرضون إلى الاتهام بالرجعية إذ بدر منهم أي توجيه نحو تقديس الماضي العربي الزاهي، لذلك سكت الكثير منهم على مضض خشية الاتهام. وكان هذا المظهر العلماني البعيد عن الاعتراف بالأمجاد الماضية على اختلاف أشكالها سببًا في نقمة عدد كبير

من الناس على حزب البعث، ومن هنا فتح الحزب جبهات كثيرة يحارب عليها..».

ثم يقول أيضًا عن تسخير الشيوعيين لهذا الحزب البعثي الفلسفي الإلحادي:

«وتصرفات حزب البعث كانت في جملتها انعكاسًا للإرادة الشيوعية.. ولهذا فإن الشعب برمته في القطر السوري، وفي سائر الأقطار العربية، قد وقف في واد كما وقف حزب البعث في واد آخر لا يقف فيه معه إلا الشيوعيون. ونجح الشيوعيون في هذا التدبير، وسخروا البعثيين للقيام بتنفيذ مآربهم، وعودوهم على الفتك الرهيب مما لا يتفق مع المزاج العربي، ولا يتلاءم مع طبيعته الإنسانية»!!

ثم يقول عن تأثير الأقلية العلوية على سياسة وأهداف وأوزار حزب البعث:

«ولما كان جمهور المنتسبين إلى هذا الحزب من الأقليات المذهبية الإسلامية، فإن فلسفة هذه المذاهب قد أصبحت غالبة على الحزب، وهي فلسفة استمدت من بعض المذاهب المتطرفة القديمة، ومن فلاسفة اليونان، ومن هذا أصبح حزب البعث كأنه بثرة في الجسم العربي، لأن مثل اتجاهاته غريبة عنه. وإذا شك العرب في سلامة الحزب سرى هذا الشك إلى جميع شعاراته. والشيء الأكيد هو أن هذه النقمة التي صبها العرب أخيرًا على البعث لم يكن سببها الأخطاء السياسية وحدها، ولكن السبب هو هذا التكوين الخاص المغاير لتكوين الأمة العربية العام»!!!

هذه هي بعض خبايا وخطايا حزب البعث الذي اعتنق التفلسف الأوروبي بجميع أشكاله، وأنكر الدين الحق في تراث الأمة العربية

ومصادرها الصحيحة بكل غاياته، كما يكتبها ويرويها للعرب، وللتاريخ، عالم سوري مسلم، كان بعثيًا يومًا ما بحسن النية تجاه الشعارات الخداعية الأولى لمؤسسي هذا الحزب، من الشيوعيين والعلويين، فلما تبين له أن البعث عدو وللحق، وللأصالة، والدين، وللعرب المؤمنين، المستبشرين بمستقبلهم ويوم وحدتهم على أرضهم وطن الإيمان والدين — تبرأ من هذا الحزب الفلسفي، وأعلن مخالفته له، ونبه العرب إلى بلائهم فيه.

أوليس من حقنا بعد هذا البيان، سواء ما ذكرناه مما نعلمه عن حقيقة النشأة الأولى لهذا الحزب على ركائز علوية وغير عربية، وفلسفية أوروبية وغير إسلامية، أو ما قدمناه من شهادة هذا العالم السوري الذي هاله ما تدهور إليه «التفلسف البعث الإلحادي» وراء ما سار وراءه من الانقياد للسلطان الشيوعي والاستعمار، من فرض هذا «التدهور» على «الفكر العربي» و«الواقع العربي»، ومن العمل الحثيث على تقويض كل مقومات الذات العربية، وكل دعائم بقائها، من الدين، واللغة، والتاريخ، ومسابقة العصر لتجاوز التخلف العلمي، والتحلل الأخلاقي، من أجل حاضر مشرق، ومستقبل موعود.ز أليس من حقنا أن نربأ بالدكتور المصري العربي زكي نجيب محمود أن يتطابق في دعوته إلى تفلسف العرب وراء مذاهب أوروبا — شرقًا أو غربًا — مع دعوة سمية زكي الأرسوزي، وها هي ذي ثمراتها الدامية فوق أرض الشعب السوري العربي الشقيق، لإخفاء في أهوالها ومصائر أهلها، وقد برزت برءوسها كطلع الشياطين، وأعراض الجنون..؟!

ثم أليس من حقنا أن نعتز بمصر العربية، المؤمنة بالإيمان، والعلم، والسلام لجميع البشر، فنعيذها بكل أصالتها ووعيها من مثل هذا المصير

للتفلسف الأوروبي على حساب التراث الديني واللغوي والقومي، وهي التي تخطت العديد والغريب من المؤامرات والغزوات والعقبات، خلال ألوف السنين، لتحافظ على ذاتها، ولون بشرتها، وطابعها المتجدد لخصائصها، وملكاتها، وغايات حضارتها، المعتصمة بالدين والعلم، والأصالة والتراث، والمعاصرة والتجدد، والوحدة الوطنية والسلام!

نعم.. إننا نعتز بمصر العربية المؤمنة، وفي مثل صحوتها هذه للإيمان والعلم، والتقدم والمعاصرة، عن أن تنتهي بمصيرها – تحت أي شعار للتفلسف – إلى مثل ما انتهى إليه هؤلاء البعثيون المتفلسفون والإلحاديون، وراء أقنعة عربية كاذبة.. وبعد أن اقترب حسابهم من شعوبهم على ما اقترفوه.. وتحدد مصيرهم بعد الذي أوغلوا فيه..!

ثم نكتفي بهذا القدر.. ولعل فيه هاديًا.. وبلاغًا.. إن شاء الله.. لصديقنا الفيلسوف الدكتور زكي نجيب محمود.. ولجميع رفاقه.. ولمن لا يزاولون وراء شعارات «التفلسف» يداعبون أمانيهم ومواطنيهم بمثل دعابته التي عاد فأعلن عن بدء توبته عنها.. كما شرع في هذه التوبة وبدأها في مقال له بجريدة الأهرام بعنوان "قلم يتوب" بتاريخ 19 من المحرم 1400هـ و9 ديسمبر سنة 1979م.. والحمد لله رب العالمين.



القسم السادس

اللغة العربية
تحمل منهج التفكير الإسلامي



الفصل الأول

عوامل تدهور اللغة العربية الفصحى

تتحول في هذا العصر إلى مواجهة لأحيائها

تحقق لنا مما سبق عرضه مع الإيجاز في الفصول السابقة مدى ما تعرض له العرب داخل حدودهم، ومنذ قرون طويلة بعد إشراق الإسلام من آفاقهم وانتشاره في الأرض بجهادهم وأسوتهم وأخلاقهم لمكائد وأحقاد شعوبية تجمعت بمعتقدات ما قبل الإسلام، فليست الدعوات والصيحات المعاصرة لغواية العرب بالتفلسف الأوربي شرقيًا كان أو غربيًا هي التيار الوحيد باتجاه الارتداد عن الذات العربية، وعن أصالتها في عقيدتها الدينية، بل إن من بين من يزعمون الدفاع عن الإسلام في وجه خصومه، والدعوة إلى الحكم بالقرآن الكريم بعد هجره، متباكين بالحماسة، وخابطين الأرجل مع الولولة – من لا يزالون في عجمة ألسنتهم، وعجمة قلوبهم، وشتات أهدافهم، وشعوبية مصادرهم، يحملون هذا الحقد على العرب تحت قناع زائف من الإسلام أو التمسلم، وهم يجمعون بين النقيضين.. بين الدعوة إلى الإسلام، والزراية والطعن في العرب من قوم الرسول الذين اختارهم الله واجتباهم لرسالة الإسلام، وجعلهم فوق جميع الأمم التي كانت حولهم، وجاءت من بعدهم، خير أمة أخرجها للناس بهذا الإسلام.

وهؤلاء – كما لا يزالون يتخبطون في غيابة هذا الحقد والوهم – يجمعون بين القول بحي الرسول، أفضل البشر وخاتم النبيين، وبين الطعن بقومه الذين أسلموا عن بينة، وآمنوا عن يقين، وهم قومه الذين دخلوا في دين الله أفواجًا، بما لم تسبقهم إليه أمة جاءها رسول منها، وبما لم تلحق بهم إلى مثله أمة، بعد أن دخل الترف، ونشط الدفين، ونزغ الشيطان من بعدهم في قلوب المسلمين..

إنهم يطعنون فيهم، وكأن صدق إسلامهم لم يشفع لهم لأنهم عرب، وكأن أخلاقهم ولغتهم وحكمتهم وبقية دين إبراهيم بينهم خلال خمسة

وعشرين قرنًا قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام لا تشفع لهم. ولا اصطفاء الرسول من بينهم، أي أنه بنص القرآن الكريم، وحديث الرسول، وواقع التاريخ هو «المصطفى» بين من اصطفاهم الله، أي أنه الأفضل بأخلاقه وشيمه بين أهل الفضل من قومه بأخلاقهم وشيمهم، وإلا فكيف كانت تتم آية الله ونعمته على هذه الأمة بإسلامها، مستجيبة لرسول منها، ومؤمنة بكتاب مبين نزل إليها بلسانها، لو لم يكن صحابة الرسول الراشدين، ومن حملوا الأمانة من بعده، أهلًا بأخلاقهم وفضائلهم لشرف إتباعه، وفضل مؤازرته، وحق الشهادة على الناس من بعده، أئمة لهم وقادة، ومعلمين لهم وأسوة!؟

أو ليس من العجب أن يجد هذا الحقد الأهوج على العرب من ينق بنقيقه إلى اليوم، وفي قلب بلادهم، وباسم الإسلام، وبرغم إحاطة أعداء المسلمين بهم، سواء من الشيوعيين أو الاستعماريين..!؟

أو ليس من البطر، والافتراء على الله، والعداء لرسول الله، ألا يزال الحقد الشعوبي الفلسفي يأكل قلوب هؤلاء الممسوخين به، والمرهقين بقترته، وهم يمضغون مرارات الغيظ والحسد لأن الله اختار العرب لأعظم آياته، وأبقى رسالاته، متجاوزًا بعلمه وحكمته فارس والروم، وتركيا والهند، من أول رسالات الدين الحق إلى الرسالة الخاتمة والباقية منها إلى اليوم؟

لقد اختارهم بتعريب لسانهم لتدبر القرآن، وجعلهم بذلك الشهداء على كل من الروم والفرس، ومن الترك والهنود، وغيرهم، لأنهم الأئمة والدعاة والأسوة.. فأين هذا الحق الأبلج من غشاوة الباطل على وجوه الشاردين به؟

يقول الله سبحانه من أن نزول القرآن على رسول الله بلسان قومه المبين هو ذكر باق بالحسنى له ولهم في العالمين ببقاء هذا الكتاب المبين:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾[الزُخرُف:44]

ويقول سبحانه في نفس المعنى وهو يظهر فضله على العرب من قوم النبي الذين نزل عليهم القرآن بلغتهم ففقهوه وتدبروه وآمنوا به:

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[الأنبياء:10]

وأما عن عداء هؤلاء لرسول الله الذين يتصايحون بحبه بينما يطعنون فيمن اصطفاهم الله لهذا الدين من قومه، فإلى أن يحين يوم البعث والحساب، نذكرهم بصحيح قول الرسول وهو يحمد الله على نعمة اصطفائه لأعظم رسالة، وأبقى حجة، وأقوم دين، وذلك حيث يقول عن مكارم الأخلاق والخصائص لآبائه وأمهاته، وهم العرب من قريش حتى إسماعيل وإبراهيم:

«لم يزل الله ينقلني من الأصلاب النقية إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبًا لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما».

أي أنه كما قال من معنى حديث آخر هو: خيار من خيار من خيار.. ومن معنى حديث ثالث عن أن من أحب العرب فبحب محمد رسول الله أحبهم، ومن أبغضهم فببغضه لرسول الله أبغضهم.. فأين يذهب هؤلاء المبغضون للعرب.. وإلى أي ضلالة يهرعون.. وفي أي حمأة من الحقد والبطر على نعمة الله بالإسلام ينقون.. وها هي ذي شمس الإسلام تشرق على العرب بصحوتهم إلى الدين الحق في كتاب الله.. وأسوة رسول الله.. تشرق كما كانت من آفاقهم، وكتاب الله إليهم..؟!

الترف والتخلف:

والآن نمضي لنقول أنه إذا كانت هذه السلسلة من الصحوات العربية بين شعوب العرب هنا وهناك، لم تحقق بعد.. هذا الشروق الكامل لأمة الوحدة ولا لحضارة الإسلام مرة أخرى.. باتساع الأرض، فما ذلك إلا لأن هذه الشعوب في جملتها لا تزال - برغم ما أفاءه الله عليها من وفرة النعم الموروثة والحديثة - تعاني من محنتها من الجمع بين الترف والتخلف، في مواجهة هذا العدوان المتسلسل إليها بالغزو الفكري، والمحدق بها بالتهديد العسكري، كما وضح ذلك تمامًا بعد اجتياح القوات الروسية لأفغانستان، وارتفاع درجة الحمى في الصراع الدائر بين العملاقين الجشعين على السيطرة، واحتلال المواقع، وانتهاب الموارد، فوق أرجاء الأرض، وبرغم الإدعاء التمويهي بحقوق الإنسان، وحريات الشعوب..!

ولقد كان لهذا الترف والتخلف معًا بضغطهما على أنفاس العرب، وتعويقهما للمسيرة الراشدة بصحوتهم، أثرهما المتغلغل بالشتات، والمتسرب بالعجمة إلى اللسان العربي، مما كان له أسوأ الأثر منذ بدايات أعراضه في نهاية العصر الأموي. فمثل هذا الترف في العيش، وهذا المتاع المحرم، وهذا السقوط إلى الاستمتاع بنفايات ما عرفته الحضارات الفارسية والبيزنطية من اللذات الشاذة، كان لابد أن تتسرب آثارها وصورها المختلة إلى اللغة العربية لتتهجن بأصواتها، ولتستعجم بمعانيها، ولتندفع بأيدي الهوى لتنتقل مما لا يحل لها بوصايا الدين والحق والمعروف، إلى ما يحل بها بغوايات الضلال والإسراف والاحتضار..

مثل هذا الترف، وما يستتبعه دائمًا من الانقسام بين المؤتلفين، والتخلف في مسيرة المتقدمين، كان هو الإغراء الدائم لهجوم أعداء العرب عليهم، من الطامعين منذ القدم فيما أنعم الله به عليهم من اعتدال مناخ

أرضهم، ووفرة مواردهم، وحصانة ثغورهم، وعالمية طرقهم التجارية في قلب الأرض المحيطة بهم. ومع تعدد هذه الحروب التي كان يشنها عليهم هؤلاء الأعداء المتربصون بهم، فإن العرب كانوا سرعان ما ينهضون بصحواتهم حول مقوماتهم، من الدين واللغة، ومن التراث والأخلاق، ليتحدوا بالعزيمة الصادقة في وجه أعدائهم، ولينتصروا دائمًا عليهم بما كتبه الله لهم من وعده الحق بهذا النصر تحت راية القرآن، والتجمع بقوة الإيمان.. أي بقوة العمل والعلم في ضوء هذا الإيمان..

وكما أثبتت كل الصحوات السابقة للأمة العربية في وجه أعدائها بالإيمان، فإن أول الانتفاض من الغفوة، والرجوع إلى المقومات بعد الغفلات، كان البدء بتقويم الألسنة عن عجمتها، سواء باللفظ أو بالمعنى، وبذلك تنفتح مع صحة اللسان العربي كل الطرق الصحيحة إلى تدبر القرآن الكريم.

وحتى نسوق مثالًا على مدى ما يصنعه تسرب العجمة إلى الألسنة العربية من قلب للمعاني المحكمة في تدبر القرآن الكريم، مما تتهدم بقلبه عن صورته في ضوء البيان العربي السليم، أكثر دعائم الدين الحق في وعي المؤمنين، وثقافتهم، وفي تصورات مسيرتهم وأعمالهم، وحتى ندرك فداحة هذا الاستعجام لمعاني الكثير من كلمات القرآن الكريم السائدة فيه، بما يقلبها إلى النقيض من معناها الذي نزل به الوحي، والذي تدبرها به على الوجه الصحيح في اللسان العربي المبين رسول الله وصحابته الراشدين.. نضرب مثلًا واحدًا في كلمة «المعجزة» التي قلبها المستعجمون عن معناها الصحيح منذ أواخر القرن الثاني للهجرة فجعلوها بقلب معناها مساوية لكلمة «الآية» أي ما جاء من الآيات والبينات على أيدي الرسل، وقد امتد هذا القلب للمعنى الصحيح لهذه الكلمة بكل أخطاره على

الفكر الإسلامي، واللسان العربي، والتدبر السليم للقرآن الكريم، حتى هذا العصر الذي نعيش فيه، فلم يكد يسلم من هذا التحريف الجائر بقلب المعنى كتاب من كتب التراث، أو تفسير من كتب المفسرين..!

أما البداية إلى تعظيم وتعميم هذا العجز في فهم كلمة «معجزة» على أنها هي «الآية» فكانت فيما أعلنه أحد علماء الأعاجم عبد القاهر الجرجاني، الذي كتب في القرن الخامس الهجري كتابه المتعثر في فهم القرآن الكريم بعنوان «دلائل الإعجاز»، ولقد سار في هذا الكتاب برأيه في معنى «الإعجاز» على آثار من قبله، ومن هم على شاكلته في هذا الاختلاط بالعجمة عن الصحيح من لسان الوحي، من أمثال عبد الله بن زيد الواسطي من القرن الثالث الهجري، وأبو عيسى الرماني من القرن الرابع، وقد مضى هذا الخطأ المنكر حتى توهم مثل هذا الكاتب العربي الغيور على العربية الفصحى مصطفى صادق الرافعي، فلم يفطن في عجلته من أمره، وفي كثرة المتربصين بالعربية من حوله في عصرنا الحديث، إلى الخطأ المتواتر بعجمة الألسنة في دلالة هذه الكلمة، وفهمها على أنها تساوي معنى «الآية» أو «البينة» من الله على صدق الأنبياء، فكتب كتابه «إعجاز القرآن»..!

لقد توهم هؤلاء ومثلهم جميعًا هذا الوهم بسبب هذا التسرب الدائب للعجمة الخفية والظاهرة إلى حياة العرب المسلمين ومعاني كلماتهم، فحملوا معنى الآية على معنى المعجزة، وغفلوا بذلك عما ينقض هذا الوهم من هذين الأمرين الواضحين للمؤمن المتبصر في القرآن الكريم:

الأمر الأول أن الله سبحانه وهو الخالق القادر، والحكيم العليم، الذي يعلم ضعف عباده عن سلطان قدرته، والذي يرحمهم بدعوتهم إلى طاعته، بينما هو يذكرهم بالكثير الموجب للشكر من نعمه – أن الله

سبحانه بكل كمال القدرة، والرحمة، والتذكير بالنعمة، لمن هم عباده وخلقه والمهتدون به إليه – يتنزه بهذه الصفات الحسنى عن أن يعاجزهم، وأن يؤيد رسله بالآيات ليعجزهم، وأن يتنزل بالوحي والقرآن المبين على رسوله ليبهتهم ويخرسهم، لا ليذكرهم من غفلتهم إلى الحق الذي غفلوا عنه ويهديهم..!

الله القوي إذن لا يعاجز عباده الضعفاء عنه، وإنما هو بآياته، أي بهذه «العلامات» الدالة بصدقها وبرهانها عليه، يذكرهم في ضوئها المشرق، ومع صراطها المستقيم، بهذا الحق الذي يعرفونه وغفلوا عنه، وهو في هذا يقول سبحانه في واحدة من هذه الآيات الكثيرة الدالة على هذا المعنى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:89] أي يظهر لكم العلامات على أن هذه الرسالات من عنده لعلكم تتذكرون فتشكرون وتهتدون.

والأمر الآخر هو أن المعنى السائد لكلمة «المعاجزة» في اللسان العربي المبين يقطع بأنها لا تكون من القوي الحليم القادر، لأنها دائمًا هي شأن الضعيف المغتر المكابر، وقد خص القرآن الكفار وحدهم – وقبل أن يؤمن أكثرهم – بهذه الصفة اللائقة بهم من إدعاء القدرة على «المعاجزة» مع العجز، وذلك حيث وردت مادة الفعل: عاجز – يعاجز – تسع عشرة مرة وردت كلها في كتاب الله، وبغير إبهام، من نصيب الكفار وحدهم، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف:32] .. ومثل قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [النور:57] .. ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ [التوبة:3].

على أن الله تعالى في حجة القرآن البالغة على من غاصوا في أوهام الاستعجام لا يترك هذا الفارق يتسع بين الآية والمعجزة إلى حد التضاد بغير بيان قاطع، وبرهان مرشد، فهو سبحانه يجمعهما في آية واحدة تشرق بمعنى هذا التضاد المبين بينهما، وذلك حيث يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[الحج:51].

فكيف يمكن بعد ذلك، وقبل ذلك، أن تكون آيات الله موجهة لمعاجزة عباد الله، وليس لهدايتهم رحمة بهم، وإيقاظًا لعقولهم السليمة، وفطرتهم السوية، سواء أكانت هذه الآيات حسية مثل إحياء الموتى بإذن الله على يد المسيح، أم عقلية بيانية دائمة مثل آيات القرآن الكريم..؟

كيف يمكن أن تكون آيات القرآن الكريم موجهة لتعجيز من أعدهم الله بحكمته، ورحمته، وسابق وعده، وأزلية علمه، للإيمان به، والإسلام إليه، وحمل الأمانة في الأرض بالدعوة لدينه، والأسوة بأخلاق كتابه، وهو سبحانه القائل من أن هذه الدعوة بالقرآن الكريم كانت لمن رفعهم بنعمته إلى مستوى تدبرها والإيمان بها، رحمة ونورًا، وهدى وتطهيرًا، وإحياء من الموت بالغفلة وكفر النعمة ونشورًا..!؟

أو ليس الله هو القائل سبحانه في مثل هذه المعاني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾[النساء:174].

وهو سبحانه القائل: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المائدة:6]. وهو سبحانه القائل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾[الأنعام:122].

فهذه كلمة واحدة من كلمات كثيرة وقع بها بتسرب العجمة ونشاطها هذا القلب المشين للكثير من محكمات المعاني في كتاب الله المبين، وهي كافية في دلالتها على وجهة من نشطوا بها في عمايتهم إلى واحد من أقبح أهدافهم، وهو إذكاء الحقد على العرب، والزراية بهم، حسدًا من عند أنفسهم، وعقوقًا لسابق فضلهم عليهم، ورجعة إلى الباطل من معتقدات لآبائهم كانت وبالًا عليهم في جاهلياتهم الوثنية قبل الإسلام، ولا تزال وبالًا على خلفهم في مذاهبهم المنحولة والمدخولة التي لا تزال تعوق طريقهم القويم إلى صدق الإيمان والإسلام..

وإلا فكيف يستقيم طريق هؤلاء إلى الهدى، بتدبرهم للقرآن، وبوعيهم للآيات، إذا ظلوا مصرين – كما لا يزال أكثرهم إلى اليوم – على أن الغاية الأولى للوحي والتنزيل في كتاب الله المبين إنما كانت «تعجيز» العرب بيانيًا.. وليست – كما هو الحق، وكما هي شهادة القرآن الكريم – مواجهتهم وتذكيرهم بما هم أهله بإتباع هذا الحق الذي غفلوا إلى حين عنه.. ومن أجل هدايتهم به إلى برهان الله فيه على صدق الوحي، وصدق الرسالة، ووجوب الشكر.. بصدق الإيمان..

ثم لا يزال الطريق مفتوحًا.. والنور ساطعًا.. والصحوة جادة.. لهذه الأمة العربية في هذا العصر بين يدي كتاب الله.. لتعود إلى تدبره بالقلوب المفتوحة، والعقول الواعية، واللغة المبينة.. إن شاء الله.



الفصل الثاني

تاريخ الدعوة بين العرب إلى العامية

وموجز عن آثارها وهزيمتها في مصر



ونمضي مع تباشير هذه الصحوة العربية إلى إلقاء الضوء بصورة عامة على المخطط العدواني لتقويض أحد مقومات الدين الحق، والصحوة الكاملة، وهو اللغة العربية القرآنية الفصحى، والتي لا تزال تتعرض منذ غلبة الاستعمار على الوطن العربي للعديد من الأنشطة الخفية أو السافرة لتهجينها بالعربية، أملًا في تقويضها، وقطع ألسنة المتكلمين بها، كما حدث للجزائر بعد محنتها الطويلة جدًا بالاستعمار الفرنسي..

وفي هذا الفصل نقدم هذا الموجز من كتاب السيدة الفضلى، المستنيرة بعلمها، والمجاهدة عن دينها وقوميتها، الدكتورة نفوسة زكريا سعيد، الأستاذة بكلية آداب جامعة الإسكندرية، وعنوانه: «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر» وذلك حتى يتحقق استيفاء هذا الجانب التاريخي لأزمة الأمة العربية لغويًا، وفي هذه المرحلة الأخيرة من هذه الأزمة، حيث تلاحق في العصر الحديث تفجير مخططات الدعوة إلى «العامية لغة أساسية» وإلى استعمال الحروف اللاتينية الأوربية بدلًا من كتابة اللغة العربية بحروفها العربية التي نشأت معها منذ آلاف السنين، وقبل أن يفتح الأوربيون أعينهم – منذ قرون معدودة – على الكتابة والقراءة بأحرفهم، المستمدة بقصور من أصلها العربي..!

تقول السيدة الفضلى في كتابها المذكور الذي صدرت طبعته الأولى عن دار المعارف سنة 1384 هجرية وسنة 1964 ميلادية:

«إن وجود اللهجة العامية بجوار اللغة الفصحى – على ما بينهما من اختلاف – ظاهرة طبيعية في كل اللغات، ولكن الغريب والخطر، بعد مرحلة الاستعمار الإنجليزي، أنه بعد أن ازدادت الأدواء التي طرأت على اللسان العربي من أثر اللحن والتحريف والدخيل، وبعد أن كان علماء اللغة يتجهون إلى كلام العامة محاولين إصلاحه لا تدوينه، أن ظهر في عصرنا

من حاولوا اعتبار وجود الفصحى والعامية معًا مشكلة يرجعون بأسبابها إلى تأخر أبناء العربية، ويقترحون في حل هذه «المشكلة» طرح العربية التي لا تصلح في نظرهم للحضارة والثقافة المعاصرة، واتخاذ «العامية» لغة للأدب والكتابة حتى تكون لنا لغة واحدة للحديث والكتابة. ولئن كانت هذه الدعوة غريبة تمامًا في هذا العصر الذي يعتبره العرب عصر إحياء للغة العربية، وتحقيق أمل العرب في وحدتهم القومية بهذا الإحياء اللغوي، إلا أن هذه الغرابة تزول إذا عرفنا أن مصدر هذه الدعوة أجنبي، كما اتضح لي من دراسة الكتب الأجنبية التي تناولت دراسة اللهجة المصرية، وخاصة ما كان منها في أوائل عهد الاحتلال الإنجليزي لمصر».

وبعد أن أشارت الباحثة الفضلى إلى عدد من الكتب الأوربية التي ظهرت بعد الاحتلال الإنجليزي بالدعوة السافرة إلى تنشيط نشر العامية في مصر لغة واحدة للكلام والكتابة مثل ولهلم سبيتا الألماني الذي كان مديرًا لدار الكتب المصرية، وكارل فولرس الألماني وكان أيضًا مديرًا لدار الكتب، وسلدن ولمور الإنجليزي وكان قاضيًا بالمحاكم الأهلية بالقاهرة – تناولت بالإسهاب نشاط المهندس الإنجليزي وليم ولكوكس الذي كان مهندسًا للري بالقاهرة، والذي نشر أول وأعجب كتاب يفتتح به معركته الاستعمارية في حرب اللغة العربية، وإفراد اللهجة العامية المثخنة بالعلل العضوية والطفيلية، على أنقاض العربية، وكان عنوانه كتابه الغريب والوقح هو «سورية ومصر وشمال أفريقية ومالطة تتكلم البونية لا العربية».

ويعلن ويلكوكس من خلال كتابته عن كراهيته العرقية والشعوبية للعرب الذين هم في نظره أولئك الذين «أسقطوا دولة أجداده الرومان، وحرروا الوطن العربي في مصر والشام من مظالمهم وآثامهم

ومخازيهم، والذين هم في نظره أيضًا بهذا المنطق الاستعماري غير الأخلاقي، وبمثل منطق الشعوبيين ممن دخلوا مع كراهية العرب في الإسلام – «كسالى، وقتلة، ولصوص، وقطاع طرق..» وهي أوصاف أقل كثيرًا – مع براءة العرب منها – مما يوصف به الاستعمار في الواقع، وفي حكم التاريخ، برغم ما يضعه على وجهه من قناع المخادعة والتمويه أمام الشعوب التي يعمل على افتراسها..!

وقد بلغ الحمق بهذا المهندس الإنجليزي الاستعماري كما تروي الدكتورة نفوسة زكريا سعيد في كتابها من أخباره، أنه قام بترجمة قطع من روايات شكسبير إلى «العامية»! والغريب أنه نشرها في المكان الذي اتخذه كما تقول المؤلفة الفضلى «مسرحًا للدعوة إلى العامية» وهو مجلة الأزهر..!!!

وبرغم أن خيبة هذا الأفاق والقرصان اللغوي الإنجليزي كانت «واسعة» في هذه المحاولات الحمقاء التي فشلت أمام عينيه الحاقدتين، فإنه استمر يمارس حماقته المفضلة بحقد بالغ أكل كبده، وشوى لسانه، وذلك حيث قفز إلى محاولة ترجمة الإنجيل إلى العامية، وعلى سبيل المثال ترجم من العهد القديم من سفر «مزامير» أول ما جاء فيه من قوله:

«طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار وفي طريق الخطاة لم يقف وفي مجلس المستهزئين لم يجلس».

فكانت ترجمته العامية المناسبة لحماقته كما يأتي:

«يا بخت الراجل اللي ما مشاش في مشورة الأشرار وفي طريق الخطاة ما وقفش وفي مجلس المستهزئين ما جلسش»!!!

ثم تتناول المؤلفة الفضلى تاريخ التشجيع لاستعمال العامية في المرحلة السابقة للاستعمار الإنجليزي والتي مهدت لها في عهد خلفاء محمد علي فتذكر «رفاعة الطهطاوي» الذي كان من أوائل من قالوا بضبط العامية، ومن دعوا إلى كتابة الكتب بها، وذلك على أثر عودته من بعثته إلى أوربا..

ثم تذكر اليهودي الصهيوني يعقوب صنوع صاحب مجلة «أبو نظارة» و ج. زنانيري صاحب مجلة الغزالة، ومحمد النجار صاحب مجلة «الأرغول» وقد بدأت هذه المجلات مرحلة تنشيط فن الفكاهة بوصف أن ذلك أقرب وسيلة لنقد الكثير مما يجري من المفارقات والمظالم في عهد الخديو إسماعيل...!

وتمضي المؤلفة الفضلى في سردها التاريخي حتى تصل إلى سلامة موسى الذي يكشف عن وجهه القبيح في كراهية الفصحى، والاستماتة في محاربتها، وهو يقول عنها بالكذب والتضليل لخدمة الاستعمار: «اللغة التي لا نزال للآن نرطنها رطانة، ولم تتشربها بعد نفوسنا، ولا أمل في أن تتشرب بها لأنها غريبة عن مزاجنا»!!.. ثم يكرس كل دهائه في تأييد دعوة الاستعمار بتعميم العامية وحدها في مصر..!

ثم يأتي موقف أحمد لطفي السيد فيكتب في «تمصير اللغة العربية» من حيث أن المصريين في نظره القاصر، وفي هواه الشعوبي ليسوا عربًا، ومن حيث أن «العامية» كما يراها هي اللغة المفضلة للمسرح عند الخواص في عمومهم والعوام»..!!

ثم يلحق بهؤلاء عاميون جدد من أمثال: محمود تيمور، ومحمد حسين هيكل، وتوفيق الحكيم، ودعواتهم مشهورة في تشجيع العامية ومحاولة إزالة الفصحى!!

ثم أصابت العدوى حتى العلماء المتخصصين في دراسة الفصحى من أمثال سليمان محمد سليمان أستاذ اللغة العربية في مدرسة المعلمين العليا، والذي ألف كتابه «العامية في ثياب الفصحى» ليتحدث عن بلاغة العامية وأمثالها وخصائصها..!

ثم يظهر عبد العزيز فهمي باقتراحه الهدام لكتابة العربية بالحروف اللاتينية، والذي تقدم به إلى مجمع اللغة العربية في الجلسة التي عقدها في 3 مايو سنة 1943، ولئن لم يكن عبد العزيز فهمي أول داعية إلى مثل هذا الاقتراح إلا أنه كان أول من استغل مكانته في بذل جهود متواصلة لقبول اقتراحه الغريب والمستهجن، والذي أثار عليه السخط حتى بين ذوي قرباه..!

ولا تنسى المؤلفة الفضلى أن تشيد بهذه المرحلة التي أعقبت هذا الغثاء من حماقات وتأوهات مرضى العامية الذين ركعوا بغير حياء في خدمة الدعوات الأجنبية الاستعمارية في حرب اللغة العربية الفصحى، لغة القرآن والعلم، والأصالة والوحدة، فهي تتحدث بالتقدير عن هذا الظهور المضيء للشعراء الكبار الثلاثة في أحسن تعبير عن وحدة مصر الوطنية، والتاريخية، والحضارية حول لسان القرآن الكريم، وهم شوقي وحافظ ومطران رحمهم الله.. فكان هذا إرهاصًا بهزيمة تلك الأصوات العاوية والغاوية في الظلام بأملها الكاذب في أن تحقق للاستعمار المتربص هواه القديم في بعث رفات العامية، وبث أمراضها وعللها في أوصال شعب مصر لتخمد جذوته ويستكين، على حساب حياة الفصحى، وإشراق شمسها، وصحوة الآمال بها نحو الدين والوحدة، والعلم والتقدم..

وتختتم المؤلفة الفضلى كتابها القيم والممتع، وبعد تفاصيل عديدة، وملاحقات ذكية، بما تقرره بعد دراستها العلمية الفاحصة من هذه

الحقيقة المشرقة إشراق الشمس في سمائها الصافية، وهي انتهاء هذه المعارك الطويلة المتنوعة «إلى هزيمة العامية، وانتصار الفصحى» التي تمضي بهذا النصر على الطريق المفتوح أمامها، نحو تحقيق الأمل الكبير للعرب في وحدتهم تحت أضوائها، وذلك حيث تقول:

«إن الحملة التي قام بها كل هؤلاء على اللغة العربية الفصحى، والتي هدفوا بها إلى القضاء عليها، لم تستطع أن تنال منها، وإنما دفعت كثيرًا من أبنائها إلى القيام بأبحاث قيمة للذود عنها، مما كان له الفضل الكبير في الكشف عن أسرار العربية الفصحى، ودقائقها، وبيان عراقتها، وقدرتها على مسايرة الحضارات في مختلف العصور».

ثم تقول:

«إن كل ما تركته هذه الدعوة للعامية من آثار في اللغة والأدب هو هذا الترجيح لكفة الفصحى على العامية، وهذا الوضوح النظري والعملي لحقيقة كل منهما».

ثم تقول:

«إن غلبة الفصحى على العامية لم تكن نتيجة لما للفصحى من اعتبارات دينية وتاريخية وثقافية فقط، بل لأن التجربة هي التي ردت لها اعتبارها، ولهذا فإن الرأي العام متجه إلى التمسك بالفصحى، بقدر ما يقويه نحو الوعي القومي، وازدياد عوامل التواصل بين البلاد العربية، وانتشار التعليم. والأدلة على تمسك الرأي العام المصري بالفصحى لا حصر لها، ونلمسها في ميل رجل الشارع إذا خاطب المثقفين إلى تهذيب عبارته حتى يدنو بها من الفصحى»

ثم.. وكأنها تلخص هذه الحقيقة المشرقة التي مرت بمعالمها وظواهرها في دراستها التاريخية لتاريخ الغواية الطارئة بالدعوة إلى العامية.. أي هذه الحقيقة بانتصار الفصحى، وأنها على الطريق الواسع لمزيد من الانتصارات، بقدر المزيد من الصحوات.. فهي تقول في عبارة جلية مضيئة:

«إننا على ضوء كل هذه الحقائق يمكن أن نقرر فشل الدعوة إلى العامية، بعد أن أثارت الكثير من مشاكلنا اللغوية والأوربية طوال هذا القرن.. لقد فشلت حقًا هذه الدعوة الجانحة التي بدأت بالثورة على الفصحى.. وانتهت بالثورة لها»..

ومن هنا ينفتح أمامنا الطريق إلى ملخصات أخرى لأمثلة من هذا الأبحاث اللغوية الجادة، في مجال التعريف بالفصحى، والدفاع عنها، والتنوير بخصائصها الحية، والمتجددة، في بناء وحدة الفكر، ووحدة المنهج، ووحدة المجتمع، في حياة العرب المعاصرين.. كما كان بأجلى صوره، وأكرم واقعه في حياة العرب الأولين.. كما نقدم هذه الملخصات بأقلام عدد من علماء اللغة المعاصرين في الفصول القادمة إن شاء الله.



الفصل الثالث

تدهور مستوى المتكلمين باللغة العربية

الجذور القديمة والمعاصرة للمشكلة والمخرج منها

ونبدأ في هذا الفصل بنقل مقتطفات متكاملة من دراسة حول اللغة الفصحى ومشكلاتها لعالم اللغة المصري المتخصص الدكتور محمد رشاد خليل والأستاذ حاليًا بجامعةالرياض، وقد سبق له نشرها سنة 1397 هجرية وسنة 1977 ميلادية في الجزء الخامس من الكتاب السنوي «مع القرآن الكريم» الذي تصدره للعاملين بها شركة «المقاولون العرب عثمان أحمد عثمان» .. إنه يقول من تاريخ هذه المشكلة:

تاريخ المشكلة:

«إن مشكلة تدهور مستوى المتكلمين باللغة العربية في النطق بهذه اللغة مشكلة قديمة ومزمنة، وهي مشكلة سابقة على العصر الحديث، وعلى خطط الاستعمار لإضعاف هذه اللغة بأزمان طويلة نردها إلى بداية القرن السادس الهجري، وإلى ظروف حضارية وثقافية وسياسية خاصة بالوطن العربي والعالم الإسلامي».

«ويمكن القول بأن الدراسات اللغوية قد توقفت عن النمو، وبدأت مرحلة التدهور منذ ذلك التاريخ، أي بعد أن فقدت الفاعلية العربية داخل تيار الحضارة الإسلامية قدرتها على التأثير والتوجيه والسيطرة. فلقد توقفت الجهود التي تبذل لخدمة اللغة العربية بعد القرن الخامس الهجري عند أعمال هامشية في مجالات الشرح والتعليق، والتحقيق والتصويب..».

«وأما الأعمال المبتكرة التي يفيض بها الذهن المبدع فقد قضى عليها ظهور العنصر التركي على ساحة السياسة، واستبداد قواده بأمر الخلافة، مع ضيق الأفق في الفكر، وقلة الحماسة للعلم. وقد ظلت هذه الظاهرة تستشري باطراد في الوطن العربي والعالم الإسلامي يومًا بعد آخر، حتى انتهت آخر الأمر إلى إعلان ما سموه قفل باب الاجتهاد، وكان معنى ذلك

ببساطة إضفاء الشرعية على «التقليد» والتماس النجاة إلى جوار هشيم «المحفوظات» التي بردت حرارتها، وفقدت معانيها، وضاعت دلالالتها، وحيث اضطرت الأجيال العاجزة عن مواصلة المد العلمي، وتصحيح المسار الثقافي والحضاري والسياسي – إلى أن ترفع هذا الشعار المهيض الأجنحة وهو: «من قلد عالمًا لقى الله سالمًا»..؟؟!

ثم يقول الدكتور محمد رشاد خليل:

«ومن البداية فقد نشأت دراسة اللغة العربية الفصحى من كل وجوهها علاجًا لظاهرة كان يخشى منها على اللغة، وعلى صحة حفظ القرآن الكريم، وهي ظاهرة «ذيوع اللحن» التي أعتقد أنها تجاوزت المفهوم المبسط لها وهو مجرد الخطأ في ضبط أواخر الكلمات إلى جملة من الأخطاء اللغوية والصوتية التي شاعت على ألسنة حديثي الإسلام من الأعاجم، والذين كانوا ينطقون العربية على مقتضى الأعجمية الفارسية أو اليونانية أو غيرهما من اللغات الآرية التي تعجز عن نطق عدد من حروف العربية المميزة لها مثل «الضاد والطاء والحاء والعين والقاف» وكانت هذه الأخطاء الصوتية التي أصابت عدواها مع الزمن بعض العرب إلى جانب أكثر الموالي، مثار تندر ورواية تناقلتها كتب الأدب مثل «الأغاني»، كما ظهرت شخصيات شهيرة تلتصق بها هذه النوادر المضحكة في ألوان اللحن. وصور التدهور في نطق العربية في القوالب الصوتية الأعجمية، مثل ابن عطاء السندي أو سعد الزندخاني وكثيرين غيرهما في هذا المجال..!»

«كذلك امتدت هذه الأخطاء اللغوية من ضبط أواخر الكلمات على الحركة الإعرابية، ومن الخلل بمقتضى العجمة في محاكاة النطق الفصيح بالعربية إلى التحريف الذي تتعرض له بنية الكلمة العربية، وصيغ تصريفها، وإلى أنواع مبتكرة من الأخطاء النحوية تتعدى حركة الإعراب.

هذا إلى الخطأ الذي يتكرر بالسلائق الأعجمية وهو الجنوح إلى استعمال الكلمة الأجنبية دون الكلمة العربية التي لها نفس المعنى أو ما هو أتم منه، وهي أخطاء تبدأ كلها من مباني الكلمات، وقوالبها الصوتية، ثم تنتهي غالبًا إلى تحريف لمعاني الكلمات لم يكن في الأصل مقصودًا لذاته..»

«يضاف إلى ذلك ما سبق أن ذكرناه من غلبة المنطق اليوناني على منهج الفكر العربي الإسلامي، وعلى المباحث العربية الإسلامية، حتى رأينا النحو واللغة والفقه في العصور المتأخرة يغلب على الكثير منها ركاكة الأسلوب، وفساد العبارة، وكأنها قد كتبت بلغة أخرى غير العربية».

الاستعمار واللغة:

وتحت هذا العنوان يمضي الدكتور محمد رشاد خليل في هذه الدراسة لتاريخ تدهور اللغة العربية في ألسنة المتكلمين بها اليوم فيقول:

«وحين دخل الوطن العربي محاق الاستعمار الغربي تعرض على الفور لحملته المخططة في كل اتجاه للقضاء على اللغة العربية، وذلك لقطع الصلة الباقية بين المسلمين والإسلام، والإجهاز على شريان الحياة الذي يربطهم بتراثهم الخصب، وتاريخهم الحي، وإزالة معالم شخصيتهم القومية والتاريخية حتى يسهل على المستعمر إحكام السيطرة عليهم، وتفريق كلمتهم، وإنهاء الأمل في وحدتهم، وفي استمرار وجودهم التاريخي والحضاري والثقافي في هذا العالم..»

«ولقد أدركت القوى الاستعمارية وهي تبلغ ذروة القوة المادية في الوقت الذي بلغ فيه الوطن العربي والعالم الإسلامي آخر مراحل الضعف

والتخلف – أن مصدر قوة المسلمين بالإسلام هو القرآن الكريم، وأن الطريق إلى القرآن الكريم في حياة العرب والمسلمين ليتدبروه ويعيشوا أحكامه وأخلاقه إلى مقاصد الله وغاياته به، فهو الحفاظ على اللغة العربية التي تستبقي للعرب مركز الإشعاع الإسلامي لغة ودينًا، وتاريخًا وموقعًا، وأسوة بين المسلمين في العالم..»

«وكان أول ما اتجه إليه الاستعمار هو التذرع بتشيط حركة الإرساليات التبشيرية التي دفع بها إلى قلب العالم الإسلامي وهو الوطن العربي، لتهيئ جميع الوسائل التي تشغل المسلمين به عن دينهم، وعن عمود هذا الدين في منارته المستمرة والمتجددة وهو القرآن الكريم، وكان شعارهم في ذلك ما رفعه أحد غلاة المستشرقين تعبيرًا عن الهدف العدواني القديم في أوربا تجاه الوطن العربي وخبراته وموقعه، وذلك حيث يقول وليم جيفور دبلجراف: «متى توارى القرآن الكريم ومدينة مكة من بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه»!!..»

«وفي هذا الاتجاه الخفي والظاهر للقضاء على مقومات الوجود بالإسلام بين المسلمين، وفي مقدمتها اللغة العربية الفصحى، الحافظة للطرق المفتوحة إلى القرآن الكريم، والتراث، والشخصية التاريخية والحضارية للمسلم – عقد الاستعمار جملة مؤتمرات لتجديد الخطط الموضوعة نحو هذا الاتجاه، فمن ذلك المؤتمر الاستعماري المنعقد في أدنبرج عام 1910 والذي جاء في قراراته ما يأتي:

«إن ارتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم، ولذلك فإن المؤتمر الاستعماري ينصح للحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة. والمؤتمر الاستعماري مع اعترافه بضرورة المحافظة على

مظاهر الحياد في الشئون الدينية فإنه يشير على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام»..

«ولقد أخذت المدارس التبشيرية تنتشر في ظل الرعاية الاستعمارية في طول العالم الإسلامي وعرضه، وبخاصة في الوطن العربي، حيث كانت المدارس تدرس كافة العلوم باللغات الأجنبية، ومن وجهة نظر مسيحية غربية، مما عمل على تنشئة أجيال مقطوعة الصلة بتراثها العربي الإسلامي، وبلغتها العربية. وكان من الطبيعي تحت سلطة ونفوذ الاستعمار في البلاد أن يصل عدد من خريجي هذه المدارس إلى المواقع القيادية التي يتاح لهم منها تنشيط الاتجاه إلى الانفصال عن كل المقومات والروابط العربية الإسلامية في حياة الأجيال المغتربة عن ذاتها العربية، وحقيقتها الإسلامية، وبذلك يمكن تفكيك شخصيتها، ودفعها للضياع في تيار التبعية للغرب».

الدعوة للعامية:

ثم يشير الدكتور محمد رشاد خليل إلى تلك الحملات الاستعمارية النشطة بالدعوة إلى العامية فيقول:

«ومن هذا النفير الاستعماري بإعلان الحرب على العربية، والتهوين من أمرها، واختلاق التهم لها – انطلقت الدعوة إلى استعمال الحروف اللاتينية، والدعوة إلى إحلال العاميات في كل الأقطار العربية محل الفصحى، والدعوة إلى دراسة اللهجات العامية وما كتب فيها من الآثار والآداب مما يسمونه «الأدب الشعبي»، وكذلك الدعوة إلى تطوير الدراسات اللغوية العربية بحيث تتمشى مع الدراسات اللغوية عند الغرب، وذلك بإدخال علم اللغة العام بالمفهوم الأوربي في مناهج الدراسة في أقسام اللغة العربية بكليات الآداب، وفي كلية دار العلوم، وفي كلية اللغة

العربية بالأزهر، كما تمضي هذه الدعوة إلى إدخال الدراسات الصوتية التي يسميها الغربيون «فونكس» وهي فرع من دراسات علم اللغة العام عندهم..»

«ولقد خرجت الدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى من حيز الترويج إلى حيز التطبيق على صورتين:

الأولى – صورة ثقافية إعلامية تقوم بها أجهزة الثقافة والإعلام في كافة الأقطار العربية، وذلك عن طريق المسرح والسينما، والراديو والتليفزيون، وهي أدوات هائلة التأثير على الجماهير العريضة غير المحصنة بمقومات شخصيتها العربية الإسلامية، والتي تستهويها المؤثرات السمعية والبصرية فلا تملك وعي المخاطر التي تتعرض لها لغتها العربية الصحيحة..

الثانية – صورة تعليمية دولية تشرف عليها منظمة اليونسكو، ومؤسسة فورد الصهيونية، ومؤسسة فرنكلين، والجامعات الأمريكية، وهي بكل نشاطها العلني والخفي تهدف إلى إحلال النموذج الأمريكي للحضارة الأوربية العلمانية فوق أرض الوطن العربي محل ما يمكن أن يقيمه العرب في صحوتهم المعاصرة من كيانهم العربي الإسلامي، اعتمادًا على مصادرهم الحية والباقية في القرآن الكريم، والسنة النبوية، والتراث والتاريخ..»

رسالة الأزهر:

ويمضي الدكتور محمد رشاد خليل في تعقب جذور هذه المشكلة في تدهور اللغة العربية في ألسنة المتكلمين بها برغم المصادر الباقية والحافظة لها، فيذكر بالتفاؤل قوة صمود اللغة العربية لأعدائها ويقول:

«إننا ونحن نرى مع الأسى الشديد تزايد هذه المخاطر على اللغة العربية، حتى بعد عصر التحرر، والجهاد المتواصل لاستكمال تحرير الأرض، وحريات المجتمع في الوطن العربي، لا ندع سبيلًا لعوامل اليأس، بل إننا إلى التفاؤل أقرب، وفي مجال هذا التفاؤل نذكر اليوم مصير تلك الدعوة التي هزت مصر في العشرينات من الدهشة والاستنكار عندما بدأ «طه حسين» يردد في كتبه وخطبه هذه الاتجاهات الأوربية لفصل اللغة العربية عن رسالتها الدينية والدنيوية في نفس الوقت، وإخضاعها لأهواء دعاة السوقية والعامية في لغة الكتابة والأدب والعلم.. ونتساءل أين ذهبت هذه الدعوة التي ظن البعض يومها أنها هي الضربة القاضية على لغة القرآن الكريم.. وكيف أصبحت حال الأمة العربية وهي تتطور من الخمسينات حتى السبعينات، مع تعاظم رسالة اللغة العربية الفصحى في الربط الثقافي والسياسي والاقتصادي للشعوب العربية، فوق عوائق وحدتها، وباتجاه تنشيط مقوماتها؟

«ولقد كان ذلك الداعية كثير الاغترار بمصير دعوته، وهو متربع على مقعده في الجامعة، وفي وزارة التعليم، حيث بلغت جرأته على الحق أن يكتب في أحد كتبه فيقول في هجومه على اللغة العربية، وعلى من سماهم رجال الدين وهم علماء الدين:

«الذين يزعمون أننا نتعلم اللغة العربية ونعلمها لأنها لغة الدين فحسب، ثم يرتبون على ذلك ما يرتبون من النتائج العلمية والعملية، إنما يخدعون الناس. إن اللغة العربية ليست ملكًا لرجال الدين، يؤمنون وحدهم بها، ويقومون وحدهم من دونها، ويتصرفون وحدهم فيها، لكنها ملك الذين يتكلمونها جميعًا من الأمم والأجيال، وكل فرد من هؤلاء الناس حر في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المالك متى استوفى الشروط التي

تبيح له هذا التصرف. وإذن فمن السخف أن يظن أن تعليم اللغة العربية وقف على الأزهر والأزهريين وعلى المدارس التي تتصل بينها وبين الأزهر والأزهريين أسباب طوال أو قصار، هذا سخف لأن الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية جميعًا، وفيهم المسلم وغير المسلم..»!!

«والغرض الذي كان يرمي إليه صاحب هذا الكلام هو أن ينزع عن العربية قداستها التي صارت لها بنزول القرآن الكريم على لسانها، وأن يحرمها من حماية الدين وحصانته، وذلك حتى تتكشف لكل أعدائها فيتيسر لهم الإجهاز عليها بعد تجريدها من كل نصير وغيور، وهم الذين لا يزالون الطليعة من علماء الدين، ومن الغيورين المؤمنين من علماء اللغة، ومع ذلك فإنه برغم كل الطنين والدوى لهذه الدعوة الجائرة فقد بقيت اللغة العربية في ألسنة أهلها تزداد شبابًا ولا تكتهل أبدًا، وهي تمضي ثابتة الخطى في التعبير عن تقدم العرب دون أن تتراجع، وأمامها الكثير لتقدمه لهذه الأمة في عزمها على تقنين الشريعة، وتعريب لغة العلم، وبناء مجتمع المؤمنين..»

«لا شك أن رسالة الأزهر، وعلماء الدين تتسع بطبيعتها مع الحاجة إلى دعم وحدة التعليم الديني والمدني في كل المراحل، لمواجهة هذه الابتداعات من حيث أن علماء الدين بالأزهر، ومن شيوخ الكليات الدينية واللغوية المتخصصة، هم القيادة الواعية ضد مخاطر البدع القديمة والمستحدثة على عقائد المسلمين، وعلى التكوين السليم لأجيالهم الذين سيناط بهم – على خط التحرير والتنوير والتقدم للوطن العربي والعالم الإسلامي – أشرف وأخطر الغايات التي يعمل لتحقيقها المسلمون في هذا

العصر، وهي جميعها كما يعلمون «بدع مستوردة» من خصوم العرب والإسلام..»

الأجيال الجديدة:

ثم يتحدث الدكتور محمد رشاد خليل عن تحصين الأجيال الجديدة منذ طفولتها الغضة من خطر هذا السيل من العامية واللغة السوقية في كتبهم، والعودة بهم وهم أمل مصر إلى منابع الفصحى في كتاب الله كما عاش بها أسلافهم على هذه الأرض الطيبة فيقول:

«وعندما نتتبع مناهج التعليم المعاصرة، والتي ابتعدت عن أن تجعل من القرآن الكريم مصدرًا للتربية في مراحل الإعداد الأولى لتعليم الأطفال، نجد من ذلك كتب «القراءة الجديدة» المتداولة في مصر، والتي تصدر في مناخ هذا الابتداع الذي يراد به ترويج البدائل العامية لمنع ازدهار اللغة العربية الفصحى، مستندة بكل كمالها وتراثها وحيويتها إلى القرآن الكريم..»

«ففي هذه الكتب التي يتزعزع بها الأساس الفطري في وعي أطفالنا للتعبير بالفصحى تظهر محاولات من يصدرونها لتبرير أسلوبهم الغريب الذي لا يمكن وصفه بأنه عربي، وذلك مثل زعمهم أن الكلمات المسجلة في هذه الكتب والتي تبدو أنها عامية مصرية، لها أصل تنتهي به في معاجم اللغة إلى إحدى لهجات العرب، هذا برغم وضوح أنها تتجنب عامدة هذا الفصيح الذي أجمع عليه العرب، وأنها تتعمد أن تجعل من هذه الكلمات الملتقطة من أسواق مصر وطرقاتها لغة مقررة، مع أنها ليست عامة في بلاد العرب كما يعم الفصيح المجمع عليه، وكما أن المستعمل منها في بعض

الأقطار العربية لا يجري في عامية هذه الأقطار إلا على معنى آخر غير المستعمل في مصر، وبذلك تنمو وتتأكد هذه القطيعة اللغوية بين الشعوب العربية على فرض نجاح مثل هذه الكتب في عزل الأجيال الجديدة عن طريق الوحدة الحتمي بين العرب،' وذلك بعزلهم منذ الطفولة عن منابع الفصحى التي لا تتحقق بغيرها هذه الوحدة بكل دلالاتها على إمكان إقامة الكيان العربي الإسلامي المتماسك، فوق هذه الأرض الطيبة، مهد الدين، ومهد الحضارات، التي يدور عليها، ويحاصرها في هذا العصر، إعصار هذا الصراع المذهبي بين الدول الكبرى تحت شعارات وخطط الشيوعية والصهيونية والاستعمار..».

الجهاد بالقرآن:

ثم ينتهي الدكتور محمد رشاد خليل أخيرًا إلى منارة الأمل المتجدد في حفظ اللغة العربية، وإحياء الفصيح من لسانها، وتحقيق وحدة الأمة العربية على طريق تجددها وازدهارها، وهو القرآن الكريم، فيقول من الدعوة إلى الجهاد به، والجهاد عنه:

«وأخيرًا.. كما هو أولًا.. يبقى بعد كل هذه المخاطر والمخططات، وبرغم كل هذه المخاطر والمخططات – هذا الكتاب الكريم، والقرآن الكريم، لكي تتضافر جهودنا – كما أمرنا الله – على الجهاد به، والانطلاق منه، في دعم اللغة العربية، لتنشأ عليها بحفظ آياته هذه الطفولة الصحيحة الناضرة، غير المعوقة، ولتنمو الأجيال العربية المؤمنة على أساس هذه النشأة الصحيحة منذ الطفولة نموها الحضاري، والثقافي،

والعصري، بالإسلام السمح، ومنهج القرآن الجلي، من غير عقد، أو متاهات، أو متشابهات..».

«ومن البداية يجب أن نقرر أن التخطيط المعادي يجب أن نواجهه بتخطيط وطني قومي، وأن العمل الجماعي يجب أن يواجه بعمل جماعي، تتضافر به الجهود الواعية من أبناء هذه الأمة – شعبًا ودولة لتحقيق أهدافها التي تؤمن بقدسيتها، مع السعي المتواصل من الجميع بإيقاع يجمع بين الصدق والعلم والتعاون، من أجل بلوغ هذه الأهداف مهما كان الجهد، ومهما كان الثمن، ومهما طال الزمن...».

الفصل الرابع

مشكلة إعداد معلمي اللغة العربية

ومدى العقم في طرقها ومناهجها إلى اليوم

ونمضي في هذا الفصل فننقل مقتطفات أخرى متكاملة الدلالة حول اللغة العربية الفصحى، والوسائل الجادة، والطرق المفتوحة، لإحيائها والنهوض بها، من دراسة للدكتور السيد رزق الطويل المدرس بجامعة الأزهر، ورئيس جمعية دعوة الحق السلفية الإسلامية، نشرها في الجزء السادس من نفس المصدر السابق، أي من الكتاب السنوي «مع القرآن الكريم» والذي صدر سنة 1398 هجرية وسنة 1978 ميلادية.

بين الأزهر والجامعة:

يستهل الدكتور رزق الطويل نظرته إلى منطلق الإحياء والإنهاض للعربية الفصحى من مناراتها الطبيعية في الأزهر والجامعة فيقول:

«منذ قرون طويلة كان الأزهر في مصر قائمًا على أمر اللغة العربية، والدراسات الإسلامية، وظل له هذا السلطان، بل إن سلطانه قد تأكد في عصور سيطر فيها الضعف والتخلف على مصر والوطن العربي، حيث لم يبق من منارة للعلم والثقافة العربية الإسلامية في هذا الوطن الكبير إلا حيث الأزهر في مصر، وحيث تتناثر بعض المساجد التي تواصل رسالة التعليم الإسلامي، مع بعض الكتاتيب المنبثة في القرى والمدن تجاهد بتحفيظ القرآن الكريم..

«ولقد استمر ذلك الظلام الكثيف عدة قرون هي جانب من عصر المماليك، مع عصر العثمانيين بأكمله..

«وهذا الأثر العلمي الذي كان للأزهر في هذه الفترة وإن كان ضئيلًا إلا أنه وسط تلك الظلمات المطبقة كان علامة حياة، وإصرار على الحياة. فلقد استطاع برغم كل شيء أن يحتفظ بقدرة اللغة العربية على البقاء، وأن يحافظ على القرآن الكريم مصدرًا لبقائها، ونورًا لشعلتها، التي ظلت

بجهد الأزهر في تلك القرون العصيبة مضيئة، وإن لم تكن واسعة الإشراق والإشعاع..

«وفي بداية القرن التاسع عشر ظهرت بوادر جديدة في صورة حركة تعليمية واسعة نبتت في الأزهر أيضًا، وكان باعثها محمد علي الذي لم يكن يقصد تعزيز حق العرب في العلم والتعلم، بقدر ما كان يقصد إلى بناء جيش من أبناء مصر العربية يحقق به طموحه وأطماعه، فكان لزامًا أن يبعث بنهضة تعليمية استفادت منها اللغة العربية طوال حركة بناء الجيش..

«ثم تأسست دار العلوم في عهد إسماعيل، وقام عليها علي مبارك، الذي عزز بمناهج هذه الدار رسالة الأزهر اللغوية والإسلامية، مع توسعه في تغذية منابع تعليم اللغة العربية، والتمكين من تذوقها، والكشف عن خصائص بلاغتها، في منهجه لإعداد المدرس الصالح لها، وذلك بالعناية التي وجهها إلى الدراسة الأدبية والنقدية، وبهذا الأساس الذي أرساه بزيادة الاهتمام بدراسة الشعر العربي القديم قبل الإسلام، مع متابعة الحديث عن أدب العصر لمناقشته والحكم عليه..

«وفي أوائل القرن العشرين، ومع احتدام المواجهة مع الفصائل التي جندها الاستعمار لتقويض مقومات اللغة والدين والانتماء القومي العربي، كان الأزهر ودار العلوم قد أنضجا معًا بثقافة عربية إسلامية أساسها المتين هو القرآن الكريم – عددًا وافرًا من المفكرين، والأدباء، والصحفيين، الذين كان أثرهم واضحًا في الانتصار لهذه المقومات، في حركة فكرية غنية بالمؤلفات الجديدة، والحوارات البليغة، تم بها الصمود والردع لأصحاب هذه التيارات المستهجنة، التي استهدفت – على طبيعة الاستعمار – أن تقضي على اللغة العربية..

«ثم أنشئ قسم اللغة العربية في كلية الآداب، وكانت رسالته – وقد أنشئ ردًا على هزيمة التيارات الوافدة في المرحلة السابقة – أن يكون مركزًا لتخريج أجيال جديدة من معلمي اللغة العربية، تتجه بأفكارها تحت شعار «حرية الجامعة» إلى الإشادة بأقوال المستشرقين المعادية لتراثنا، مع قلة اكتراث بدراسة النحو. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الطالب بهذا القسم ليس له نصيب من حفظ القرآن الكريم، كان معنى ذلك أن خريج هذا القسم يتم إعداده باتجاه ومحتوى غربي في فهم اللغة العربية التي لا يحسن الأداء الصوتي للسانها، بينما هو في ظاهره دارس «متخصص» في اللغة العربية..!

«ومن المؤسف حقًا أن يكون قسم اللغة العربية بكلية الآداب بالجامعات هو القدوة التي انتزعت إلى محاكاتها مناهج كلية اللغة العربية بالأزهر، ومناهج كلية دار العلوم. فالجميع في هذا العصر لا نكاد نجد بينهم من يحفظ القرآن الكريم، وتلك ولا شك قاصمة الظهر لكل دارس للغة العربية..

«إن الطالب في معاهد اللغة العربية على تنوعها يتشابه مع أخيه في أنه يدرس علومًا شتى: لغوية وغير لغوية، ثم هو يتخرج بأمشاج من الثقافات المتباينة حول إلمام هزيل وضئيل بلغته العربية التي يراد إعداده ليكون مدرسًا وأستاذًا لها. أما نطقه لهذه اللغة فهو أكثر ضآلة وهزالًا. وهكذا فإن حال الخريجين من هذه المعاهد والكليات المتخصصة في إعداد معلم اللغة العربية هو في حد ذاته شاهد أمين على عقم المناهج وطرق الإعداد النفسي والتربوي والعلمي بهذه المعاهد..

«بل إننا نجد أحيانًا ما هو أغرب من ذلك في أحوال من يتقدمون لنيل الإجازات العليا في اللغة العربية، ورسائلهم كما هو المفروض فيها هي قمة

التخصص، وذلك حين نجدهم أمام لجان المناقشة لرسائلهم يتحدثون بالعامية، أو هم يهربون إليها أحيانًا، كما نسمع منهم في لحظات التزامهم بالفصحى ألوانًا اللحن يتنزه عنها الدارس المبتدئ، فضلًا عن الباحث المنتهي..!

«إن الأمر ولا شك بكل هذه الظواهر من العقم، والتجمد، والتخلف، في طرق ومناهج تعليم اللغة العربية بجميع مراحل التعليم، يحتاج إلى إصلاح جذري، فضلًا عن ضرورة ملء الفراغ الذي كانت تشغل به «كتاتيب» حفظ القرآن الكريم أعوام الطفولة حتى السنة السادسة، وذلك بتعميم نظام الحضانات التي تؤسس عليها الدولة كل مراحل التعليم، والتي يقوى فيها الأساس الديني واللغوي بتحفيظ القرآن الكريم، ابتداء من تعليم القراءة والكتابة خلال حفظ السور الأولى منه، أساسًا لبناء صرح التعليم كله بناء سليمًا من فوقه.. أي ابتداء من هذه الحضانات القرآنية المتسقة مع العصر، وحتى كليات الأزهر والجامعة، مرورًا بكل فروع ومستويات التعليم..»).

العودة للقرآن:

ويمضي الشيخ الدكتور رزق الطويل في دراسته القيمة لحل المشكلة الرئيسية في إحياء الفصحى ونشرها وهي هذه الطرق المحكومة بالعقم والتجمد والتخلف في مناهج إعداد معلمي اللغة العربية فيما بين الأزهر والجامعة فيقول من مقترحاته العملية لمواجهة وإصلاح أسباب العقم والتخلف:

«وعلى ضوء ما قدمت من العيوب والآفات الظاهرة في مناهج إعداد معلمي اللغة العربية، أطرح فيما يلي أهم المقترحات التي أرى أن في الأخذ بها تخلصًا من هذه العيوب، وتثبيتًا للمناهج والطرق التربوية الراشدة التي

تتدعم بها حركة إحياء اللغة العربية الفصحى في حياة شعبنا المصري العربي، المجاهد عن ذاته، ومعتقداته، وآماله..

«والبداية هي العودة الجادة إلى تحفيظ القرآن الكريم في المرحلة الأولى قبل الابتدائي، والتي يجب أن تعمر بها سنوات الطفل التشكيلية الأولى بالتكوين القرآني المباشر لنطقه الحروف والكلمات والجمل، وذلك بأن تتقرر في نظام تطوير التعليم عودة مكاتب تحفيظ القرآن، أو «الحضانات» بمفهومها الإسلامي في التكوين السليم للمرحلة الأولى من حياة الطفل..

«فإذا ما بدا لنا من المعوقات أننا قد لا نجد المعلم الذي يستطيع الإلقاء الصحيح لآيات الله على الأطفال في هذه المرحلة الأولى قبل الابتدائي، أي بهذا الإلقاء الصحيح للحروف ومخارجها بالقدر الذي نعول عليه في نجاح هذه المرحلة، كان من الممكن تجاوز هذا العائق من طريق الاستعانة بالأشرطة المسجلة للمصحف المرتل، وذلك بأن يقوم المدرس — بعد دورة تدريبية — بإسماع الأطفال مرة بعد أخرى هذا القدر من الآيات التي يريد لهم أن يحفظوها حفظًا سليمًا، إلى أن يتم مع الجهد الصادق إعداد هذا الجيل المنتظر من الحافظين المجودين للقرآن الكريم للإشراف السليم على هذه الحضانات القرآنية كما نتصور قيامها وتعميمها إن شاء الله..

«ومن ثم فإن العناية باستمرار تحفيظ القرآن الكريم في المراحل التالية من الابتدائي حتى الإعدادي وإلى الثانوي يجب أن تستمر في التصاعد لتحقيق الغاية منها في سلامة التكوين اللغوي، والوعي الديني، والانتماء القومي، في حياة هذه الأجيال التي نحمل أمانة إعدادها لمهام وآمال المستقبل، في وجه تحديات العصر، ونحو المنشود والمشروع من هذه

الآمال الكبيرة باتساع الوطن العربي، والعالم الإسلامي، ومع المعاصرة بالتقدم والسلام باتجاه جميع شعوب العالم..

«هذا ولابد في مجال العودة المقررة إلى تحفيظ القرآن الكريم – من أن يعود الأزهر الحديث فيستمسك استمساكه الجاد السابق بتطبيق الشرط القديم، وهو ألا يدخل المرحلة الإعدادية للأزهر إلا من يحفظ القرآن الكريم حفظًا كاملًا، وعلى أن يعفي هؤلاء الحفاظ للقرآن من شرط المجموع في المرحلتين الإعدادية والثانوية».

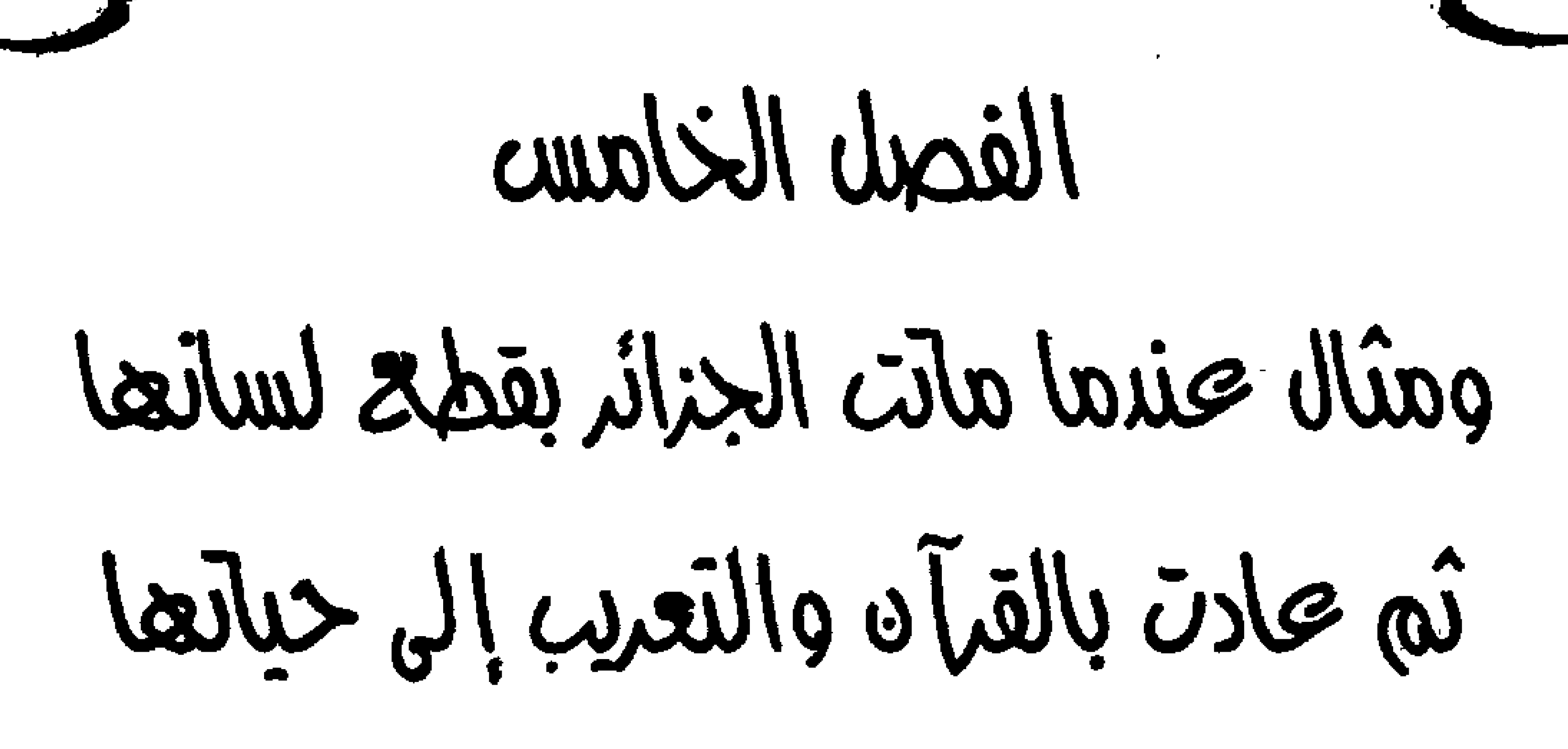
«كذلك لابد للمعاهد التي تقوم بالدراسة اللغوية المتخصصة لتخريج مدرسين متخصصين في اللغة العربية، وذلك في كلية دار العلوم، أو في أقسام اللغة العربية بكليات الآداب بالجامعة، ألا تقبل بين طلابها من لا يحفظ القرآن الكريم..

«ولكي نوفر المناخ اللغوي السليم عن طريق الإكثار من عدد الحافظين للقرآن الكريم فإن علينا أن نقدم لشبابنا الحافز على هذا الحفظ، وذلك بأن نعطي طالب الثانوية العامة حق زيادة 10٪ من مجموع الدرجات التي يحصل عليها عند النجاح إذا ما تحقق له شرط حفظ القرآن الكريم، ولا غرابة في ذلك ونحن نقدم مثل هذا الحافز في حالات البطولة الرياضية ونحوها...»

ونكتفي بهذا القدر من الاستشهاد بأقوال الدكتور السيد رزق الطويل في هذه الدراسة المتميزة بالخبرة والممارسة لعالم لغة معاصر، وداعية إلى الإسلام يشعر في ممارسته للدعوة بهول هذا الفراغ في ميادين الدعوة المفتوحة من الأثر الفعال لهذه اللغة الفصحى، المؤلفة للقلوب على الحق، والجامعة للعقول على العلم. ذلك أن فيما نقلناه من أقواله حول عقم مناهج وطرق الإعداد لمعلمي اللغة العربية، مع تضارب وجهات وأساليب

الأزهر والجامعة ودار العلوم حول ما كان ينبغي أن يكون متسقًا ومتناميًا من هذه الوحدة التربوية والنفسية والعلمية في مناهجها وصرفها.. إن فيما نقلناه من هذه الشهادة المثيرة لاهتمام جميع المسئولين عن هذه المنارات العلمية الكبرى في بلادنا ما يكفي لتأكيد صحة هذا الرباط الذي لا ينفصم في صحوة العقل العربي بين صحة التعبير باللسان العربي وسلامة التفكير بالمنهج الإسلامي.. هذا وإن كان الدكتور الطويل قد تناول من القضايا الهامة في مجال النهوض باللغة العربية – بعد الذي ذكرناه – كثيرًا مما نكتفي لقيمته بهذه الإشارة إليه مثل: الكتاب المدرسي – والمدارس الخاصة – وقواعد اللغة – وأجهزة الإعلام وظاهرة اللحن المقروء والمسموع والمرئي في نشاطها اليومي – والمجامع اللغوية وقصورها التقليدي..!.





الفصل الخامس

ومثال عندما ماتت الجزائر بقطع لسانها

ثم عادت بالقرآن والتعريب إلى حياتها



وأخيرًا في مجال استشهادنا بأقوال ودراسات عدد من علماء اللغة المعاصرين على ارتباط الأمل المشرق بوحدة العرب، وقوتهم، وتقدمهم، في هذا العالم المتفجر بالأطماع والصراعات من حولهم، ننقل من نفس المصدر، أي من الجزء السادس من الكتاب السنوي «مع القرآن الكريم» الذي تصدره خاصًا بالعاملين بها، وتحصينًا لهم من الأفكار الانحلالية أو الإلحادية الوافدة – شركة المقاولين العرب بالقاهرة.. ننقل هذه الفقرات من الدراسة التي سجلها الدكتور يوسف حسن نوفل مدرس الدراسات الأدبية بكلية البنات بجامعة عين شمس، حول هذه العظة الحية التي لا تزال ماثلة لنا على أرض الجزائر، في مأساة شعبها عندما قطعت فرنسا لسانه العربي بكل قسوة بعد استعماره، ثم في الكفاح المتواصل لهذا الشعب حتى اليوم ليستعيد بالقرآن الكريم، حياته بالتعريب، بعد أن فقدها وفقد حريته بالاغتراب والتغريب..

استعمار الأرض واللغة:

يبدأ الدكتور يوسف نوفل هذه الدراسة اللغوية العلمية التاريخية وهو يجمع شواهدها الأليمة من مأساة الجزائر تحت الحكم الاستعماري الجائر لفرنسا فيقول:

«حرص الاستعمار الفرنسي للجزائر منذ احتلالها المبكر سنة 1830 على محو السمات القومية والدينية للجزائريين، وفرض الاستعمار لغته على كثير من المثقفين في الجزائر وشمال أفريقية. وحيث يأتي واحد مثل «لويس ماسينيون» فيصور للجزائريين أن الحلاج الذي ادعى الألوهية على أنه صورة من المسيح عليه السلام، وما كان ذلك إلا لإحداث الفرقة بين المسلمين في الجزائر، وتوهين اعتقادهم في دينهم وتراثهم. وقد صحب ذلك

قضاء فرنسا على المراكز الثقافية المزدهرة في الجزائر منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، كما أغلقت نحو ألف مدرسة، مما حمل أحد الكتاب الفرنسيين وهو «بولار» على أن ينسب إلى فرنسا مسئولية تأخر الجزائر في القرن الحالي حيث يقول: «لقد أشاع دخول الفرنسيين في الأوساط العلمية والأدبية في الجزائر اضطرابًا شديدًا فهجر معظم الأساتذة الأفذاذ مراكزهم هاربين».

«وعملت فرنسا من أول الأمر على ألا تفتح مدرسة قرآنية إلا بشروط مهينة تسخر بها التعليم لخدمتها، وقد وصف محمد فريد الوطني المصري ذلك في جريدة اللواء في 12 أكتوبر سنة 1901 قائلًا: «لو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في جميع المعاملات، بل ربما لا تدرس اللغة العربية بالمرة حتى مع مضي الزمن..»».

«وهذا ما حدث تمامًا، إذ قضت فرنسا على اللغة العربية، وعملت على «فرنسة» الجزائر لغة وحضارة، وفرضت حجابًا كثيفًا من الصمت عزلت وراءه الجزائر قرنًا كاملًا، وأضحت مأساة الغزو اللغوي، وضياع اللسان القومي مشكلة ذات أبعاد واضحة، وجوانب صعبة، وصار أدباء الجزائر يكتبون بالفرنسية من أمثال: محمد ديب، وكاتب يس، ومالك حداد، ومولود معمري، وآسيا جبار وغيرهم..!

«إن حرب الاستعمار الأوربي للسان العربي المرتبط بالقرآن الكريم قديمة، حتى لا تنهض بهذا اللسان نهضات إسلامية تسد الطريق على هذا الاستعمار. وهكذا نجد أنه عندما وطئت أقدام فرنسا أرض الجزائر لم يكن بها أحد يتكلم الفرنسية، ولكنها لم تلبث أن شرعت في الاتصال بالرأي العام باستئجار الأقلام المأجورة، ثم بدأت في برنامج المسخ والغزو ابتداء من فرنسة أجهزة الحكومة، ودوائر العمل، ثم فرنسة التعليم فرنسة

كاملة لم تترك اللغة العربية في المنهج الدراسي سوى ساعتين في الأسبوع خصصتا لتدريس «اللهجة العامية» بوصفها لغة ثانوية إضافية بعد الفرنسية، وكوسيلة أيضًا لمحاربة وإقصاء الفصحى لغة القرآن الكريم، والثقافة العربية الإسلامية..

«بهذا عملت فرنسا من أول عهد استعمارها على تحقيق هدفين كل منهما شر: الأول فرنسة أرض الجزائر، والآخر فرنسة سكانها بفرنسة لغتهم، مثلما فعلت إنجلترا بأستراليا ونيوزيلندة، ومثلما تشهد قطعة من وطننا المعذب وهي فلسطين حين تحاول الصهيونية أن تهودها وتمحو معالمها لغة، وأرضًا، وحضارة..!

«ولم يستسلم العرب الجزائريون إلى هذه الجرائم التي كان منها هدم المساجد، وإضعاف القضاء الشرعي، والاستيلاء على أموال الأوقاف، وتشجيع التبشير والتنصير، فقامت حركات عديدة للمقاومة كثورة الأمير عبد القادر الجزائري، ومالك بن بني، والإبراهيمي، ومحمد المقراني، وقامت جمعيات عديدة مثل جمعية نجم شمال أفريقية، ثم أسس مصالي الحاج «حزب الشعب الجزائري» إلى أن قامت الثورة الكبرى سنة 1945، وقامت حرب التحرير سنة 1954..».

جمعية العلماء:

ويمضي الدكتور يوسف نوفل في تتبع مراحل هذه المأساة الواعظة للأمة العربية على أرض الجزائر في صحوتها المعاصرة للجهاد عن لغتها، ودينها، ووحدتها، فيقول:

«وأسس علماء الدين جمعيتهم، وقد قام رائدها عبد الحميد بن باديس «سنة 1889 – 1940» بنشاط كبير في حركة الجهاد الوطني

واللغوي والديني، وكان من أبرز مواقفه في سنة 1930 – عندما أرادت فرنسا أن تحتفل بمرور مائة عام على احتلال الجزائر وإدماجها وفرنستها أنه وقف ينادي بعروبة الجزائر، ويعلن رفض الشعب الجزائري العربي أنه جزء من فرنسا، ويدافع عن العروبة والإسلام، كما كان هذا شأنه في خطبه، ورسائله، وندواته، ودروسه، ونثره، وشعره..

«ووضعت جمعية العلماء خطتها لنشر التعليم العربي الإسلامي في المدن والقرى، وذلك في مرحلتين: مرحلة شملت المدارس التي عدها الاستعمار غريبة وهي في وطنها، والمرحلة الثانية منه سنة 1947 عندما تم إنشاء معهد علمي يجمع أبناء الجزائر الذين كانوا يشدون الرحال إلى جامعة القرويين في فاس، أو الزيتونة في تونس..

«ولقد قاومت فرنسا بشدة نشاط ابن باديس، كما قاومت جماعته في جمعية العلماء، ولكن ابن باديس لم يلن، ومضى يستحث الجزائريين ليثبتوا على مقاومتهم، وعلى جهادهم لإجبار مقوماتهم، وهو يتحدث إلى العلماء في هذه الجمعية بقوله: «إن جمعيتكم أمينة على حفظ الإسلام، ولغة الإسلام، في هذه الديار». وقوله «لا تفتأ جمعيتكم إن شاء الله دائبة في سبيل الإسلام، والعربية لغة الإسلام، في دائرة القانون العام، وإن لحقها في ذلك كل ظلم وعدوان»..!

اللغة العربية والقومية:

ويصل الدكتور يوسف نوفل في حديثه عن مأساة الجزائر التي تمثلت في فقد لسانها العربي، وفي جهادها برغم الغربة والشتات لاسترجاعه، واسترجاع حريتها وحياتها به – أنه يصل إلى رواسب وبقايا هذه المعاناة الطويلة للتخلص من أهوال الفرنسة، ومخاطر الدمج للأرض واللغة،

والضياع للتراث والذات والهوية، وهو يتحدث عن أثر المفهوم المتميز للقومية العربية، وخصائصها اللغوية والدينية، في احتمالات النجاح والتوفيق في علاج الأزمة اللغوية المعاصرة في الجزائر، وتيسير استكمالها لخطط وأهداف التعريب الشامل والنشط لغويًا، ودينيًا، وقوميًا، للشعب الجزائري.. وذلك حيث يقول:

«وبمناسبة مأساة الجزائر اللغوية، والتي استهدفت القضاء على انتمائها القومي، نقول إننا نعبر أحيانًا عن القومية العربية بالعروبة، وذلك لاستناد هذه القومية إلى اللغة هذا الاستناد الذي لا يقل عن استنادها إلى العوامل الأخرى مثل الأرض، والجنس، والعقيدة، والتاريخ، إذ ترجع مكانة اللغة العربية عند العربي إلى عصر ما قبل الإسلام، وحيث مثلت اللغة مظهرًا من مظاهر الوحدة التي تمثلت في هذه اللغة المشتركة بين القبائل بلهجاتها المتعددة، وحين نزل القرآن الكريم بلسان هذه اللغة الموحدة رسخت أقدامها، وصارت لها منزلتها في بناء صرح الروابط العربية القومية..

«ومن هنا فإن القومية العربية التي احتفظت بمظاهرها الحية الوضاءة منذ فجر التاريخ تمتاز على جميع القوميات الحديثة التي ظهرت أخيرًا في عصر القوميات الأوربية منذ بداية القرن التاسع عشر، والتي دارت حول نظريات: اللغة، أو المصالح المشتركة، أو التاريخ والعادات، أو الوحدة الاقتصادية. إنها تمتاز بكل هذه الروابط والأواصر مجتمعة ومتسقة في لغتها المعبرة لقومها عن الديني والدنيوي في شريعة لا تتبدل، ونظام أخلاقي لا يتغير..

«وهكذا فإن علاج الأزمة اللغوية في الجزائر يرتبط ارتباطًا كبيرًا بصحوة هذه القومية التي تربط الجزائريين بوطنهم الأم، وبلغتهم الفصحى

بهذا الوطن، وبكتاب الله المحفوظ الذي نزل بهذه اللغة. فكما تفوقت العربية قديمًا على اللغات التي واجهتها بعد الإسلام على أرض الوطن العربي، من فارسية، ويونانية، ورومية، فإن اللسان العربي لشعب الجزائر لن يعود فيقوى عوده، وتخضر أغصانه، إلا بقوة هذا الرباط القومي والديني، وبهذه الصحوة، إلى الوحدة اللغوية العربية كما تتبه إليها قوة الانتماء القومي العربي..

«وهكذا فإنه إذا كان عدد من ألمع أدباء الجزائر القدامى قد كتبوا وأنتجوا باللغة الفرنسية، فإن على الأدباء المعاصرين بالجزائر أن يتوجهوا بنشاطهم الأدبي وجهة قومية من خلال صحوته الفكرية واللغوية، والدينية والإنسانية. ذلك أنه إذا كان الأدب بمستوياته المختلفة قد رافق معارك القومية العربية منذ اقدم العصور، فإن على الأدب الجزائري المعاصر أن يقدر مسئوليته الوطنية فلا يقتصر على تحقيق ملامحه العربية لنفسه فحسب، بل عليه أن يحققها فيما حوله، وفيمن حوله. وإذا كان الأدب الجزائري قد استطاع أن يعبر عن آمال شعبه في مرحلة مأساته الوطنية واللغوية الماضية، بلغة فرنسية – داخل الجزائر وخارجها، بل داخل فرنسا أيضًا، فليس صعبًا عليه أن ينشط لأداء رسالته في هذا العصر، بلسان عربي فصيح، داخل وطنه الجزائر، نشدانا للنجاح الكامل لمراحل وخطط التعريب، ومشاركة فعالة بهذا الأدب الفصيح في البناء الثقافي والحضاري الوطني. ثم مشاركة أوسع بهذا الأدب الحي باللغة الفصحى، المفهومة في كل الشعوب العربية، في هذه المعركة القومية، والحضارية، التي تخوضها الأمة العربية بكل شعوبها أمام تحديات هذا العصر بين أن تكون.. أو لا تكون..!.

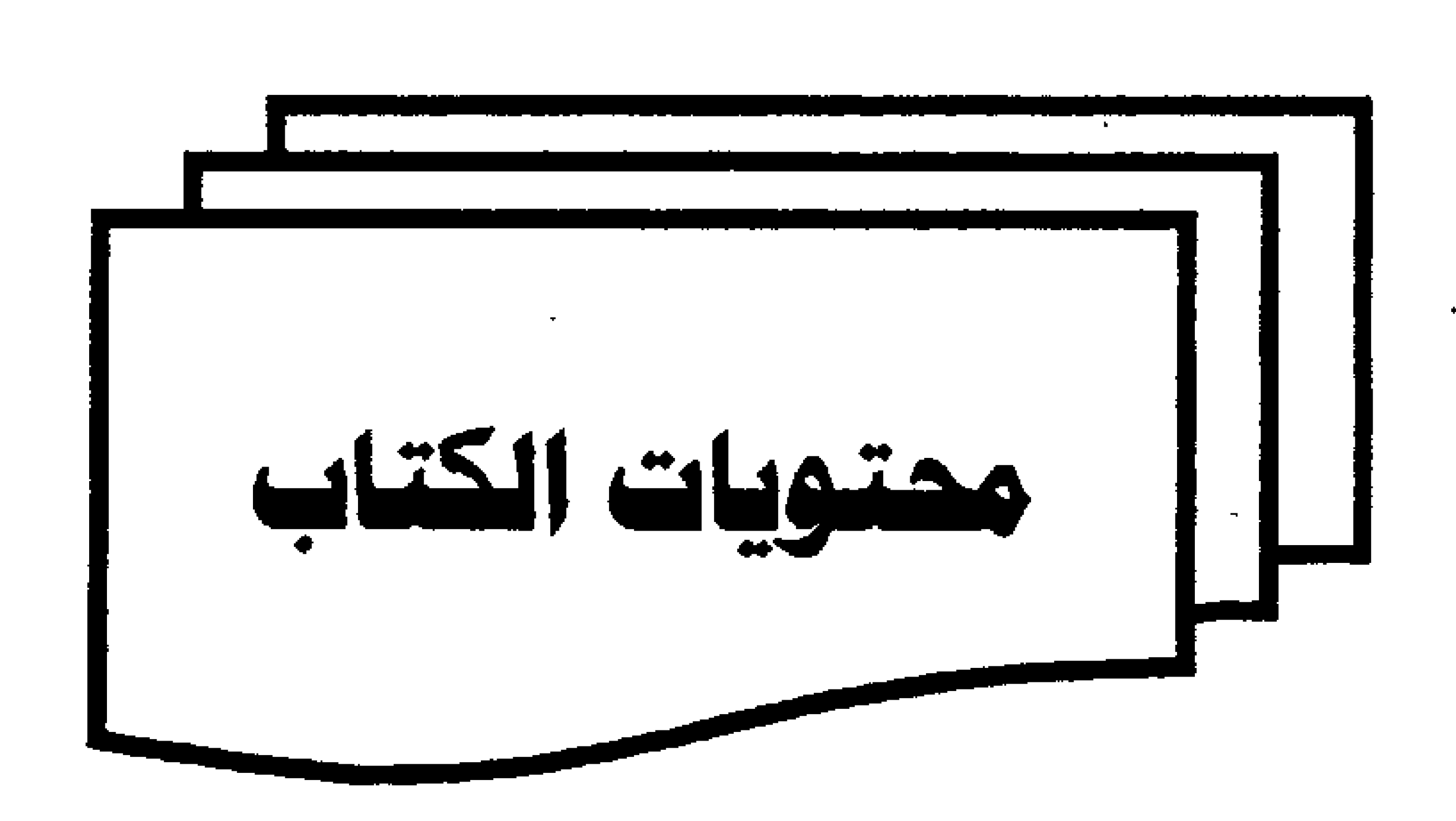
«ولئن كانت سمات ومعالم نجاح «التعرب» و «التعريب» قد أخذت تظهر في الجزائر منذ سنة 1968 عندما تقرر إبعاد أي موظف أو عامل لا يعرف العربية، فإن المزيد من التعرب، وتحفيظ القرآن الكريم، ونشر العدد الكافي من المدارس لتعليم اللغة العربية، ومدارس إعداد المعلمين لهذه اللغة بمناهج وطرق تربوية سليمة، لا يزال مطلوبًا، بعد أن أخذت الميادين والطرق والشوارع تحمل أسماءها العربية، وبعد أن ترجمت أكثر لافتات المتاجر إلى العربية..

«وإذن.. وبعد أن تجاوزت الجزائر مأساتها خلال قرن وربع القرن، وانتقلت إلى مرحلة من كفاحها أكثر أمنًا وأوسع أملًا، وذلك على الرغم ممن تخاذل من أبنائها عن نصرة لغته ودينه، أو تواطأ مع المستعمر، أو وقف موقفًا سلبيًا منه. فإن كل هذا الذي وقع أمام أعيننا لشعب شقيق، وقد كنا في مصر أكثر أشقائه قربًا إليه، ومشاركة له، وحدبًا عليه – إنما يقدم لنا ولكل الشعوب العربية ما لا ينبغي أن نغفل عنه من العبرة والعظة التي يزداد معها الحذر في مقاومة مثل هذا الخطر.. خطر موت اللغة.. وموت العقيدة بموت اللغة، وموت الحرية بموت العقيدة..!

«وبكل الوضوح.. لعل ما وقع من مأساة فرنسة الجزائر بالأمس، والتي لا تزال تجر آخر ذيولها إلى اليوم من بقايا مشكلات التعرب والتعريب – أن يكون للأمة العربية كلها عظة وذكرى تنفع المؤمنين، وتذكر الغافلين، بكل هذه المخاطر المحدقة التي لا تزال – تحت مسميات جديدة للعدوان من الشرق والغرب – تهدد بقايا العرب على أرضهم، هذا البقاء الحر العزيز، الذي يحملون به بكل أصالتهم، ومقوماتهم، أمانة المشاركة في آمال العصر وهم يحققون بألفة قلوبهم، ووحدة شعوبهم،

وقـوة إيمـانهم، وفـصحى لـسانهم، نعمـة التقـدم، ونعمـة الرخـاء، ونعمـة السلام..»

وعند هذا القـدر مـن البيـان والحجـة، ومـن التـذكير والتـوير، أصـل بهـذا الكتـاب إلى غايتـه، مبتغيًـا وجـه الله، وهـذه المـودة في القربـى إليـه.. وسلام على من اهتدينا بدعوتهم من المرسلين، والحمد لله رب العالمين؟


محتويات الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة
– من هو العربي:	52
الفصل الثالث: الهوية الضائعة للإنسان العربي.. يجدها مشرقة في لغته المبينة:	55
الانتماء للبيان:	58
– وحتى هم يعترفون:	60
– الوجود باللغة:	63
الفصل الرابع: وفي البداء المضيء بحركة الواقع.. نشأت اللغة العربية تامة الحروف:	67
آيات الحروف:	71
– أنواع الاستهلال:	72
– آيات القسم:	74
– أربعة عشر حرفاً:	76
– السبع المثاني: .	81
الفصل الخامس: شهادة القرآن بكمال اللغة العربية.. باتساع دلالتها على الدنيوي والأخروي:	83
العلم والإيمان:	85
العلم بغير إيمان:	86
الدنيوي والأخروي:	89
الدائم والزائل	91
القسم الثالث	
العقل العربي على خريطة مناهج التفكير	97
الفصل الأول: خريطة مناهج التفكير في العالم..	99

الموضوع	رقم الصفحة
والعوامل التي اختلفت بها هذه المناهج:	
الإنسان المؤمن الأول:	101
اختلاف مناهج التفكير:	104
الخريطة الجغرافية للأفكار:	108
الفصل الثاني: فوق الأنعام وبين الآفاق والآيات.. أضاء للعرب برهانهم على الله:	111
البداء والأنعام:	115
– الآيات والبرهان	119
– البرهان حجة	120
– البرهان عام للجميع	122
وهو برهان علمي	124
الفصل الثالث: من إسماعيل إلى عصر النبوة.. كان العرب يحبون الله ويضرعون إليه	129
نثر الحكمة والوصايا	134
البيئة والأخلاق.	137
الفصل الرابع: مؤثرات العقل العربي تقود العالم.. بصورتيه المتباعدتين: أبناء إسماعيل وبني إسرائيل	143
الوحدانية والبساطة	146
الآريون والفلسفة	150
العرب واليهود	152
الطريق التحريفي لليهود	153
اليهود في أوربا	158
الفلسفة الأوربية الحديثة	160

الموضوع	رقم الصفحة

كتب للمؤلف

1- ضوء في تاريخ التوحيد.. من مطبوعات الأنصار.. نفد.

2- الإسلام وقضايانا المعاصرة.. طبعة أولى.. مكتبة القاهرة.. نفد.

3- حقائق أساسية في الإسلام.. دار روز اليوسف.. نفد.

4- الإسلام وقضايانا المعاصرة.. طبعة ثانية.. دار الجيل – بيروت.

5- لماذا ظهر الإسلام في جزيرة العرب.. دار الجيل – بيروت.

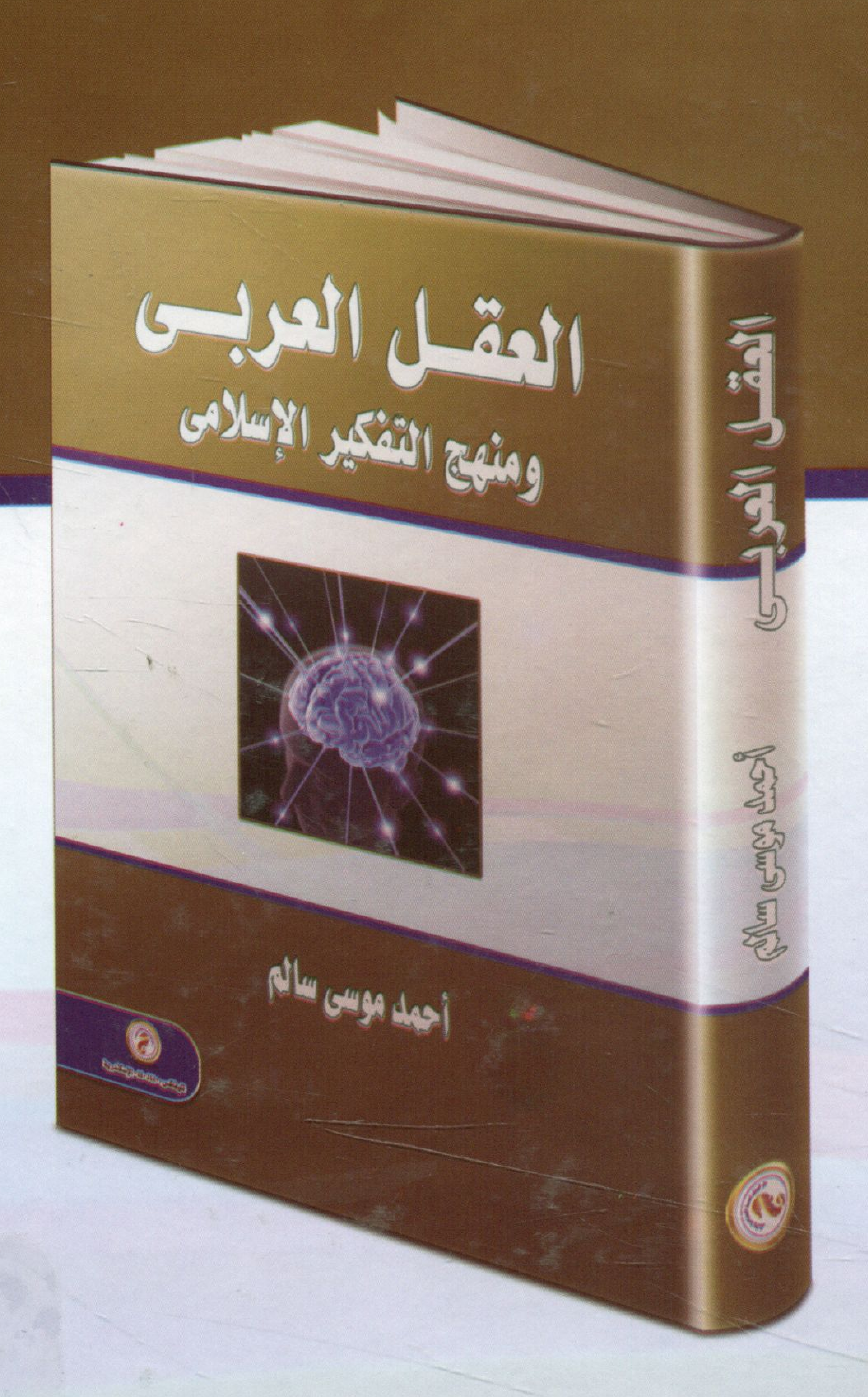
6- سباق المستقبل بين الدين والشيوعية.. دار الجيل – بيروت.

7- قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح.. دار الجيل – بيروت.



رقم الإيداع : 3081/ 2013
الترقيم الدولي : 978/977/6413/55/9

مع تحيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : 5404480 - الإسكندرية





الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
٥٩ ش محمود صدقى متفرع من العيسوى سيدى بشر - الإسكندرية
تليفاكس : ٥٤٠٤٤٨٠ / ٠٠٢٠٣ - الاسكندرية

